

الدكتور إبراهيم السمرائي

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التَّطَوُّرُ اللِّغَوِيُّ

التَّارِيخِيُّ



دار الأنجلو

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التَّطَوُّرُ اللِّغَوِيُّ

التَّارِيخِيُّ

الدكتور إبراهيم السمرائي

التَّطَوُّرُ اللِّغَوِيُّ التَّسَارِيخِي

دار الأنجلو
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

جميع الحقوق محفوظة

دار الأندلس - بيروت، لبنان

هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ١١٤٥٥٣ - تلکس ٢٣٦٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة في التطور اللغوي

التطور اللغوي يعرض للعربية كما يعرض لأية لغة في عالمنا المعاصر. ولعل اللغات التي لم يكتب لأهلها أن تتبوأ مكان الصدارة في هذه الحياة المعاصرة أشد تأثراً بغيرها من اللغات المتطورة. وقد يأخذ مفهوم «الغلبة» على «التطور» فينصرف في استعمالنا في العربية إلى معنى «التقدم»، كأن نحس أن العربية مثلاً متخلفة عن ركب اللغات المتقدمة في مادة «المصطلح الفني الحديث» Le Terme technique فنقول إن لغتنا أصابت من التطور في مادة هذا «المصطلح» نصيباً موفوراً.

قلت: إن التطور يعرض لكل اللغات، وأضيف إن هذه الظاهرة الاجتماعية تعرض للألسن الدارجة فتكون العامية في أي قطر عربي في عصرنا هذا غيرها في عصور سلفت. وليس أدل على هذا من تقارب العامية من اللسان الفصيح فأنت تحس أن العامية في أي بلد من البلدان تقرب من الفصيح وذلك لشيوع التعليم، وشيوع وسائل الإعلام في أي بلد. وإذا عرفنا أن «اللهجات» قد تحدت الفروق بينها في الزمن القديم بسبب من عزلة أهلها في بقعة لا يتاح لهم الاتصال الكثير مع غيرهم، وانعدام الكثير من وسائل الإعلام على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا، فإن الفروق فيما بينها قد ضعفت بسبب من الاتصال الكثير.

وكما تتحد البلدان العربية في أنها تتخذ من العربية الفصيحة أداة حضارية للعلم والعمل، وهي بهذا تؤلف وحدة طبيعية اجتماعية حضارية، تختلف فيما بينها في خصوصيات هذه اللغة الفصيحة في أي بلد من هذه البلدان. أريد أن أقول: إن العربية الفصيحة تكتسب في أي بلد

من الألوان المحلية الخاصة ما يكون طابعاً لها يميزها عن غيرها. إنه ليس مما نبالغ فيه أن نقرأ مقالة في صحيفة أو كتاب فنحس أن صاحب هذه أو ذاك لبناني أو سوري، وإننا نقرأ شيئاً آخر فنشعر أن صاحبه من الشمال الأفريقي.

إن مادة كل هذا تدخل في باب «التطور اللغوي» الذي تمثل في العربية المعاصرة في أقاليمها المختلفة. لقد أشرنا في هذا الكتاب إلى فصول من المادة اللغوية يتجلى فيها مبدأ «التطور» على نحو بارز، وعرضنا فيه للميادين التي كانت فيها العربية لغة متطورة تستجيب للمؤثرات الخارجية والداخلية.

لقد أشرنا إلى أن أول تجربة مرت بها هذه اللغة وهي تجربة العربية وهي تواجه الإسلام فتنتقل إلى لغة حضارة جديدة اتسمت شيئاً فشيئاً بمبدأ «العالمية». ثم أتيج لهذه اللغة أن تواجه الحضارات طوال العصور الإسلامية المتعاقبة.

غير أن من أعظم التجارب التي كان لها الأثر العظيم هي التجربة الحديثة التي تواجهها لغتنا المعاصرة. قد نقول: إن أصالة العربية، وما أفادته من التجارب الكثيرة تجعل منها أداة تملك من أساليب الوقاية ما تستطيع بها أن تواجه هذا المدّ الزاخر من الروافد الحضارية المعاصرة.

وقد يفرض هذا العصر على العرب أن يتعجلوا المسيرة ويجعلوا لغتهم تأخذ الجديد ولو كان أعجمياً، وتصنع فيه ما صنع الأوائل في استبدال أصوات بأخرى لا تعرفها العربية، وبتغيير الصيغ تغييراً يقرّبها من الأبنية العربية.

ثم إننا مضطرون إلى الإيمان بالجديد وأخذة رضي نفر من أهل الحفاظ أم لم يرضوا. إننا لن نصل إلى شيء كبير إن فرعنا إلى التمييز بين ما قالته العرب وما لم تقله. إن لغتنا الحديثة كسائر اللغات الأخرى تزخر بالجديد المستعار من الأساليب من اللغات الأخرى. ولا يضير العربية أن تتجدد فيها أساليب، وإن من هذه الأساليب ما غبّر عليه عشرات من

السنين حتى خيل لكثير من المعربين أنه من العربية.

ألا ترى أنك لو قلت: «إن الأكثرية الساحقة من العرب تدرك أساليب المستعمرين في الاستغلال» مثلاً، لا يمرّ بخاطرِكَ أن «الأكثرية الساحقة» هذه تعبير ليس من العربية؟ وأنه مما استعير في عصرنا مع عشرات بل مئات من التعابير من اللغات الأعجمية الغربية. إن قولنا: «الأكثرية الساحقة» تعبير من صفة وموصوف يؤديان معنى خاصاً هو أغلب الناس أو أغلب الجماعة. وهو ما كان يعبر عنه في العربية القديمة بـ «السواد الأعظم» أو نحو من هذا.

و«الأكثرية الساحقة» بعض هذه المستعارات الجديدة التي نقلها التراجم في مطلع هذا القرن فصارت من مواد هذه العربية المعاصرة. إنها من الفرنسية، وهي تقابل «La Majorité écrasante». وهي من غير شك تشير إلى موطن استعمالها، فالأكثرية في المجالس النيابية عند التصويت على قضية من القضايا ترى رأياً يغلب الرأي المقابل الذي تراه «الأقلية»، فكأن «الأكثرية» تسحق الجماعة الأخرى للغلبة الواضحة، وأنت ترى أن التعبير مترجم ترجمة حرفية.

ومثل هذا كثير نستطيع أن نفرد له معجماً خاصاً، وهو يزداد باطراد، فأنت تجد بين حقبة صغيرة وأخرى شيئاً من هذا الجديد الذي يندس في هذه اللغة العربية المعاصرة. وقد نجد شيئاً آخر لا نعرفه في العربية الفصيحة، غير أنه أخذ طريقه إلى العربية الجديدة فصار شيئاً من لوازمها. ومن ذلك استعارة بعض الصفات وإلصاقها بغير موصوفاتها. ألا ترى مثلاً أننا نقول: «مشروع شجاع» «ميزانية متواضعة» و«معاهد فقيرة» و«أفكار جريئة» و«اشتراكية رشيدة» و«مدينة فاضلة»؟

أقول: لم يكن شيء من هذه النعوت قد عرفته العربية الفصيحة فيما خلا هذا العصر من الحقب الخوالي. ولكن هذه التعابير من الجديد الذي عرفته اللغة المعاصرة، فما كان للعربية أن تعرف الشجاع إلا وصفاً لبني الإنسان، وما كان لها أن تطلق الجريء إلا صفة لفلان أو فلان من خلق

الله ممن عرفوا بـ«الجرأة». ومثل هذا يقال في «التواضع» و«الفقير» و«الرشيد» و«الفاضل» فكلها من صفات العاقل، فانتقلها إلى وصف ما لا يعقل من لوازم حياتنا المعاصرة شيء جديد عرفناه في اللغات الغربية ثم نقلناه شيئاً فشيئاً إلى العربية الجديدة فصار من مادتها وصفاتها التي عرفت بها.

وقد تعجب إذا قلت لك: إن هذا الجديد الوافد قد تجاوز هذا القدر من الشيوع في لغتنا إلى شيء يتصل بما ندعوه «النحو». ألا ترى أن الجملة العربية في بنائها وترتيب موادها قد تأثرت بالأساليب الغربية. فقدّمنا ما يحسن ألا نقدمه، وأخرنا ما يحسن أن نقدمه دون أن نراعي أصول العربية. إن من أصول العربية في بلاغتها وحسن نظمها أن نقدم شيئاً حقه أن يتأخر لغرض خاص مفيد في ضبط معنى من المعاني.

قال المتقدمون مثلاً إن في قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين» تقدماً للمفعول وحقه أن يتأخر، وليس ذلك إلا لغرض من الحصر والقصر، أي أن العبادة مقصورة عليه - جل وعلا - وكذلك «الاستعانة». وإن في قوله تعالى: «فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون» تقدماً من هذا يرمي إلى أن تكون مشاكلة ويكون تناسب بين الآي، لتأتي السورة كلها على غمط من الفواصل حسن مליح، فهو شيء يتصل بالأداء الحسن في نظم كلامه - جلّت قدرته -.

غير أننا لا نرمي إلى شيء من هذه الأغراض حين نقول في العربية المعاصرة:

«المسألة بالرغم من أنها ليست بذات قيمة، فإنها تؤثر في.....».

ألا ترى أن الوجه أن يقال: «المسألة تؤثر في..... بالرغم من أنها.....».

وفي هذه الحال يتوفر لها حسن الترتيب والبناء. ومثل هذا كثير يدركه العارفون ببناء هذه اللغة وتطورها.

أقول: لعل شيئاً قليلاً وكثيراً من الجديد قد عرض للعربية في غير هذا العصر ولكنه لم يكن استعارة من لغة أخرى، بل كان اجتهداً من المعربين. ومن هذا جلُّ أقوالهم القديمة التي زعم النقاد اللغويون أن أصحابها، ولا سيما الشعراء، قد خرجوا فيها على عمود الشعر.

خذ مثلاً قولهم في قول أبي تمام:

يا دهرُ قَوْمٍ من أَخْدَعَيْكَ فقد أَضْحَجْتَ هذا الأَنَامَ من خُرْقِكَ.

لقد أخذوا على الشاعر أن ينسب للدهر «أخدعين» و«الأخدع» من مادة «خلق الإنسان» فكيف يكون للدهر!

ويحسن بي أن أشير أخيراً إلى أن مادة هذا الكتاب تتناول موضوع التطور اللغوي في العربية التاريخية، ولا بد لنا من أن نفرّد للعربية في عالمنا المعاصر كتاباً آخر يكون الجزء الثاني لهذا الكتاب نعرض فيه العربية المعاصرة والرؤية إلى المستقبل كما نعرض لأساليب دراسة هذه العربية في ضوء ما جد من النظرية العلمية في علم اللغة الحديث والله أسأل أن يهديني سواء السبيل.

أبراهيم السمرقاني

تمهيد

الطبعة الأولى

هذه جملة فصول في التطور اللغوي في ظروفه التاريخية . وهو قائم على الاستفادة من القديم والجديد ، هادف إلى بيان أوجه هذا التطور والعوامل التي أثرت فيه .

وأنا إذ أبسط للقارئ هذه المواد أدعوه أن يسير معي فيتنهم أن هذه اللغة في حدودها الواقعية في عصرنا هذا غيرها بالأمس ، وأنا أدعوه أيضا إلى درسها درسا جديدا مستقريا نصوصها في مختلف العصور ليستكمل له البحث العلمي التاريخي ، وبذلك يتهيأ لهذه العربية أسلوب في الفهم والعلم على نحو ما هو جار في اللغات المتقدمة في عصرنا هذا .

والله أسأل أن يسدد في خطاي جزاء ما قدمت في خدمة هذه اللغة الشريفة .

الفصل الأول

في الفكر اللغوي

لا بد لنا قبل الخوض في موضوع التطور اللغوي أن نمرض لموضوع الحقيقة اللغوية خلال القرون .

لم يفكر الإنسان في كلامه ، فقد انطلق في محاولة هذه الحاجة كما انطلق في المشي والحركة والبحث عن الطعام .

غير أن هذا الإنسان قد بدأ في عصور مبكرة يفكر في الحقيقة اللغوية حين بدأ يفكر في سائر مظاهر الحياة الإنسانية . وقد أدى به تفكيره هذا إلى أن يقرر الحقائق ويعلمها ، ومن هنا نشأ التفكير اللغوي .

وقد ألفت الأمم كافة لغاتها واستعملتها حتى أدى بها الأمر إلى الإعجاب الذي تجاوز الحد المعقول . وقال كل بقدم لفته وافتخر بمجدها الأصيل وأنها باقية على الدهر ، فزعم الصينيون ذلك ، وادعى الأرمن أن لغتهم صاحبة الشرف ، وأن اللغات الأخرى فروع عليها ، ذلك أن الله — جلت قدرته — قد جبل آدم من تربتهم وأنه درج في أرضهم ، وهم من أجل ذلك ورثة لفته الأولى . وكل هذا دعاوى لا تتفق والبحث العلمي التاريخي .

وزعم العبرانيون أن اللغة العبرانية هي اللغة الأولى ، وأن الله قد علم آدم هذه اللغة الشريفة وهم يبنون دعواهم هذه على ما جاء في الإصحاح الثاني من سفر التكوين^(١) : « وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية ، وكل طيور السماء

(١) سفر التكوين؛ الإصحاح الثاني، الآية ١٩، ٢٠ .

فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية .

وجاء الآراميون فنادوا بشرف لغتهم وأنها كانت لغة السيد المسيح وأمه العذراء . وأنها لغة الأسفار المقدسة ، فقد كتب بها سفر دانيال وطوبيا وسفر يهوديت وسفر عزرا وسفر استير . وما زال نصارى المشرق ممن يمت إلى أصول آرامية يعتقدون بفضل هذه اللغة ، وآية ذلك عندهم أن السريانية الآرامية أمدت العربية بثروة ضخمة من الألفاظ ، والنظر المدقق العلمى لا يثبت هذا الادعاء .

وامتاز الإغريق الأقدمون بنظراتهم فى اللغة ، وتناولوا هذه القضية بنظر دقيق فيه كثير من الخدق فتأملوا أصل اللغة وتاريخها ونظامها ، ومن غير شك أن الثقافة اللغوية الحديثة تدين للتراث الإغريق بشيء غير يسير .

وقد حاول أفلاطون أن يبحث فى نشأة اللغة وكيف اهتدى الإنسان فى عصوره القديمة إلى هذه الأداة النافعة . وقد كان من القائلين بأن اللغة إلهام ومقدرة فطرية يكتسبها منذ الخلق . وقد نهج بادية ذى بدء نهجا خاصا عرف به فرأى أن لا سبيل إلى فهم الحقيقة اللغوية إلا بالنظر فى الألفاظ الأولى فى لغات عدة ، ولذا فقد رأى أن النظر فى اللغات الأخرى للشعوب المختلفة أمر ضرورى للوصول إلى الغاية المطلوبة .

أما أرسطو من فلاسفة الإغريق فقد رأى أن اللغة لا يمكن أن تكون إلهاما وموهبة إنسانية . وهو القائل بأن المجموعة البشرية فى مكان ما قد تواضعت وتم الاتفاق بينها على ألفاظ ينظمها نظام خاص .

وقد كان أرسطو أقرب من أفلاطون فى الأخذ بالنظر العلمى ، فقد بدأ بدراسة اللغة فقسم الكلمة إلى : اسم وفعل وحرف ، وتناول موضوعات لغوية ونحوية منها موضوع الجنس Genre والبسيط والمركب ومسألة الإعراب .

وقد كان لآراء أفلاطون وأرسطو مكانتهما التاريخية إذ كان لكل منهما أتباع يذهبون مذهبهما واحتدم الجدل بين هؤلاء فكان من ذلك أن ظهرت مدرستان هما :

١ — مدرسة القياسيين أو النظريين Amalogistes وزعيم هذه المدرسة أريستراخوس Aristrachos من سكنة الإسكندرية في القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد .

وهؤلاء كانوا يرون أن اللغة كائن طبيعي وأنها لذلك قياسية ومنطقية في أصل تكوينها .

٢ — مدرسة الوضعيين أو الشذوذيين Amomalistes وهي المدرسة التي تتخذ من آراء أفلاطون مادتها ، وزعيم هذا الفريق (كراتيس) Krates الذي عاش حوالي سنة ١٢٠ ق . م .

وقد أنكر هؤلاء أشد النكير آراء الفريق الأول وضرّبوا الأمثال للشذوذ الكثير في الاشتقاق والصياغة .

ويرى الشذوذيون أن اللغة فطرة إنسانية لا يمكن أن تنظمها قواعد أو قوانين ثابتة وقد ذهب إلى هذا الرأي « كراتيس » زعيم هذا الفريق في دراساته التي حاول أن يثبت فيها عدم خضوع اللغة إلى القواعد المطردة الثابتة . وهو من غير شك يرد أهل القياس والنظر .

أما هؤلاء القائلون بالقياس والنظر Amalogistes بزعامة أريستراخوس فقد ذهبوا مذهب أرسطو القائل بأن اللغة نظام وضعت الجماعة البشرية في مكان ما ، وهي بهذا لا بد أن تتبع قواعد مطردة .

وقد ظل الجدل قائماً بين أتباع كل من أفلاطون وأرسطو مدة قرون حتى انتهى أن تمثل آراء أفلاطون طائفة الرواقين . كما مثلت آراء أرسطو طائفة

الأيثوريين . وقد ازدهرت الفلسفة الرواقية في الإسكندرية . غير أن هذا العلم الإغريق لم يخلص إلى اللغة وحدها بل خالط الفلسفة حتى أصبحت اللغة وكأنها من أبواب الفلسفة والمنطق .

ولم يكن الإغريق يحسنون إلا لغتهم ، وظنوا أن في الإغريقية صورا صوتية تملو على التفكير الإنساني العام ، وأسرف بعضهم في وصفها والثناء عليها . وقد انبعثت عن هذه النظرة الفلسفية قواعد نحوية وفلسفية عامة لكنها لا تتعدى في جذورها لغة بعينها هي اللغة الإغريقية ، وهكذا فطنوا إلى أقسام الكلمة وإلى بناء التركيب القياسي وردوه إلى موضوع ومحمول (مسند ومسند إليه) وعرضوا لأنواع الإعراب واختلاف الحال من تكلم وخطاب وغيبة واختلاف الأزمنة في الأفعال ، واختلاف الدلالة من تأكيد وأمر ونهي وتعن وغير هذا . على أن هذه المادة النحوية لم تخل من لون فلسفي يدفع أصحابها في هذا السبيل .

وقد تأثر العرب بهذا العلم الإغريقي وقراءوه مترجما على يد الآراميين السريان . ومن العجيب أنهم لم يتأثروا بالتفكير الهندوكي اللغوي بالرغم من اتصالهم بهم . وقد نهى للإغريق بضع لهجات متنوعة سنحت لهم دراستها دراسة مقارنة ، واقتضت هذه الدراسات لتلك الأعلاق النفيسة من تراث الماضي أن يتناولوا الكثير من التفاصيل اللغوية والنحوية والصرفية .

وامتاز بعض المتأخرين من هؤلاء الباحثين أمثال هوروديان Horodian بجمع معلومات ذات أهمية تتصل بالإعراب والنبر Accent في اللغة الإغريقية القديمة .

ولم تزد الأجيال المتعاقبة في الغرب على الأصول والقواعد النحوية التي جاء بها الإغريق القدماء .

وقد ظل تأثير الإغريق قائما في عصور المسيحية الأولى ، فقد اقتنى الرومان خطوات الإغريق في إقامة قواعد اللاتينية ، وظهرت أولى الدراسات في هذا الموضوع في القرن الرابع بعد المسيح ، ثم في القرن السادس . ثم تطورت اللاتينية

القديمة في القرون الوسطى إلى الفرنسية والإيطالية والإسبانية وغيرها ، ولكن اللاتينية القديمة استأثرت بلغة الكتابة والتدوين . وقد أعجب بهذه اللاتينية الأولى العلماء والباحثون فتوهموها النموذج الطبيعي والمنطقي للغة الإنسانية . وقد ذهب بعض الفلاسفة من نحاتها إلى جملة من خصائصها ، ولكن هؤلاء لم يأتوا بشيء ذي بال ، ثم تطورت هذه النظرة إلى اللاتينية في العصور المتأخرة فأفضت إلى تحرير نحو عالمي عام ذهابا منهم إلى أن تكوين اللاتينية بجملته وتفصيله ينبني على قوانين ثابتة لا بد أن يلتزم بها المنطق الإنساني في كل مكان .

ولقد كان من تأثير الإغريق في الأوربيين أن انقسم الباحثون من هؤلاء إلى طائفتين : الكنسيين والمدرسين .

وقد ذهب الكنسيون مذهب أفلاطون واعتقدوا أن اللغة هبة من الله — جلت قدرته — للإنسان ، وأن لغة الإنسان القديم كانت واحدة ينتظم فيها أمم شتى حتى سقوط برج بابل ، وتفرق أبناء نوح عن بعضهم في البلاد وكان عدد هؤلاء اثنين وسبعين ، فكان بسبب ذلك أن انقسمت اللغات إلى اثنتين وسبعين لغة .

وقد ذهب المدرسيون مذهب أرسطو فقالوا إن اللغة ما تواضع عليه المجتمع الإنساني في مكان ما .

ثم اتسع أفق أهل العلم في عهد النهضة وما لبثت اليونانية أن عادت إلى حلقات المدرسين ثم أضيف إليها العبرانية والعربية . ثم كانت سياحات ورحلات ورحلات مكنت السامعين من نقل كثير من عناصر اللغات التي سمعوها ، فجمعوا ألفاظا من تلك اللغات التي عرفوها في تنقلهم . وقد فعل هذا أحد البحارة الذين اشتركوا في رحلة ماجلان الشهير ويدعى بيكافيتا Pigafitta .

وربما فطن بعضهم إلى المشابهة بين اللغات كما حصل لـ (ساسيتي Saseetti) الذي أدرك ناحية الشبه بين اللغة السنسكريتية واللغة الإيطالية ولهم من هنا توصلوا أن لا بد إلى تقسيم اللغات إلى مجموعات ،

وهذا الاتجاه في الفهم اللغوي كان ملحوظا ، فقد بحثوا في التقارب والتشابه من ناحية الألفاظ واشتقاقها بين اللغات السامية بصورة عامة والإغريقية واللاتينية والفرنسية . على أن هذا النحو من التفكير كان مدعاة أن يدخل فيه الحدس والتصور والافتعال ، ومن ثم ابتعاد عن العلم الصحيح .

ثم اتسع نطاق التجارة وتيسرت وسائل النقل فأفضى ذلك إلى تدوين نحو ومعاجم للغات التي اشتدت إليها الحاجة .

ثم اتجه الباحثون إلى درس لغاتهم الخاصة ، فكان من ذلك أن قام جماعة من اللغويين الفرنسيين في تأليف كتاب « نحو بورت رويال Grammaire de Port Royal » وقد أراد هؤلاء في عملهم أن يكون دراسة واضحة المعالم للنحو العام .

وكان القرن الثامن عشر حافلا بالدراسات اللغوية ولكن الاتجاه العلمي فيه ظل كما كان عليه في الحقبة السابقة .

ففي سنة ١٧١٠ نشر (لينز) في مجلة أكاديمية برلين فقرر أن اللغات لم تؤخذ من اللغة العبرانية ، وأن لابد من تقسيم هذه المجموعة اللغوية الكبيرة إلى مجموعات لكل مجموعة منها صفاتها الخاصة التي تتميز بها . وقد أشار إلى مجموعتين كبيرتين هما :

(١) ما يعرف لدى الباحثين بالمجموعة الهندية الأوروبية Indo-Européan

(٢) المجموعة الأورالية الألتية Ural-Altique ، ويدخل في هذه المجموعة طائفة اللغات الفنلندية والأستونية ولغة اللاب واللغات التركية واللغوية .

وعلى هذا فإن هذا الباحث كان من أوائل القائلين بتقسيم اللغات إلى مجموعات .

ومن مظاهر نشاطه العلمي الصحيح إدراكه قيمة الأطلس اللغوي كما أشار إلى ضرورة مقارنة المراحل المتأخرة للغة بالمراحل المتقدمة واهتدى إلى مسائل لغوية كان

فيها السابق لكثير من اللغويين . وقد كتب آراءه هذه في كتابه الذي نشره في باريس سنة ١٨٨٦ تحت عنوان :

«Nouveaux essais sur l'intendement Humain»

ثم جاء المسلمون فبحثوا في العربية وأعجبوا بها ، وسحرتهم لغة التنزيل فكان ما كان من دراسات في مسألة الإعجاز ، وجرتهم هذه الدراسات إلى القول بالتوقيف ، وإلى هذا ذهب أحمد بن فارس من أئمة اللغة في القرن الرابع معتمداً على قوله تعالى :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ ^(١) ، وهو يشير إلى قول ابن عباس : « إن الله علمه الأسماء كلها وهي هذه التي يتمارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وسمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها » ^(٢) .

ولم يقتصر ابن فارس على القول بالتوقيف في اللغة ، فهو يرى أيضاً أن الخط العربي توقيف لظاهر قوله عز وجل : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ^(٣) . وقال جل ثناؤه : ﴿ والقلم وما يسطرون ﴾ ^(٤) . وإن أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل (ع) ، وضعه على لفظه ومنطقه ^(٥) .

ويأتى أبو الفتح عثمان بن جني من علماء القرن الرابع الهجري فيعرض للمسألة نفسها في « باب القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح » وابن جني يعرض للمسألة فيذكر عدة آراء في الموضوع ، وهو يقول في أول هذا الباب : إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحى ولا توقيف .

(١) البقرة ٣١ .

(٢) ابن فارس ، الصحابي ٥ .

(٣) العلق ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٤) القلم ١ .

(٥) ابن فارس ، الصحابي ٧ .

إلا أن أبا علي — رحمه الله — قال لي يوما : هي من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (١) .

وابن جنى يمرض رأى القائلين بالتوقيف ويشرحه ، وكيف أن الله علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات ، ثم يعود للقائلين بأن أصل اللغة لا بد فيه من المواضع . ثم ينقل ابن جنى رأى من يقول : إن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخريف الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهو يقول : وهذا عندي وجه صالح ومذهب مقبول . وابن جنى لا يقطع في ذهابه إلى رأى من هذه الآراء ، وهو في عرضه لهذه الآراء متردد في الأخذ بأحد منها وهو يقول : « واعلم أنني على تقادم الوقت دائم التنقيح والبحث عن هذا الموضوع فأجد الدواعي والخوارج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات على فكري . وذلك أنني كلما تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاق والرقّة ، ما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر فن ذلك ما نبه عليه أصحابنا — رحمهم الله — ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت تنابيه وانقياده ، وبمد مراميّه وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه . ولطف ما أسعدوا به ، وفرق لهم عنه . وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار الماثورة بأنها من عند الله — عز وجل — فقوى في نفسي اعتقاد كونها توقيفا من الله — سبحانه — وأنها وحى .

ثم أقول في ضد هذا ، كما وقع لأصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا — وإن بعد مداه عنا — من كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجراً جنانا ، فأقف بين الخلتين حسيرا ، وأكاثرها فأنكنى مكثوراً وإن خطر لي فيما بعد ،

ما يعلق الكف بإحدى الجهتين وبكفها عن صاحبها قلنا به «^(١)» .

وقد أشرت إلى أنهم أحبوا العربية وتعلقوا بها ، ومن أجل ذلك توهموا أن آدم كان يعرف العربية ونسبوا إليه قول الشعر ، كما نسبوا للجن أشعاراً عربية أخرى . وهم يرون : « أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها ، إنما استهواه واستخف حله وضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها ، وعرضت عليها الجنة والنار في حواشها وأحناؤها »^(٢) . وأنت تحس حين تقرأ في الأخبار أن لسان أهل الجنة عربي مبين ، وأنت تقرأ قوله تعالى : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾^(٣) ، فتعلم قيمة العربية وشرفها عندهم . وقد أخرج ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس ، أن آدم عليه السلام كان لفته في الجنة العربية ، فلما عصى سابه الله العربية وتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية^(٤) .

ومن أجل ذلك فالعربية عندهم أفضل اللغات وأوسعها ، ذلك أنها لغة التنزيل ، قال الله عز وجل : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ﴾^(٥) . ولهذا فقد كان اللحن في العربية بمنزلة الضلال كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال لرجل لحن : أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل ، وقال أيضا : رحم الله امرءاً أصلح من لسانه^(٦) .

وقد أحب هؤلاء العربية فدرسوها واهتدوا لمسائل دقيقة فيها . قال الفراء : « وجدنا للغة العرب فضلا على لغات جميع الأمم اختصاصا من الله تعالى وكرامة

(١) ابن جني ، الخصائص ١ / ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٤٥

(٣) سورة النحل ١٠٣ .

(٤) السيوطي ، المزهري ١ / ٣٠ .

(٥) ابن فارس ، الصحابي ١٢ .

(٦) ابن جني ، الخصائص ٣ / ٢٤٥ .

أكرمهم بها ، ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات» (١) .

ومن إعجابهم بالعربية أنها عندهم فاقت سائر اللغات في رشاقة ألفاظها وحتى بنائها بحيث لا يوجد فيها من الثقل والاعوجاج ما يوجد في غيرها من اللغات التي تمت إلى العربية بقرابة النسب وهي اللغات السامية . ولعل من الطريف أن نورد خبراً ذكره ابن الأثير في المثل السائر :

« وحضر عندي في بعض الأيام رجل من اليهود ، وكنت في الديار المصرية ، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لكان علمه في دينهم وغيره ، وكان كذلك ، فجرى ذكر اللغات ، وأن العربية هي سيدة اللغات ، وأنها أشرفهن مكاناً ، وأحسنهن وضعاً ؛ فقال ذلك الرجل : كيف لا تكون كذلك وقد جاءت آخراً فنفت التبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن . ثم إن واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة فاختصر ما اختصر ، وخفف ما خفف ، فمن ذلك اسم الجمل ، فإنه عندنا في اللسان العبراني (كوميل) مما لا على وزن (فوعيل) فجاء واضع العربية وحذف منها الثقل المستبشع ، وقال : « جل » فصار خفيفاً حسناً ، وكذلك فعل في كذا وكذا وذكر أشياء كثيرة» (٢) .

على أن هذا الإعجاب لا ينصب إلا على الفصيح منها فلم يأبهوا باللسان الدارج السائر الذي يعتمد عن الفصيح ، وتمسكهم بالفصيح أدى إلى نظرة ضيقة شاعت في تقدم للنصوص ، فقد حشروا الفصيح من لسان العرب في لغة الجاهليين والصدرا الأول للإسلام ، وهذه النظرة الضيقة لم تند العربية ، فضاء شيء من العربية ولم يصل إلينا ، لأنهم لم يهتموا به لبعده عما توهموه في حدود الفصيح .

وقد دهش الأوربيون في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ١ / ١٤٩

(٢) ابن الأثير المثل السائر (بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ١ / ١٩١ .

للدقة المستوعبة التي اقترنت بها دراسات الهنود للغتهم ، وهذا الخط المحكم المبني على المراقبة والملاحظة وذلك أن هؤلاء الأوربيين أنجھوا لدراسة السنسكريتية وأخذوا يلحون الشبه بين هذه اللغة وجملة لغات أخرى منها الإغريقية واللاتينية.

وكان من بين هؤلاء الباحثين فون شليكل Von Shlegel الذي ذهب إلى اعتماد أسلوب المقارنة والموازنة بين مجموعة من اللغات وذلك لمعرفة هذه اللغات معرفة صحيحة مبنية على العلم اللغوى التاريخي.

وفي سنة ١٨١٨م نشر العالم الدانمركي كتابه في « أصل اللغة الآيسلندية القديمة » . وفي هذا الكتاب عرض المؤلف لمجموعة اللغات الهندية الأوربية وحصرها ودرسها باتباع أسلوب المقارنة الذي اعتمده الباحثون اللغويون في هذه الفترة . ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن العلماء بدءوا في هذا الوقت بدراسة القوانين الصوتية .

ومن هذه الأمثلة على هذا الأسلوب في الدرس والاهتمام بالقوانين الصوتية كتاب (قواعد اللغة الألمانية) الذي ألفه العالم الألماني (كريم) Grimm ونشره للمرة الثانية في سنة ١٨٤٨م .

وقد نشر هذا العالم الجليل كتابه الآخر وهو « تاريخ اللغة الألمانية » الذي قرر فيه أن تطور الحركات في الألمانية نتيجة لتطور الدلالة ، وقد سمى القواعد التي سار عليها التطور في الأصوات باسم القوانين الصوتية وعرفت فيما بعد باسم قوانين (كريم) .

على أن العلم اللغوى يحصل على ثمرة من هذه الجهود التي تمت في خلال القرن التاسع عشر ، وهذه الثمرة تشتمل على ما يأتي :

(١) دراسة الأصوات وتطورها وذلك بما تم في دراسة « كريم » وقوانينه الصوتية ، وظهور علم الأصوات التشريحي على يد (مولر) Mûler ، وقد تمهياً لهؤلاء العلماء أن ينتهوا إلى طريقة في الأصوات تغير الحروف اللاتينية .

(٢) وكان من هذه الجهود اللغوية الدراسة اللغوية المقارنة ، وذلك بعد أن تم الكشف عن المجموعات اللغوية التي أسموها العائلات اللغوية .

(٣) ظهور علم اللغة العام . وقد كتب فيه ماكس مولر Max Mûler محاضرات في علم اللغة وقد نشر سنة ١٨٦١ . وقد كتب Whitney الأمريكي كتابين في الموضوع نفسه وهما (اللغة ودراساتها) و « حياة اللغة وتطورها » . وقد جنح هذا الأخير باتباع مذهب دارون في التطور فكان اللغة عنده من الكائنات الطبيعية التي يعرض لها التطور ، فبدأ بدراسة لغة الحيوانات على أنها تؤلف مرحلة مبكرة من مراحل تطور اللغة الإنسانية .

ثم يطلع القرن العشرون وفيه دخل العلم اللغوي مرحلة جديدة . وفي هذه الفترة ظهر عالم لغوي سويسري تخرج بـ « دورخايم » من أشهر علماء الاجتماع في مطلع هذا القرن ويدعى هذا فرديناند دي سوسير F. de Saussur .

وكان قد تأثر بأستاذه في نهجه ولذلك كانت هذه المدرسة السويسرية تنتجى منجى اجتماعيا ، فاللغة من مظاهر النشاط الاجتماعي وهي لا تخلو من التأثير بالمنطق . وقد وجدت هذه المدرسة أتباعها في الباحثين الفرنسيين أمثال Meiller و Charl Bailly .

ويبدو أن اللغة في هذه الفترة كانت موضوعا يدخل ضمن الدراسات الاجتماعية فالعالم الاجتماعي وعالم الأجناس Anthropologie يهتمان بدراسة المشكلة اللغوية على أنها مظهر من مظاهر السلوك الإنساني .

كما دخلت اللغة موضوعا من موضوعات الدراسات السيكولوجية ، فالعالم النفسى لابد أن يعنى بهذه المادة على أنها جزء من كيان النفس الإنسانية .

ولذلك اعتبر (علم الدلالة) أو المعنى Sémantique من الموضوعات النفسية إلى عهد غير بعيد ، ثم بدا للغويين أنه مادة لغوية فانتقطعوا إليه على أنه باب من أبواب علم اللغة الحديث .

وهذا المظهر النفسى فى دراسة اللغة تبين فى مباحث هرمان باول Herman Paul ووندت Wundt .

ولقد انتهى علم اللغة إلى هذا العصر فتخلص مما علق به من شوائب القرون وخلص إلى العلم الصحيح المبني على الملاحظة والتجربة .

وكان من نتائج ذلك أن قام علم الأصوات على أنه من علوم اللغة ، ولكن هذا العلم لم يبق محصوراً فى قلبه القديم بل استعان بما ابتكره العلم من وسائل وأجهزة فى ضبط الصوت وبيانه كما استعان بعلم التشريح .

ومن النتائج التى انتهت إليها من اتباع الأساليب العلمية فى هذا الحقل التجريبي الاهتمام بالجغرافية اللغوية والمسح العام للغات ، وكان من ذلك الأطلس اللغوى الفرنسى وهو نموذج علمى دقيق فى هذا الباب ، فهو يشتمل على أكثر من ألفى خارطة لغوية تمثل النشاط اللغوى للباحثين الفرنسيين ، وقد أشرف على هذا كل من آدمونت E. Edmont وج جيلبرون J. Gilperon .

وعلى الرغم من التقدم الذى حصل عليه علم اللغة فى عصرنا هذا ، فما زال العلماء يدلون بأرائهم عن « نشأة اللغة » . ولم نخلص من مجموع هذه الآراء إلى رأى عملى يتعد عن التصور والوهم .

وفى هذه المقدمة التاريخية نريد أن نخلص إلى رسم شىء من تاريخ العربية ضمن بحثنا فى علم « اللغة التاريخى » . وللوصول إلى هذا الغرض ينبغى أن نعرض لموضوعين مهمين هما :

(١) التطور اللغوى

(٢) علم الدلالة أو المعنى Sémantique

الفصل الثاني

في التطور اللغوي

أريد في هذا الفصل أن أعرض لمعامل التطور في اللغة ، وأبين كيف أن اللغة وهى مادة حية ، وظاهرة اجتماعية ، تخضع كما يخضع غيرها من ألوان النشاط الإنسانى إلى عوامل الزمان فتتأثر سلباً وإيجاباً .

وسأعنى قبل كل شىء بما يسمى (بالتطور الخارجى) Evolution externe وهذا النوع من التطور بطى غير أنه لا يعرف التوقف ، وهو يتناول اللون الخارجى للغة من حيث الأسلوب ، ومن حيث الدلالة المعنوية .

ولعل الأجيال المتعاقبة كانت تحدث هذا التطور ويحصل فى لغاتها ، ولكنها لا تقطن إلى هذا التبدل والتغير ، وإن الناس لا يشعرون وهم يتكلمون لغة معينة أنهم يختلفون عن اللغة نفسها فى جيل عنى عليه الزمان .

وبمرض هذا التطور للغات جميعها أيا كان مستواها اللغوى ، وأيا كان المستوى الحضارى الذى يسود مجموعة بشرية بعينها . وقد يكون هذا التطور طبيعياً إيجابياً إذا كان نتيجة تأثير بحضارة أمة من الأمم . وللنظم والعقائد والتقاليد والمعدات أثر فى ذلك كما أن للمستوى الثقافى والبيئة أثراً لا يقل عن ذلك أبداً .

وتسرى سنة التطور فى اللغة عبر القرون والأجيال حتى تحيل اللغة إلى لهجات محلية أو لغات محلية تتميز الواحدة عن الأخرى بسميزات ظاهرة واضحة ، وهذه السميزات تظهر فى الجزئيات كما تظهر فى الكليات . وقد تؤدى عوامل معينة إلى موت اللغة وصيرورتها إلى لغات كما أشرنا ، وأحسن ما يقدم فى هذا الباب هو اللغة اللاتينية التى آل بها الزمن من الناحية التاريخية إلى أشكال أخرى أحدث منها برزت فى اللغة البرتغالية ، واللغة القشتالية ، ولغة قطلونيا ، ولغة بروفانس ، واللغة الفرنسية ، واللغة الإيطالية ، واللغة الأسبانية ، ولغة

جمهورية رومانيا الشعبية . وقد بلغ التطور بكل من هذه اللغات حداً بعيداً بحيث تبدو أشكالاً مختلفة أو قل بعيدة بعضها عن بعض .

وربما حصل شيء آخر في هذا الباب فقد تزول اللغة وينعدم استعمالها والتداول بها تأثيراً بعوامل خارجية سنعرض لها في هذا الفصل . وفي تاريخ اللغات القديمة التي نشأت في العراق ما يؤيد هذا ، فقد انتشرت اللغة السومرية وصارت لغة الحضارة ولكن السومرية أخذت تزول شيئاً فشيئاً وحلت محلها اللغة الأكديّة القديمة . وقد حصل هذا في اللغة الغالية التي أخذت تزول شيئاً فشيئاً إلى أن حلت محلها اللاتينية ، ومنها اللغة الكتلية التي كان يتكلمها أهل الجزر البريطانية إلى أن حلت محلها اللغة الإنكليزية ، ومثل ذلك ما حصل للغة المصرية القديمة ثم القبطية اللتين زالتا وحلت محلهما اللغة العربية ، كما حصل للبربرية في الشمال الإفريقي التي فسحت المجال للعربية لغة المسلمين الفاتحين فكان أن قبعت هي في مواطن محدودة جبيلة هنا وهناك .

وقد تنزع عن اللغة الهندية الأوروبية عدد كبير من اللغات نتيجة عوامل تطورية مهمة^(١) . وقد تمر فترة تاريخية فتهدد لغة من اللغات بالزوال فيحصل شيء من ذلك ، حتى إذا انتهت تلك الفترة استعادت تلك اللغة شيئاً فشيئاً مادتها وحيويتها ، كما حدث للغة العبرانية في القرن الرابع قبل الميلاد والقرون التي تلتها ، وساعد على ذلك انتشار عادة الزواج من غير اليهوديات اللواتي يجملن اللسان العبري ، وفي ذلك يقول نحemia :

« في تلك الأيام رأت اليهود الذين ساكنوا نساء من « أشدود » أو من « عمون » أو من « مؤاب » ونصف كلام نبيهم باللسان الأشدودي ، ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي بل بلسان شعب وشعب ، نخاصتهم ولعنهم وضربت منهم أناساً ونفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلاً : لا تعطوا بناتكم لبنينهم ،

ولا تأخذوا من بناتهم لبنيسكم ولا لأنفسكم . . . (١)

وكان من أثر هذا أن أخذت العبرية تصعب على أهلها في فلسطين وبذلك أفسحت المجال للآرامية تأخذ طريقها حتى جاء عهد كان فيه اليهود يجدون كل السهولة في استعمال الآرامية في شئونهم العامة . ومن أجل ذلك اضطر رجال الدين في الطقوس والعبادات أن يترجموا النصوص العبرية إلى الآرامية التي يفهمها اليهود وكان الأطفال يتعلمون العهد القديم في الترجمة الآرامية . وقد ظلت هذه الترجمة شفوية خلال زمن طويل ، تلقى عقب النص العبراني ثم دونت وسميت التركوم (Tarkum) ولم تدون هذه الترجمة إلا في القرن الأول الميلادي مع شيء من التغيير والتحوير (٢) .

وهكذا يكون سير التطور سلبيا كما يكون إيجابيا ، فربما لا تتطور اللغة نحو مستوى متقدم رفيع ، بل تنزل إلى درك من التغير والتبدل تبعا للمستوى الحضاري والثقافي الذي عليه الأمة . ومن أجل هذا نستطيع أن نقرر أن ما يسمى في كتب اللغة والنحو « لغة » من الاستعمالات غير المألوفة ، أو قل غير الصحيحة ، تلك الاستعمالات التي نسبت إلى هذيل أو عقيل أو أسد أو طيء أو غير هؤلاء ، لم يكن إلا من قبيل هذا التطور في اللغة . ثم نسب اعتباطاً لفئة معينة من الناس . وما من اللغات العامية الحديثة أو مانسميه باللهجات العربية الحديثة إلا نتيجة لهذا التطور في العربية الفصيحة (٣) .

(١) سفر نحemia ١٣ / ٢٣ - ٢٥ .

(٢) كانت هناك عدة تراجم (تركوميم) ، وهذه المادة السامية هي التي أعطت العربية مادة (ترجم) . والتركوم آرامية خاصة عرفت بآرامية التركوم .

(٣) أقول العربية الفصيحة تجوز لأن هذه الفصيحة الموروثة قد ضمت ألواناً في اللهجات المحلية منذ الجاهلية الأولى حتى العهود الإسلامية ، وللقرآن أثره في ذلك ، ولم يكن هذا في مواد اللغة ، بل تعدى ذلك إلى الأصوات والقواعد والنحوية ودلالات الألفاظ Sémantique .

والسبب في ذلك يرجع إلى عوامل كثيرة جدا منها :

(١) انتشار العربية في بقاع واسعة ذات لغات سامية ، ففي اليمن حيث كانت فيها لغات جنوبية سامية ، وفي بقاع الهلال الخصيب حيث كانت الآرامية عامرة فيها ، وفي الشمال الإفريقي حيث تم لها الاستقرار في مهد البربرية وحيث طردت اللهجات البربرية جميعها . وطبيعى أن ينال هذه اللغات القوية الغازية شئ من التغير والتحريف على ألسنة هؤلاء المحدثين الجدد الذين لم تعود ألسنتهم على أصواتها ، وعلى طرائق النطق والتعبير فيها . وقد تعدى هذا الانحراف هؤلاء الجدد والمحدثين إلى العرب أنفسهم ، فالغزاة من هؤلاء العرب بعد أن استقروا في هذه الربوع تأثروا بلغاتها وبطرائق النطق فيها فإذا عربيتهم يشوبها الانحراف ، وإذا انحراف يتسع شيئا ما حتى يستحيل مع الزمن إلى لون لغوى خاص متميز في نطاق العربية الواسع ، ولم تكن العربية بدعا في هذا الباب فلنا أمثلة كثيرة في اللغات التي قبض لها أن تفارق مهدها الأول وتضرب في مواطن بعيدة فالفينيقية التي استقرت في الشواطئ الإفريقية قد تغيرت عن أصلها وعمما كانت عليه في مهدها الأول .

(٢) وللعامل السياسى أثره أيضا ، وذلك بعد أن استقلت البلاد العربية وانفصلت عن وحدتها السياسية . والاتصال السياسى يقتضى انفصالا اجتماعيا ثقافيا . ويتبين صدق هذا في عصرنا الحديث في شئ من اللغات الأوروبية الحديثة فاللغة الفرنسية مثلاً في فرنسا مهدها الأصلى غيرها في كندا ، وغيرها في سويسرا أو بلجيكا على الرغم من قرب المسافة مثلاً بين فرنسا وسويسرا وبينها وبين بلجيكا .

وقد تمكن الفرنسيون من إحلال لغتهم المحل الأول المرموق في كثير من البلاد الإفريقية بسبب خضوع هذه البلدان للاستعمار الفرنسى ، وكان من ذلك أن صارت الفرنسية لغة التفاهم ، ولغة الشؤون العامة ، ولغة الإدارة ، ولغة الحضارة بوجه عام في هذه البلدان ، وكان على الإفريقى الآخذ بسبب من هذه الحضارة أن يلوئ هذه اللغة فتعلمها وربما طبع عليها ، ولعله صار يتمصب لها ، فليس له محيص

عنها، والدراسات اللغوية التي قام بها العلماء اللغويون الفرنسيون عن الفرنسية في هذه الأقاليم تشير إلى ألوان التطور السريع الذي طرأ على الفرنسية على ألسنة هؤلاء الأفارقة. ومثل هذا حصل للانكليزية التي شرقت وغربت في مختلف أنحاء العالم، وقيض لها أن تكون لغة مئات الملايين مشرقاً ومغرباً.

(٣) وللعامل النفسي الاجتماعي أثره، فللبلاذ المختلفة التي غزتها العربية نظم خاصة، وعادات متميزة، وتقاليذ ومستويات مختلفة من الثقافة، وطرائق خاصة في التفكير، وجميع هذا لا بد أن يظهر في وسائل التعبير، فيطبعها بطابع متميز واضح وربما نتبين هذا في البلد الواحد دون أن نكلف أنفسنا عناء الخروج والابتعاد، فأنت ترى أن المواطنة القروية الريفية في بلد ما لها تفكيرها اللغوي، ولها عادات درجت عليها في سلوكها اللغوي تتسم بعلامات يظهر فيها شكل المجتمع الصغير الذي نعيش فيه، فهو يختلف عن مجتمع آخر ربما كان غير بعيد عن هذين اللونين الحضاريين، ذلك هو المجتمع الذي يغرس أصوله في بيئة بدوية لها تقاليدها وعاداتها وأماراتها وشخصها. فأنت لا تتوقع أن تجد لغة الفلاحة وما يتصل بها من طبيعة تقوم على الخضرة والماء في مجتمع هو ألصق بالبدواة، كما أنك لا تجد عند هذا القروي اليفي شيئاً كثيراً مما يتصل بالحياة البدوية.

(٤) وللعامل الجغرافي حظه في هذا الموضوع كما يؤيد ذلك علماء الاجتماع. فلبطبيعة البلاد وللبيئة الجغرافية في سهولها وجبالها ولون مناخها أثر في الثقافة، وهذا الأثر لا بد أن يترك نتائج في المسألة اللغوية.

ولعلك قد فهمت أن التطور يؤول باللغة إلى انقسامات تؤدي في آخر الأمر إلى لهجات عدة أو قل لغات. وأنا أريد أن أقول لك: إن في اللغة طريقين مختلفين أو قل: متضادين، ذلك أن هناك ميلاً نحو الانقسام إلى لغات ولهجات، كما أن هناك ميلاً نحو التوحد اللغوي.

والانقسام والتوحد يرجعان إلى عوامل من شأنها أن تؤثر في الجماعات هذا الأثر أو ذاك. ويرى بعض اللغويين أن الاتجاه نحو الانقسام أقوى من الميل إلى التوحد، وأن الانقسام هو عملية التطور الطبيعية للغة وأن طبيعة اللغات تنجح أبداً إلى الانقسام والتوزع، وربما قال بعضهم: إن الانقسام هو الذي أدى بالمجتمع البشري العام أن يتوزع توزيعاً لغوياً واسعاً، ومن هؤلاء العالم H. C. Wyld الذي قال بالتوزع المطلق الذي لا يحده حد، ونظرية هؤلاء أن ظهور لغة ما يحمل معه عوامل الانقسام إلى لغات عدة.

غير أن العالم اللغوي «يسبرسن» يميل إلى القول بالتوحد، ويرى أن عوامل التوحد خلال العصور كانت أقوى في الحقيقة من عوامل الانقسام، وأنها كذلك في المستقبل. ويستدل هذا العالم على نظريته بعدد اللغات في الوقت الحاضر، فهو وإن كان أكثر منه في الأزمنة الماضية، إلا أن عدد المتكلمين في عصرنا الحاضر بلغة من اللغات المتفرعة عن لغة عامة أصيلة قديمة، يبلغ الآن أضعاف مجموع الذين يتكلمون بتلك اللغة العامة العتيقة. وهو يضرب أمثلة على ذلك منها أن المتكلمين باللغة الجرمانية الغربية في العصور الماضية لا يساوون شيئاً بالنسبة إلى المائة والخمسين مليوناً الذين يتكلمون الإنكليزية والخمسة والسبعين مليوناً الذين يتكلمون الآن الألمانية، وعشرة الملايين الذين يتكلمون الآن الهولندية. ولكن «يسبرسون» لا ينكر الاتجاه نحو الانقسام.

ولقد نوهنا بعوامل الانقسام اللغوي، ولا بد أن نشير إلى العوامل التي تدعو للتوحد اللغوي وهي:

(١) إن التوحد يرجع إلى عامل الاختلاط والاتصال والمشاركة في الحياة العامة ولعل صدق هذا يتبين في استقراء تاريخ العربية وكيف أدت بها المواسم الدينية والاجتماعية إلى شيء من الانسجام اللغوي، ولا بد من الإشارة إلى ما كان من غلبة لغة قريش على سائر اللغات وصيرورة هذا

المزيج اللغوي إلى لون أقرب إلى التوحيد والانسجام منه إلى الاختلاف والابتعاد. ذلك أن لقريش المكانة الاجتماعية والدينية والتزامها بالتجارة التي كانت سبباً من أسباب الاتصال والاجتماع. وقد تدعو حرب تنشب بين مجموعتين بشريتين إلى نوع من الانسجام اللغوي، كما أن للدين ولنواميسه في العبادات وما يقتضى ذلك من اجتماع واتصال في الأعياد والمناسبات أثره في التوحد اللغوي.

(٢) ومن عوامل التوحد اللغوي تلك النصوص الأدبية والشعبية التي تشتمل على ما يتناقله الرواة والقصاص من حكايات وأساطير وما يردده المغنون، وأكثر هذا النوع من الأدب يقوم على الرواية الشفوية. والقصاص والرواة والمغنون كانوا يتنقلون بأدبهم من قبيلة إلى أخرى، ولا بد لهم أن يستعملوا طريقة في الإعراب عما يريدون أن يذيعوا، وهكذا يؤول الأمر إلى شيء يشبه اللغة المشتركة. ومن أمثلة ذلك ما حدث في الأدب اليوناني القديم، فقد نشأت فنون الأدب اليوناني في المستعمرات اليونانية فيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد - ما خلا المأساة - وقد كان بين هذه الأقاليم اتصال وتبادل، ومن أجل ذلك كانت لغة هذه الفنون الأدبية تختلف عن لغة أي بلد من هذه البلاد، فهي لم تكن موجهة إلى أي منها على انفراد إلى مجموع ذلك كله.

(٣) ومن العوامل التي تدعو للتوحيد اللغوي هو العامل السياسي، فالتوحيد السياسي بين إقليمين أو قل بين مجموعتين بشريتين لا بد أن يؤول إلى نوع من التوحيد والانسجام لا سيما إذا كان هناك تفاوت في المستوى اللغوي والحضاري بين هاتين المجموعتين. وفي التاريخ أمثلة عدة على هذا النوع من التوحيد والانسجام.

(٤) وللعامل الثقافي حظه في هذا الموضوع كما يؤيد ذلك علماء الاجتماع. فالمعاهد العلمية والجامعات والسينما والإذاعة والتلفزة والاجتماعات العامة تعمل عملها في هذه المشكلة اللغوية فتميل اللهجات إلى نوع من التوحيد كما يحصل الآن للعربية الحديثة الفصيحة أو التي تقرب

من الفصيحة، ذلك أنها تنجح شيئاً فشيئاً إلى نوع من اللغة المشتركة. وظهور المدن الكبرى بنشاطها المتنوع في مختلف الميادين كان عاملاً في التوحيد اللغوي.

ولابد من العودة إلى اختلاف اللغات وأريد باللغات ما نستخدمه عليه اليوم بـ « اللهجات » ، وعندى أن اللهجة علم لغوى أو سلوك لغوى ، لا يختلف عن اللغة العامة . فاللهجة على هذا طائفة من الميزات اللغوية ذات نظام صوتى خاص تخص بيئة معينة ، يشترك في هذه الميزات جميع أفراد تلك البيئة . وهذه البيئة قسم من بيئة أعم وأشمل تنتظم لهجات عدة . وهى متميزة الواحدة عن الأخرى بظواهرها اللغوية ، ولكنها تأتلف فيما بينها بظواهر لغوية أخرى ، وتكون بذلك ما نسميه باللغة (Langue) . ولم تكن كلمة (لهجة) (Dialecte) على السنة علماء اللغة العرب الأقدمين ، بل كانوا يستعملون كلمة (لغة) وكلمة (لحن) .

وإننا نجد في كتب اللغة والملاجم اللغوية القديمة أن استعمالاً من الاستعمالات كان على لغة تميم ، أو لغة هذيل ، أو عقيل ، أو أسد . ولم تكن هذه الإشارات واضحة المعالم ، فهم يلصقون أحياناً كل استعمال لا يرضونه بقبائل معينة لا يعتمدونها إلى غيرها ، كأن يقولوا : جاء هذا على لغة بلحارث بن كعب ، أو لغة أزد شنوءة أو لغة هذيل أو لغة عقيل .

وهم في أكثر الأحيان لا يحددون اللهجة تحديداً دقيقاً ، لأن ما يقابل تيمياً عندهم هو الحجاز ، ومعلوم أن تيمياً قبيلة كبيرة ذات مواطن شاسعة الأطراف ، فليس مقولاً أن تخضع هذه المجموعة الكبيرة إلى مميزات لغوية واحدة . كما أنه ليس من المقول أن يكون للحجاز لهجة واحدة ذات مميزات واحدة . والحجاز إقليم كبير اتسع لقبائل عدة تميزت الواحدة عن الأخرى في الصفات اللغوية . وتنحصر الصفات التى تميز بها اللهجة في النظام الصوتى ، وهذه الناحية تخضع أيضاً لنوع من التطور نسميه بالتطور الداخلى Evolution interne ذلك أن أعضاء النطق تختلف باختلاف الشعوب ، تختلف في تكوينها واستعدادها ومنهج

تطورها . ونتيجة لهذا فأصوات اللهجات تختلف باختلاف الشعوب التي انتشرت فيها ، ونتيجة لهذا أيضا تسير كل لهجة في نظامها الصوتي في طور متميز عن غيره وهذا الاتجاه خاضع للتطور . ومن أجل ذلك فإن أعضاء النطق عندنا مثلا تختلف عنها عند أسلافنا ، ومن أجل ذلك أيضا أننا نتطق بأصوات ونخرجها مخرجا يختلف عما ذكره علماء الصوت من القدامى كالتحليل وسيبويه . ونستطيع أن نقول : أن صوت الضاد كما هو مذكور في المظان المعروفة غير موجود الآن ، ولسنا بقادرين أن نخرج صوت الضاد على النحو الذي رسمه الخليل .

إن دراسة اللهجات في العصر الحديث علم من علوم اللغة Gialectologie والعناية بهذا اللون من البحث ذات فائدة ، ذلك أنا إذا نظرنا في العربية ، وأردنا أن نسجل تاريخها ؛ ومراحل تطورها لم نستطع أن نظفر من ذلك بطائل ؛ ومرد ذلك قلة الوسائل التي بين أيدينا ؛ ونقص في أدواتنا وآلاتنا ؛ وأعني بذلك أن مادة اللغة وكتبها على كثرتها لا تشير إلى لغات القبائل ولهجات الأقاليم إشارات علمية واضحة ؛ وقد أشرنا إلى هذه الناحية ؛ ذلك أنهم اعتمدوا الأساليب القديمة الجاهلية وأسلوب القرآن ؛ وما خلا هذين فليس مما يصح الاستشهاد به .

إن أقوال اللغويين مفيدة في هذا الباب فكأنهم لم يقرؤا بأن اللغة (١) كأي من الظواهر الإنسانية ، خاضعة للتطور ، وأنها أبداً متصلة بالحياة الاجتماعية والنظام اللغوي بطبيعته متميز بهذه القابلية الاجتماعية التي تبرز للحياة متمثلة في كل جزء من أجزاء اللغة . ومن نقص الأدوات عندنا لمعرفة اللغة معرفة علمية ، أن كتب اللغة لا تشير إلى اللفظة المفردة وطرائق استعمالها عبر المصور ، وذلك أن أصحابها مقلدون في مجتهد اللغوي للفكرة الأولى التي قيدت الفصاحة والبلاغة بفترة معينة لا تتمدها إلى غيرها كما أسلفنا ، وأصحابنا من المعنيين باللغة وبأساليب القول فيها بدع بين أقرانهم من علماء اللغات الأخرى ، فاللغوي الحديث يؤمن بالنظرة التاريخية وبالتطور الذي تستدعيه عوامل التطور المختلفة .

والكلمة في الأساليب العلمية الحديثة قيمة كبيرة ، فهي تحيا حياة متطورة متجددة وهي أبدأ قى تغير فى دلالاتها (١) ، وفى طرائق استعمالها . وربما قام المجاز والاستعارة بدور كبير فى مسألة الدلالة : والمجاز حاصل فى كل زمان . ولم تشذ العربية عن سائر اللغات فى هذا التبدل والتطور . فهى حية ناشطة تقذف بالجديد فى كل حين حين نحصل الضرورة لاستخدام هذا الجديد فى اللفظ . وماذا يجدى تشدد المتشددين والاستعمال غالب على ما يقولون .

وقد تكون فى الفصيحة مجازات غير معروفة فى الألسنة الدارجة .. ذلك أن المجاز يتأثر بالبيئة التى تدرج فيها المجموعة البشرية . فأصحاب الحرف والأصناف يقذفون بمجازاتهم المألوفة المعروفة متأثرين ببيئتهم الضيقة ، وهكذا تتمدد ألوان القول فى المجتمع الواحد .

وربما تتغير مدلولات كثيرة لأن الشئ الذى تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشؤون الاجتماعية المتصلة به وما إلى ذلك ، فكلمة « الريشة » مثلا تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن مدلولها الأصلي قد تغير الآن تبعا لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة المعدن (٢) وكذلك قل فى مدلول القطار الذى كان يراد به مجموعة الإبل المنتظمة فى سيرها ثم استعير إلى القاطرة الحديدية الحديثة لأنها تجمع فى سيرها طائفة من « العربات » . وهذا يحدث فى اللغة عامة ، فإن كلة (Bureau) الفرنسية كانت تدل على قطعة القماش الخشنة التى توضع على المكتب فى النواثر الرسمية ثم تحولت عن ذلك فصارت تطلق على المكتب نفسه ثم تحولت فصارت تطلق على المكتب نفسه أى المكان الذى نسميه فى اصطلاحنا المحلى « دائرة » .

وقد تجد أصوات فى لهجة من اللهجات نتيجة لتأثرها بلغة من اللغات كما هى الحال فى العامية البغدادية والعامية الجنوبية كالجيم الفارسية والتركية ، وربما تعدت

(١) A. Darm steter, La Vie des mots p. p. 6 - 7

(٢) من مقالة للدكتور علي عبد الواحد وافي فى مجلة الرسالة المصرية العدد ٣٨٢ .

هذه الجيم الدخيلة إلى أصوات عربية فغلبت عليها كالكاف الفصيحة في مثل « كان » والجيم الفصيحة في مثل « جول » ، والشين الفصيحة في مثل « فرشة » .

غير أن اللهجات وإن اختلفت فيما بينها فهي تتفق في مسائل معينة ، وظواهر لغوية واضحة تربط بينها لتكون منها مجموعة لغوية ترجع إلى لغة عامة شاملة .

وهذه الظواهر تنحصر فيما يأتى :

(١) الضمائر .

(٢) العدد .

(٣) أسماء الإشارة وأسماء الموصول .

(٤) الاشتراك في معانى طائفة كبيرة من الألفاظ .

(٥) النظام الجملى .

وكما تنشأ اللهجات تبعاً للأقاليم والمجاميع البشرية ، كذلك تنشأ لهجات معينة تبعاً للأصناف والحرف . والرابطة الاجتماعية هي السبب في هذا^(١) وإن نوع العمل مدعاة إلى أن يؤلف بين هؤلاء الناس فيتخذوا لهم بحكم أعمالهم أسلوباً في التعبير له ألفاظه وله طرائقه .

الجغرافية اللغوية :

اهتم الباحثون في مسائل اللهجات منذ أوائل القرن الماضى ، فقد نشر عدد من المعاجم كما نشرت الكتب في نحو هذه اللهجات . ولكن أمراً جوهرياً فات أولئك الباحثين ، وهو أن لهجة أى جهتين أو إقليمين يبعد الواحد عن الآخر نحواً من مائة ميل أو أكثر من ذلك لا بد أن تكون الواحدة مختلفة عن الأخرى

في كثير من الخواص والميزات ولا سيما إذا كان أهل تلك الجهة ، أو ذلك الإقليم قد غبرت عليهم الأعصار في إقامتهم في ذلك الإقليم أو تلك الجهة ، وقد أثبتت البحوث أنه ليس هناك حدود ثابتة لكل لهجة من اللهجات ، أو قل كل ميزة أو ناحية خاصة للهجة بعينها ، وهي ما يدعى Iso Glosse ، أي ظاهرة لغوية خاصة لها حدودها المعينة على وجه التقريب . فظاهرة إبدال الياء بالميم لها مناطقها وحدودها بين سكان البادية والمناطق القروية في جنوبي العراق مثلاً .

إذن لا بد للغوى من ضبط التوزيع الجغرافي لكل ظاهرة من الظواهر اللغوية المحلية للهجات التباينة .

وقد تعدت مشكلة التطور اللغوي فبرزت في مختلف الموضوعات ولا سيما في عصرنا الحاضر ، فهناك مصطلحات العلوم على اختلافها كعلم النفس والطب والكيمياء والطبيعة والفلسفة والرياضة ، وهناك مصطلحات ما ندرسه بالعلوم الإنسانية مثل اللغة والأدب والاجتماع والاقتصاد والسياسة والقانون ونحو ذلك .

وقد عرض الأقدمون لهذا الموضوع فتواضعوا على مصطلحات في علومهم القديمة ولدننا مصطلح على في كل علم من العلوم التقليدية . وإن كثيراً من تلك المصطلحات ما زال مستعملاً في حياتنا الحاضرة .

وسنعرض لموضوع المصطلح العلمي « Terme Technique » على أنه نوع من التطور التأريخي قد حدث في العربية .

إن دراسة اللغة في ضوء سنة التطور أمر ذو بال ، وهو يقتضي أن يتوفر أسلوب البحث على منهج جديد يتصف بنوعين من العلاقات هما :

(١) العلاقات المتعاقبة والوصفية Syneronique .

(٢) العلاقات المتعاصرة أو التاريخية Diacronique .

وهذه المصطلحات من وضع العالم اللغوي السويسري (دى سوسير)
الذى مر ذكره .

وأصحاب هذا التهج يشبهون الدراسة الوصفية بالخط الأفقى ، والدراسة
التاريخية بالخط الرأسى . وذلك لأن الأولى تدرس ظاهرة لغوية إلى جانب الظواهر
المرتبطة بها فى العصر نفسه وبهذا تشبه الخط الأفقى .

أما الثانية فإنها تبدأ بدراسة ظاهرة من الظواهر فى عصر مبكر ، ثم ترقى بها
إلى عصور أحدث ، وهى بذلك تشبه الخط الرأسى .

والدراسة الوصفية نوعان : نوع يعنى بدراسة جميع الحقائق اللغوية للغة
واحدة فى مكان معين ، ونوع يعنى بدراسة حقيقة لغوية واحدة فى مختلف أنحاء
الوطن اللغوى وهذا ما ندعوه بالجغرافيا اللغوية .

وتتناول هذه الدراسات الإحاطة باللغة فى جميع جهاتها الزمانية
والمكانية ^(١) .

(١) انظر :

1 - F. De Saussure, Cours de Linguistique Generale

2 - A. Mellet Linguistique Historique et Linguistique Generale.

الفصل الثالث

الدلالة والمعنى

يرى المحدثون من اللغويين العرب ممن درس اللغة دراسة أوربية حديثة أن الدلالة أو علم الدلالة « Sémantique » من المبتدعات الأوربية الحديثة التي بحث بها الغربيون في أواخر القرن التاسع عشر . والمهم أننا نقيد من موضوعات علم اللغة الحديث في فهم لغتنا العربية ودراستها دراسة جديدة .

فإذا عرضنا لمسألة اللفظ والمعنى ينبغي أن ننظر في عمريتنا وكيف أدرك علماء العربية من لغويين ونحويين وبلاغيين هذا الموضوع ثم نعرض للآراء الحديثة التي عرفناها في الدراسات الغربية .

نعم اهتم الأقدمون في مسألة اللفظ والمعنى وتضافر على هذا الموضوع جهات كثيرة من المعنيين بعلوم شتى وبهذا اختلف نظرهم في هذه المسألة ، ومرد ذلك أن كل طائفة من هؤلاء تنظر هذه المسألة نظراً خاصاً يمليه عليها الاختصاص العلمي .

تناول اللفظ والمعنى النقاد من الأدباء الذين اقتصر بحمهم على النقد وكتب النقد القديم موفورة تشهد على هذا المنحى ، ثم تناوله مؤرخو الأدب وسبيل هؤلاء سبيل النقاد فهم يتطلبون الإجابة في اللفظ والمعنى ليتم لهم وضع الشعراء الذين يؤرخون أدبهم ويترجمون لهم في مواضعهم .

وتناوله المفسرون ممن عنوا بتفسير كلام الله تعالى وبيان وجوهه وحمل اللفظ على معان كثيرة تبعاً لاختلاف الرأي .

كما تناوله أهل الحديث وذلك لشرح حديث رسول الله (ص) وبيان ما يمكن أن ينصرف إليه الرأي .

وتناوله البلاغيون وهؤلاء الذين انتهى إليهم علم النقد خالصاً مبوباً مصنفاً بعيداً عن الأقوال الأدبية العامة التي لمحها الأدباء النقاد .

وتناوله أهل المنطق فنظروا إلى اللفظ وعلاقة اللفظ بالمعنى نظراً خاصاً .
والحوار بين متى بن يونس القنأني المنطقي وأبي سعيد السيرافي مشهور .

يقول متى بن يونس لأبي سعيد : « لا حاجة بالمنطقي إلى النحو ، وبالنحوي حاجة إلى المنطق ، لأن المنطقي يبحث عن المعنى ، والنحوي يبحث عن اللفظ ، فإن مر المنطقي باللفظ فبالعرض ، وإن مر النحوي بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى » (١) .

وتناوله اللغويون فكتبوا فيه الرسائل اللغوية ثم اتسع الأمر بهم واشتدت الحاجة إلى المجاميع اللغوية فآل الأمر إلى المعاجم . والمعاجم على أنها مجموعات ضخمة لألفاظ العربية تمكس لوناً من ألوان التطور في استخدام الألفاظ .

غير أننا نجمل في كثير من الأحيان الظروف التي تسببت في إطلاق أقوال كتب لها الشيوع ودعت إلى استعمالها استعمالاً واسعاً . وربما اجتهدنا الاجتهاد الدقيق في استعادة شيء من معرفة تلك الظروف .

ومن هنا كان على الباحث في موضوع « علم الدلالة أو المعنى » أن ينهج نهجاً تاريخياً .

قلت لا بد من استعادة إدراك الظروف التي هيئت للاستعمالات التي كتب لها الشيوع . لنأخذ على سبيل المثال عبارة : « وأنته رانم » أو « على الرغم من... » ،

(١) أبو حيان التوحيدى : المقابسات (المطبعة الرحمانية) ص ٧٤ .

واستعمالها معروف شائع . وربما لم يدر بخلد من يستعمل هذه العبارة أن مادة (رغم) في هذه العبارة استعملت استعمالاً مجازياً ، وأن حقيقة مادة (رغم) متصلة بالاسم وهو « الرغام » أى « التراب » .

فإذا قيل : « وأتفه راغم » فكأن أتفه يمس الرغام أى التراب إشارة إلى إذلاله ثم فارت هذا الظرف وهذه الحال فصارت تطلق في كل أحوال الاضطراب فنقول مثلاً : « جئتك على الرغم من شدة البرد » .

ولكن النظر في المعجم العربى القديم لا يبصر بهذه العلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى الذى انتهت إليه المادة وخلصت له . وعلى هذا فإن المعنى الحقيقى صار من قبيل المواد المهجورة لعدم الحاجة إلى استعماله .

ولنأخذ مثلاً آخر فنقول : إننا نستعمل عبارة « أخذ يجريته » أى بذنبه وجنايته والجريرة بطبيعة الحال من مادة (جرر) وهذه المادة من المواد الشائمة الاستعمال ، ومعناها معروف ، وليس من صلة من قريب أو بعيد بين المعنى الحقيقى وهو « الجر » والجريرة بمعنى الذنب أو الجناية . وكتب اللغة ومعاجمها القديمة لا تشير إلى التوصل الى هذا المعنى المجازى ، ولا إلى الظرف أو الحال الذى يسر هذا الانتقال من الحقيقة إلى المجاز .

ولنذكر شيئاً مما ورد فى « لسان العرب »^(٢) فى هذه المادة :

والجريرة : الذنب والجناية يجنيها الرجل . وقد جر على نفسه وغيره جريرة يجرها جرأ أى جنى عليهم جناية ، قال :

إذا جر مولانا علينا جريرة صبرنا لها إنا كرام دعائم

وفى الحديث : قال يا محمد بم أخذتنى ؟ قال : بجريرة حلفائك ، الجريرة : الجناية والذنب ، وذلك أنه كان بين رسول الله (ص) وبين ثقيف موادة ، فلما تقضوها

(١) اللسان (جرر)

ولم ينكر عليهم بنو عقيل وكانوا معهم في العهد صاروا مثلهم في نقض العهد فأخذهم
بجبريتهم .

هذا جملة ما نعرف من هذا المعنى ومن الشواهد التاريخية التي ورد فيها هذا
الاستعمال ، ولكننا لم نعرف طريقة الانتقال من الأصل الحقيقي إلى المجاز ، ولا
الظرف الذي تسبب في هذا الانتقال .

غير أن النظر الدقيق في هذا الاستعمال يهدينا إلى أن « الجريرة » بمعنى
الجنابة والذنب آتية من أنهم يزورون النساء للفجور بهن فإذا خرجوا منهن جروا
ذبولهم على آثارهم حتى تنطمس فلا يعرفون . قال امرؤ القيس :

خرجت بها أمشي بمجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل

وربما كان الفعل (جنى) « في جنيت الثمرة » أجنيها جنى وأجنتنيها بمعنى .
والأصل في اجتناء الثمرة تناولها من الشجرة من غير إذن من مالئها وهو ذنب قبيح
فكان الاستعمال الحقيقي قولهم : « جنى جنابة » بتناول الثمرة من غير رخصة في
أخذها ثم لشيوع مثل تلك الجنابة صار مجرد التناول وأن كان جائزاً اجتناء
أو اقتناء .

ومثل هذا الفعل (جرم) وهو مأخوذ من المضمف (جرّ) و « جرم » معناه
« قطع » وهو من اجتناء الثمرة من غير إذن مالئها . فكأن القاطع الذي ليس له
رخصة يجنى ويجرم ثم اتسع فيه واستعمل في القطع الخالي من الجنابة .

هذا شيء في اللفظ مما اجتهدنا في معرفة الظرف الذي تهياله فخرى على تلك
الصور في الاستعمالات . غير أننا لانستطيع أن ندرك جميع الظروف والأحوال
لألفاظ اللغة جميعها وذلك لانقطاع المهد بيننا وبين لغتنا هذه التي ندعوها
بالفصيحة، ولولا أن القرآن قد وصلنا بها لأضعنا في أمرها شيئاً كثيراً .

ومما يزيد في صعوبة الأمر في هذه الدراسة التاريخية أن اللغويين الأقدمين

تنكروا للاستتمالات العربية في العصور التي تلت الصدر الأول للدولة الإسلامية وقصروا اهتمامهم بلغة الشعر الجاهلي كثيراً ولغة القرآن وطائفة من شعراء الصدر الأول الإسلامي فلم يستشهدوا مثلاً بشعر ذى الرمة مع أنه عاصر قوماً يصح الاستشهاد بلغتهم على ما زعموا كالفرزدق والأخطل وجريز .

واهتمامهم بالاستشهاد بلغة الشعر جعلهم قليلي الأخذ بلغة التنزيل .

وأما لغة الحديث فقد هجروها هجراناً يكاد يكون تاماً .

والأخذ بهذا النظر يعنى إنكاراً للحقيقة اللغوية وهي المذهب الاجتماعي الذي يفصح عن أن اللغة من صنع الهيئة الاجتماعية وإذا اعتقدنا بهذه النظرة العلمية الحديثة أعتقدنا أيضاً أن هذه اللغة لا بد أن تتطور فتساير الزمان والمكان .

وعلى هذا فاعتبار اللغويين الأقدمين اللغة الفصيحة مقصورة على المستعمل منها في لغة الشعر الجاهلي ولغة الصدر الأول للدولة الإسلامية إنكار للغة ذاتها وجعلها أشبه ماتكون بالتحفة الأثرية التي يحرص عليها ويحتفظ بها لأنها علق تقيس شأنها شأن سائر الأعلام النفيسة والعاديات العتيقة .

والأخذ بهذا الحد في تمييز الفصيح من غيره جعلهم يتنكرون للاستتمالات الجديدة التي شاعت في أدب جماعة من المبدعين من الشعراء ، ولا يضير هؤلاء أنهم أطلقوا عليهم اسم « المولدين » : أنكروا على أبي تمام استتماله « ماء الملام » في قوله :

لاتسقى ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

فقد قيل إن أحداً لظرفاء جاء إلى أبي تمام وسأله أن يمطيه قارورة من « ماء الملام » ، فقال له أبو تمام : لأعطيك ما سألت حتى تأتيني بريشة من « جناح الذل » .

وأبو تمام يشير في جوابه اللطيف إلى الآية الكريمة « واخفض لها جناح

الذل من الرحمة ، وهو يريد أن يقول إن لاستعمال المجاز في العربية ضرباً
من الابداع والابتكار فكما أن لغة التنزيل ابتكرت المجازات الدقيقة اللطيفة
فصارت من أعلاق العربية ، كذلك كان حق الشاعر المبدع أن يتسخر في استعمالات
المجازات ، واللغة كما هو معروف ضرب من المجاز .

حكى عن إسحق بن إبراهيم الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمى :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيل الصدى ويشقى الغليل

إن ما قل منك يسكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني . لمن تنشدي ؟ فقلت : إنها ليلتها ،
فقال : لاجرم والله إن أثر التكلف فيها ظاهر .

هذا هو موقف اللغويين الأقدمين في الحقيقة اللغوية ، وفي الاستعمالات التي
لم تشع ولم تعرف في الحقبة التي قصروا على أهلها الفصاحة .

وهذا نظر بعيد عن العلم الصحيح كما أشرنا .

ومن الغريب أن المعنيين بالعلم اللغوي وجل هؤلاء من أعضاء المجامع اللغوية
في البلدان العربية مازالوا ملتزمين بموقف اللغويين الأقدمين في الفصح والحدود
التي وضعوها له .

أما المحدثون من علماء اللغة فإنهم نظروا إلى هذه المسألة نظراً خاصاً مبنيًا
على الدلالة في المعنى « Sémantique » وجد هؤلاء أن المشكلة اللغوية تتمتع
في هذه الحياة الحاضرة وأن الحضارة الجديدة لا بد لها من أدوات لغوية تترجم
عنها ترجمة صادقة ثم إنهم لاحظوا أن الألفاظ تتطور فتكتسب من المعاني أشباه
جديدة لم تكن لها .

وليست اللغة العربية بنجوة من التطور فالألفاظ العربية كما يدل البحث التاريخي كانت عرضة للتبدل الذي اقتضاه الزمان وتقلب الأحوال والنظم الاجتماعية وما الألفاظ الإسلامية إلا لون من ألوان هذا التطور الذي عرض للفظه العربية البدوية القديمة فاستحالت شيئاً آخر يقتضيه الدين الجديد والبيئة الجديدة ، وسنمعرض لهذا الموضوع على أنه مادة مهمة في التاريخ اللغوي للعربية .

قلت إن هذا الموضوع من الدراسات الحديثة ، والدراسات اللغوية الحديثة بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ولكنها لم تكتسب صفتها العلمية الأصيلة إلا في أواخر هذا القرن .

ولقد كان الفرنسي (بريال) Bréal أول من فطن إلى المصطلح (Sémantique) وذلك في سنة ١٨٨٣ قاصداً به « علم المعنى » أو علم الدلالة كما بدا لنفر من علمائنا اللغويين العرب أن يترجموا بـ (الدلالة) اللفظ الأعجمي ، وقد كتب هذا العالم الفرنسي رسالة درس فيها « الدلالة » في جملة من اللغات الهندية الأوربية كاللاتينية والسنسكريتية وغيرهما ، وقد نشرت هذا الرسالة في سنة ١٨٩٧ وشاعت واستقبلها الباحثون استقبالاً حسناً فترجمت إلى الإنكليزية . غير أن اللغويين الفرنسيين قد ظلوا بمعزل عن هذا اللون الجديد من ألوان البحث اللغوي ، فكانوا يعتبرون مسألة الدلالة أو المعنى من متعلقات البحث في الأساليب والأنواع الأدبية « Stylistique » وظلوا على رأيهم هذا إلى عهد غير بعيد ، ثم بداهم أن هذه المادة من موضوعات علم اللغة فنبعوا في ذلك جمهرة العلماء اللغويين في خارج فرنسا .

وفي القرن العشرين اتسع البحث في المعنى والدلالة واتضح المناهج فيه فإذا كان (M. Bréal) أول من لفت الأنظار إلى الموضوع في رسالته المسماة Essai de Sémantique ، فإنه قد توصل إلى قواعد عامة في تطور الدلالة لا يخرج عن الناحية التاريخية .

غير أن الباحثين الذين جاءوا بعده قد فطنوا إلى الناحية الاجتماعية في تطور المعنى كما فطنوا إلى العوامل الإنسانية في هذا التطور والعوامل الخارجية .

وفي هذا النهج جرى أوكدن C.K. Ogden و I.A. Richards فقد كتب في سنة ١٩٢٣ كتابهما المشهور The Meaning of Meaning وبحثنا فيه مسألة الدلالة وتطور المعنى من الناحيتين الاجتماعية والنفسية فيينا علاقة الشعور والماطفة والإرادة والسلوك في تطور الدلالة .

كما اهتم الأمريكيون في الفترة الأخيرة بدراسة موضوع الدلالة حتى أدى بهم هذا الاهتمام إلى كثرة الباحثين فكثرت الدراسات . ويبدو أن الأمريكيين قد عرضوا لهذا الموضوع من أجل غرض غير لغوي ، فقد اعتقدوا أن دراسة معاني الألفاظ كفيلة بحل كثير من المشكلات الإنسانية التي تمرض للأمریکی في بيئته الواسعة المعقدة التي تضم العدد الهائل من البشر وهم غير متجانسين . في تفكيرهم ، وذلك لانتهائهم إلى أصول عدة . إذاً فالحاجة هي التي دفعت هؤلاء إلى أن يتناولوا هذا الموضوع في هذا المستوى الشعبي .

ومن أشهر هؤلاء الباحثين شخص بولوني الأصل يدعى (الفرد كورزيسكي) Alfred Korzipski فقد ذهب هذا إلى أن البحث في مدلولات الألفاظ طريقة في الوصول إلى حلول لكثير من مشكلات الانسان التي تحمل إليه المآسى والتاعب ومن ثمة الحروب وما تجر وراءها .

هذا عرض سريع لاهتمام اللغويين في مختلف العصور بموضوع اللفظ ودلالته ولما كنت أرى أن أدرس العربية من الناحية التاريخية ، يحسن بي أن أعرض للالفاظ الإسلامية على أنها لون من ألوان التطور التاريخي الذي عرض للفردات العربية فتغيرت من دلالاتها إلى شيء يدخل في باب المصطلح العلمي (Terme Technique) . وهذا المصطلح العلمي مهم من الناحية التاريخية وذلك أنه قد توفر للعربية في حقبة مبكرة من تاريخ تطورها هذا الانتقال العلمي الحضارى .

الفصل الرابع

الألفاظ الإسلامية

يعتبر القرآن في تاريخ العربية حدثاً مهماً وذلك لأنه نموذج جديد لهذه اللغة الكريمة. تطورت العربية في هذا النموذج فكانت خليفة بأن تكون معربة عن دين جديد هو في حقيقته حضارة جديدة .

ومن الطبيعي أن تتطلب هذه الحضارة الإسلامية الجديدة مادة لغوية جديدة ، ولذلك أدرك العلماء في فترة سابقة من العصر الإسلامي أنه لا بد من فهم لغة التنزيل فهماً جديداً لما فيها من أسرار لغوية جديدة .

وهكذا فكر العلماء الأقدمون في شرح هذه اللغة بعد أن وقفوا وقفة طويلة مترددين في الإقدام على هذا العمل الشاق وذلك لتمكن العقيدة من قلوبهم إن لغة القرآن تعرب عن معان جديدة فهل يؤخذ اللفظ على ظاهره أم أن دقائق المعنى تقتضي أن يوجه اللفظ توجيهاً آخر .

ومن هنا كانت دراسة العربية غاية ووسيلة ، فهي غاية ممثلة في هذه اللغة الجديدة في كلام الله سبحانه وتعالى وكلام نبيه الأمين ، وهي وسيلة لفهم ما وراء هذه الألفاظ واستمالتها كما وردت في آي القرآن الحكيم .

وكان أبو عمر بن العلاء من علماء العربية المتقدمين وأحد القراء السبعة المشهورين قد ذهب إلى أن فهم لغة القراء وتدبر معانيه غاية كل مسلم ، وإلى أن الشمر واللغة ينبغى أن يكونا أدوات لفهم لغة القرآن .

غير أن الأصمى من علماء اللغة في القرن الثاني للهجرة أبى أن يمرض لشمر وفاق شرحه لشيء من القرآن وأنه لم يذهب مذهب أبي عبيدة معمر بن المثنى الذي ذهب

فى كتابه «مجاز القرآن» مذهباً آخر فكان يفسر القرآن ويشرح غريبه مستدلاً بما ورد من ذلك اللفظ فى الشعر القديم . وقد سبق أبا عبيدة فى هذا المضمار عبد الله بن عباس وجماعة آخرون من الصحابة والتابعين .

وتشتمل لغة التنزيل على ثروة لفظية يحق لنا أن نطلق عليها الألفاظ الإسلامية، وذلك لأن هذه المواد العربية قد اكتسبت فى هذه الفترة الإسلامية الأولى معانى جديدة كما وردت فى القرآن والحديث . وإن اكتسابها لهذه المعانى جعل طائفة منها تدخل فيما أسميناه « المصطلح العلمى » .

فإن ألفاظ « الصلاة » و « الزكاة » و « الصوم » و « الجهاد » و « الصدقة » و « الفرض » و « السنة » و « الحديث » و « النافلة » وغير هذا مما يدخل فى باب « الألفاظ الإسلامية » ، ومعنى ذلك أنها دلت دلالات جديدة فى هذه الفترة التاريخية .

ونستطيع أن نحصى ألفاظاً كثيرة أخرى اكتسبت معانى جديدة فى هذه الفترة التاريخية من تاريخ العربية فإن التقوى ، والإيمان ، والتوحيد ، والسلام ، والمؤمن ، والكافر ، والملاحد ، والفاسق ، والمصدق ، من الألفاظ التى تطورت فى لغة القرآن فصارت تطلق على معان غير المعانى التى كانت معروفة بها .

ومن أجل ذلك وجد الباحثون أن الحاجة تدعو إلى وضع التصانيف التى تشرح هذه اللغة الكريمة فكانت الكتب التى تحمل عنوان « مجاز القرآن » والكتب التى تؤسم بـ « غريب القرآن » أو « مشكل القرآن » .

ومثل ما حدث فى لغة القرآن حدث فى لغة الحديث ، فقد وجد فيها العلماء مادة غريبة ينبغى أن تخص بالتأليف فصنفت فى ذلك الكتب والرسائل .

ويتألف من مجموع هذا مادة تطلق عليها « الألفاظ الإسلامية » . وإذا كنا مؤرخين لهذه اللغة ينبغى أن نقف عند هذه الفترة وقفة طويلة وذلك لتسجيل هذا الجديد الذى جد فى حياة هذه اللغة الكريمة .

الفصل الخامس

في المشكلة اللغوية

الاهتمام باللغة أمر تستدعيه ضرورة قائمة ، وذلك أن المشكلة اللغوية من المشكلات الخطيرة . ومن أجل ذلك نشطت المجالس العلمية في الأقطار العربية في العمل على حل هذه المشكلة القائمة وتبرز المشكلة في أن العرب في يومنا هذا لا يتكلمون بالفصحى من العربية ، فالعامى الدارج هو المستعمل وأمر العامى مشكلة المشكلات أيضاً ، فهناك لهجات مختلفة باختلاف البلاد ، ثم إن البلد الواحد مشتمل على لهجات وطرق في التعبير مختلفة أيضاً ، وربما صعب على العربي في شمالي العراق أن يفهم من قروي من سكنة الأهواز في الجنوب من العراق .

ومسأله تقريب العامية من الفصحى أمر يتعلق بالزمن الطويل ، فليس من الممكن القيام بمشروع أو بحث للوصول إلى هذا الهدف الخطير ، وأنا أقول متعلق بالزمن ، لعلمي أن خير الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا هو نشر العلم والثقافة بين أبناء البلد الواحد ، بحمى يتيسر لجميع أبناء البلد قسط من العلم والمعرفة ، ومن شأن هذا أن يعمل على رفع مستوى اللغة المستعملة التي هي قريبة من الفصحى . ونستطيع أن ندلل على قربها من الفصحى إذا نظرنا إلى اللغة التي يستعملها المثقفون اليوم في محادثاتهم وفي استعمالهم اليومية فهي لغة في مجموعها تكاد تخلو من اللفظ العامى الدخيل فجموعة ألفاظها على العموم فصحى ويبدو قربها من الفصحى إذا وازنا بين اللغة التي يستعملها المثقف وهو من أسرة جاهلة — واللغة التي يستعملها سائر أفراد أسرته والتي هي موهلة في العامية الدارجة .

ولا بد أن نعرض لهذه اللغة القريبة من الفصحى بالبحث التي نحن سائرون إليها في مستقبلنا القريب أو البعيد لنحدد صفاتها وميزاتها التي تتميز بها ثم نخلص

من ذلك إلى البحث التاريخي لنقرر مرحلة من مراحل تاريخ العربية الطويل ،
فالتاريخ اللغوى من الأمور الغامضة ، ذلك أن الباحث لا يهتدى إلى المراحل
التطورية فى هذا التاريخ الطويل وربما انقطعت عنه حلقات طويلة وضاع
أثرها وبهذا فليس من الممكن رسم تاريخ محكم الحلقات لهذه اللغة فلقد ضاع من
أصولها شئ كثير ومن أجل هذا فهى بدع من اللغات الحية المتطورة على قوتها
وأصالتها وحيوتها وقابليتها فى مسابقة الزمن وتطوره . ولقد أثر عن أبي عمرو بن
العلاء أنه قال : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً
لأنهى إليكم علم وشعر كثير » .

وأنا أفترض أن تكون هذه اللغة القريبة من الفصيحة والتي تكاد تخلو من
أى لفظ دخيل عامى ، متخلفة من قيود الإعراب فالكلمات فيها ساكنة الأواخر
ولعل هذه المرحلة مهمة فى العود إلى الفصحى العربى كما هو الحال فى اللغة المكتوبة،
التي ورثناها من التراث العربى كما فى لغة القرآن .

ولابد أن نعرض للإعراب عرضاً تاريخياً فنقول : لقد احتفظت اللغة العربية
الفصيحة بظاهرة الإعراب وهى من صفات العربية الموهلة فى القدم ، فى حين أن
سائر اللغات السامية عدا الأكديّة - قد فقدت الإعراب منذ أقدم العصور ، وقد
دل على هذا الإعراب بقايا نجدتها فى العبرية والحشية وأما فى اللغة الأكديّة فقد
عرفت الحركات الثلاث فى البابلية فى النصوص القديمة ثم تطورت هذه الحركات
الثلاث وأنتهت إلى حركتين هى الضمة للرفع والفتحة للنصب والجور ولم تلبث هذه
المرحلة طويلاً حتى تطورت إلى مرحلة الحركة الواحدة وهى الكسرة المائلة .

ولعل علاقة اللغة النبطية بالعربية وقربها منها أوجد الإعراب فى النبطية
كما تؤيد ذلك النقوش التى عثر عليها . وقد ذهب Eknouh المستشرق الألمانى
إلى أن النبط كانوا يستعملون الضمة فى حالة الرفع والفتحة فى حالة النصب والكسرة
فى حالة الجور ، ولا يعقبون هذه الحركات بالنون . وعدم وضع النون بعد الحركات

يشبه ما هو شائع في قسم من لهجات العربية الدارجة ومن ذلك ما هو مستعمل في لهجة أهل الموصل في العراق ، وفي غير الموصل كما في الأقطار العربية الأخرى .

ويرى المستشرق E. Littmann أن أواخر الكلمات في اللهجة النبطية قد يحدث فيها تغييرا بحسب مواضعها من الإعراب . وللإعراب أثر في اللغة العبرانية يتبينه الباحثون في حالي المفعول به وفي ضمير التسمية على أن هذا الأثر ضئيل جدا فقد أوشكت تخلو لغة العهد القديم من الإعراب . غير أن علامة النصب في العبرية القديمة هي الفتحة الطويلة التي نشأ عنها حرف الهاء ، والهاء المتطرفة في هذه اللغة تشبه الالف اللينة ، ومن أجل ذلك تعامل معاملة أحرف المد وتظهر هذه في آخر الاسم المنصوب بتزع الخافض كما في آخر الظرف المنصوب (ليلا) وتعني (ليل) و (عشا) وتعني (حين) . وكما تلحق هذه العلامة الظروف فإنها تلحق المصدر فينصب كما هو في المفعول المطلق في العربية ولكنها في هذه الحالة تكون متلوة بيم زائدة (للتميم) الذي يقابل التنوين في العربية ، مثال ذلك (يومام) وتعني (يوما) و (حنام) وتعني (حنانا) والمتتبع لشوارد النصوص في اللغة العبرية ربما وجد آثارا تشير إلى شيء يشبه الضمة والكسرة ولعلهما بقايا لضمة وكسرة كانتا مستعملتين في العبرية القديمة .

ويعمل المحدثون — وجلهم من المستشرقين ظاهرة الإعراب في العربية وفي سائر اللغات السامية تخلو هذه اللغات من ادغام للكلمات أي وصل كلمة لتكون من الكلمتين كلمة واحدة لها معنى مركب منها كما في اللغات الآرية . وليس من حجة علمية تاريخية تثبت صحة هذه الدعوى والذي ثبت في التحقيق العلمي أن في العربية تراكيب كثيرة ، وأنها استفادت من التركيب لتكثير المعاني والمباني ، وقد اعتمد البناء في العربية على التركيب بصوره المختلفة ، وكان مذهب الخليل بن أحمد أن الكلمتين إذا ركبتا ولكل منهما معنى وحكم أصبح لها بالتركيب حكم جديد . وتبع الخليل في مقاله جمهور الكوفيين ومنهم الكسائي والفراء . ومن أجل ذلك فليس عدم التركيب علة في الإعراب ، وذلك لوجود التركيب والإعراب في العربية في الوقت نفسه .

ويختلف الرأي في دلالة الحركات على المعاني الإعرابية بين القدماء والمحدثين في اللغة العربية . وأول من أشار إلى هذه المشكلة من القدماء هو الخليل بن أحمد ذكر سيويه أن الخليل قال : « إن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحروف ليوصل إلى التكلم به والبناء هو الساكن لازيادة فيه » . ولعل الجدل في دلالة هذه الحركات على المعاني الإعرابية وعدم دلالتها على ذلك ، دار بين تلاميذ سيويه والكسائي فذهب جمهورهم مذهب الأول ، وذهب آخرون مذهب الثاني .

ويمثل رأي الفاهيين إلى أن الحركات دوال على معاني إعرابية ، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي ، فقد نقل السيوطي في الأشباه والنظائر قوله « إن الأسماء لما كانت تتورث المعاني جعلت فاعلة ومفعولة ومضافة ولم يكن في صورها وأبنتيها أدلة على هذه المعاني جعلت حركات الإعراب تبين عن هذه المعاني وتدل عليها ليتسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة » .

ويمثل رأي الطائفة الأخرى قطرب أبو علي محمد بن المستنير وهو تلميذ سيويه قال قطرب إنما أعربت كلامها ، لأن الاسم في حال يلزمه السكون للوقف فلو جعلوا وصله بالسكون وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ليتبدل الكلام . ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ولم يجعلوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشوييت ولا بين أحرف متحركة لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون في كثرة الحروف المتحركة ويستعجلون ، وتذهب الصلة من كلامهم فجعلوا الحركة عقب الإسكان .

وفي هذا الرأي توضيح وأبانه لرأي الخليل الذي أسلفنا ذكره ومن ذهب مذهب قطرب من المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس . ولكنه حلاله أن يلتزم بالرأي أن هذه الزوائد الإعرابية يلجأ إليها لأمر فني (Technique) وهو أن

الموسيقى والانسجام يستدعيان هذه الزوائد الإعرابية ، ومعنى هذا أنه ليس للحركات الإعرابية من مدلول وأن الحركات لم تكن تحدد المعاني في أذهان العرب الأقدمين ، وهي لاتعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في كثير من الأحيان لوصل الكلمات ببعضها . ويرى الدكتور أنيس أن « النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الإعراب وقاسوا بعض الأصول ، رغبة منهم في الوصول إلى قواعد مطردة منسجمة » . ثم إنه يفترض افتراضاً لا يقوم على أساس علمي تاريخي فيقول : « ولعلمهم تأثروا بما رأوه حولهم من لغات كالليونانية ففيها يفرق بين حالات الأسماء التي تسمى (Cases) ويرمز لها في نهاية الأسماء برموز معينة » . ولقد فاته أن اليونانية تختلف نحواً وطبيعة عن العربية ولم يكن واضح النحو عارفاً أو متأثراً باليونانية بأي وجه في الوجوه ، والقول بالتأثر باليونانية في الثقافة العربية الإسلامية شائع عند الكتاب المصريين فإلى مثل هذا ذهب كل من الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والدكتور إبراهيم مدكور والدكتور إبراهيم سلامة . وقد بنى إبراهيم مدكور رأيه في تأثر النحو العربي بمنطق أرسطو على أمور .

(١) اعتبار القياس أصلاً من أصول النحو وتحديدده ووضعه على نحو ما حدد القياس المنطقي ثم التشابه بين ما جاء في تقسيم الكلمة عند سيبويه إلى اسم وفعل وحرف وما جاء في تقسيمها عند أرسطو إلى اسم وفعل وأداة .

(٢) ظهور النحو السرياني في مدرسة نصيبين في القرن السادس الميلادي على مقربة من النحاة العرب الأولين ، ثم ترجمة عبد الله بن القنق لمناطق أرسطو التي تعد كما يقول ثروة جديدة نقلت إلى العالم الإسلامي ثم تلمذه بعض السريان على الخليل بن أحمد كنين بن إسحاق الطيب السرياني المعروف الذي كان له أثر في نقل علوم اليونان ، وقرر الدكتور أن حيننا قد عاصر الخليل وسيبويه ، وليس مدكون أول من ذهب إلى هذا فقد قال بهذه المقالة قدماء ومحدثون .

من القدامى ممن ذهب إلى هذا ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء) ونقل

هذه الرواية القفطى وقد ذهب الأستاذ أحمد أمين هذا المذهب من المحدثين ورد هذه الأقوال يقوم على أن الخليل لم يعاصر حيننا فوفاة الخليل كانت في سنة ١٨٠ هـ أو قبل ذلك أو بعده بقليل وأن ولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ ، فلم يدرك إذا حنين الخليل ولا رآه ، والزعم باطل من أساسه . والقول بهذا التأثير نتيجة تقليد هؤلاء المحدثين للمستشرقين في أقوالهم ، فإلى مثل هذا ذهب (دى بور) في تاريخ الفلسفة في الإسلام .

ويستدل الدكتور إبراهيم أنيس بمخلو اللهجات الإقليمية الحديثة من الإعراب على عدم شيوعه في اللغة العربية في مراحلها الأولى ، على أننا لا يمكننا أن نجعل من مخلو اللهجات الدارجة من الإعراب دليلا على أن الإعراب ظاهرة لم تكن موجودة في العربية الأولى ، وقد رأينا أن اللغات السامية جميعها كانت معربة ثم زال إعرابها في العهود التي تماقت على مراحلها الأولى . وقد أطال الدكتور على عبد الواحد وائى في الرد على زميله الدكتور أنيس في كتابه « فقه اللغة » .

وقد عرض الأستاذ إبراهيم مصطفى للموضوع نفسه ، فقرر أن الحركات دوال على معان ، بل إن في أصول العربية الدلالة بالحركات على المعانى ، ثم هو يقول « وما كان للعرب أن يلزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها كل الحرص ، وهي لا تعمل في تصوير المعنى شيئا . ونحن نعلم أن العربية لغة « الإيجاز » وأن العرب كانوا يتخففون ما وجد السبيل إلى ذلك ويحذفون الكلمة إذا فهمت والجملة إذا ظهر الدليل عليها والأداة إذا لم تكن الحاجة ملجئة إليها . وعنده أن الفتحة ليست علامة إعراب ولا دالة على شيء ، وإنما هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب ، فهي بمثابة السكون عند العامة وأما الضمة فهي علامة الإسناد وأما الكسرة فإنها علامة الإضافة . ورأى الأستاذ إبراهيم مصطفى في دلالة الفتحة غريب ، فقد دلت المقارنات على أن الفتحة وجدت في حالة النصب في كثير من اللغات السامية ولم يكن هناك سبب للفتحة « المستحبة » كما سماها . ويرى الأستاذ Marcel Cohen

أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعد الإعراب لم تكن مراعاة إلا في اللغة الفصيحة . أما لغة التخاطب ، فلم تكن معربة . وهو يستدل على ذلك بأن قواعد هذا شأنها في الشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقة بعضها ببعض ، كل هذا غير ممكن في لغة التخاطب وإنما هو من اختصاص اللغة الفصيحة ، لغة الصفوة المهذبة . أما الأستاذ (فك) المستشرق الألماني فيرى أن الحركات صفة من صفات العربية وسمه في أقدم صحتها اللغوية ، والتي فقدت في أخواتها الساميات باستثناء البابلية القديمة . وعنده أن العربية حافظت في مختلف عصورها على هذه الظاهرة بالرغم من ظهور اللحن واللهجات الإقليمية في الحواضر .

وأريد الآن أن أبسط رأياً وهو أن العربية التي ورثناها ، والتي نعرف من أمرها الشيء الثابت الصحيح لا تنمى الإسلام في التاريخ الزمني كثيراً . ومعنى هذا أن العربية الممثلة في لغة التنزيل هي العربية التي نقيم عليها البحث والدرس وما العربية الجاهلية إلا شيء من هذه العربية الإسلامية ، ولا أريد أن أقول بنظرية الانتحال ففي الجاهلية أدب كثير فيه الصحيح وفيه الموضوع ولكن لا أستطيع أن أجعل مادة للدرس والبحث ، هذه النصوص الجاهلية التي لا نعرف عن بدايتها ونهايتها كثيراً وأترك هذه النصوص الإسلامية وفي مقدمتها كتاب الله والعربية — ممثلة في القرآن — لغة عالية سلخت من تاريخها مراحل طويلة حتى انتهت إلى هذا الشكل من الكمال . والبحث في تاريخ القرآن يدلنا على أن لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الإقليمية . وأريد أن أخلص إلى أن هذه اللغة العالية قد ثبتت من أصول اللغة وقواعدها أنها ألزمت الإعراب الذي لم يكن شائماً ومستعملاً على نحو ما ألزمت به نصوص القرآن وسنأتى على إثبات هذا الرأي ومعنى هذا أن العربية في لهجاتها المتعددة لم تكن متقيدة بهذه الضوابط الثقيلة ولكن هذه اللغة هي التي جعلت الإعراب السمة الملزمة للعربية التي أريد لها أن تكون كذلك .

والبحث في تاريخ القرآن يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحها والتزامها بالإعراب وقد أشرنا إلى خبر قراءة ابن مسعود حين سمعها عمر بن الخطاب .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتى على اللهجات الدارجة المحلية أو قل على العربية المستعملة السهلة التي تتخفف من قيد الضوابط الثقيل . ومن هنا فالعربية شفعية التعبير منذ أن كانت . ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ملتزمة بضوابط الإعراب ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بمعناء هذه الضوابط وربما تعدى الأمر مسألة الإعراب إلى الألفاظ نفسها . فقد يكون في ألفاظ الثانية ما هو بعيد عن العربية وأنه قد دخل فيها نتيجة اتصال العرب أنفسهم بغيرهم من الأقوام والاتصال حاصل في كل عصر فالعرب في أطراف الجزيرة قد تهيأ لهم أن يتأخروا أقوام غيرهم فلم تسلم بذلك سليقتهم ومن أجل ذلك حرص عمر على الأخذ بقراءة تعتمد على لغة قریش وإلى مثل هذا كان يرى عثمان من جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فينبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه . ولا يعدم الباحث أن يجد في كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب النحو من هذا الباب شيئاً كبيراً في القراءات . ومرد ذلك أن الناس قد فطروا على أساليب في التعبير خاصة بهم ، وبذلك قرأوا . وإن طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة اعتبرت في شواذ القراءات . والشواذ من القراءات هي ما خلا تلك التي انتشرت بواسطة القارئ المشهور ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٢ هـ كقراءة ابن مسعود وقراءة ابن كعب واختيار الحسن البصري وأمثالهم وهي تعد من باب الشواذ وقد ألف غير واحد من الأقدمين في موضوع الشواذ كالمكبرى في كتابه إعراب القراءات الشاذة والأهوازي وابن عطية والمهدى ولم نعرف مؤلفات هؤلاء ولم يصل إلينا منها شيء كما اندثر كتاب اللوامع في القراءات وكتاب المحتوى للداني .

ومن أمثال هذه الشواذ التي لا تدل إلا على اللهجات الدارجة أو اللهجات الإقليمية مما جاء من شواذ سورة الفاتحة.

قرأ أبو السواد الغنوي « هياك » بالهاء المكورة في الآية الخامسة « إياك نعبد »

وقد قرأ عمرو بن فايد « إياك » بالتخفيف ، وقرأ جناح بن حيش « نستعين » بكسر النون .

وجاء في شواذ البقرة : قرأ يحيى بن وثاب « ولا تقربا هذه الشجرة » بكسر الشين وبالياء حكاه أبو زيد . وقراءة الشجرة بإبدال الياء في الجيم إثبات للهجة من اللهجات التي تلتزم هذه الإبدال الذي مازال حاصلا في لهجات القرويين في جنوب العراق وقد قرأ « بين المرء وزوجه » بدون همزة مع تشديد الراء .

وقراءة مسلمة بن محارب « بعولهن » في قوله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » يجزم التاء ومعلوم أن « البعولة » جمع « بعول » كما أن « السهولة » جمع « سهل » وعتدى أن اختلاف القوم في صيغ المجموع راجع إلى اللهجات الإقليمية ومعنى ذلك أن كل قبيلة ألقت صيغة من صيغ الجمع لاسم معين في حين أن القبيلة الأخرى ألقت صيغة أخرى .

وجاء في سورة المائدة قراءة بمضهم « لعبا » بكسر اللام وإسكان العين في قوله تعالى « وإذا ناديتهم إلى الصلاة أخذوها هزوا ولعبا » .

وجاء في شواذ سورة الأعراف « الجمل » في قوله تعالى : « حتى يلج الجمل في سم الخياط » بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها وهي قراءة ابن عباس ، ومعلوم أن صيغة (فعل) من صيغ جموع التكسير بضم الفاء وفتح الميم وتشديدها ، لا يكون مفردا إلا فاعلا مثل « راكم » في حين أن مفرد (جمل) هو « الجمل » بضم فإسكان ومعناه الحبل ، وقد قرأ أبو السمال (الجمل) بفتح الجيم وإسكان الميم .

ومن شواذ سورة طه قراءة عكرمه « أهس » بالسين في قوله تعالى :
« أهس بها على غنمي » .

ومن شواذ سورة الأنبياء قراءة ابن عباس « حضب » بالضاد في قوله تعالى :
إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقرىء « حصب » بإسكان الصاد،
وقرىء « حطب » بالطاء .

ومن شواذ سورة الحج جاء في كلمة « صلوات » إحدى عشرة قراءة في قوله تعالى :
« ولولادفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر
فيها اسم الله » .

والقراءات هي « صلوات » بفتحيتين وهي « صلوات » بضميتين على قراءة
أبي العالية والكلبي والضحاك و « صلوات » بضم فإسكان على قراءة جعفر بن محمد
وهي (صلون) بضم الصاد فلام فواو ونون و (صلوب) بالباء و (صلوت) بفتح
فإسكان ، و (صلوات) بضم الصاد وأسكان اللام و ثاء مثلثة في الآخر مع ألف
الإطلاق . والكلمة جمع صلاة وهي تعني الكنيسة والكلمة سريانية بخلاف
ماذهب إليه الزمخشري في أنها عبرانية وتذييل الكلمة بالألف بقصد التعريف
ولعل صيغ جموع التكسير يمكن أن ترد إلى صيغ محدودة ، وذلك أن بمضا منها
يحصل في صيغة أخرى باستخدام المدمثلا . فكلمة (تارة) تجمع على (تير) ولكنها
تصبح (تيار) بإطلاق الفتحة . وهذا يدل على أن صيغ جموع التكسير وصيغ وروثها
على هذه الكثرة ناتج عن اللهجات الإقليمية إذ من المعلوم أن إقليما من الأقاليم
يطيل في الحركات حتى تصبح مدا ، ومن هذه أيضاً « أسد » بضم الهمزة وإسكان
السين أو ضمها فإذا أشبع الضم على السين صار مدا وصارت الكلمة (أسود)
مثل هذا (أحبة) و (أحباء) وكثير غيره .

ويدلنا على إشارة هذه الصيغ إلى موضوع اللهجات ما يوجد في اللغة الحبشية
من صيغ جموع التكسير ولادتها على الموضوع نفسه .

ونستطيع أن نوجز أن القراءات في القرآن تقوم على تغيير في الحركات وتغيير في الأبنية والصيغ وتغيير في الأصوات وتغيير في الألفاظ ومجموع هذا يدل على أن طرق التعبير الخاصة وجدت طريقها إلى لغة التنزيل ، ولم تجد في ذلك جهود التوحيد . والقراء يختلفون حتى في موضوع الإعراب الذي ألزمه جميعهم ، فهذا يرفع ما ينصبه ذاك وذاك بخفض ما يرفعه هذا . وقد حمل هذا على أنه خطأ من كتاب الوحي فقد روى أبو معاوية محمد بن حازم التميمي السعدي المتوفى سنة ١٩٣ هـ . عن هشام بن عروة بن الزبير المتوفى سنة ١٤٦ هـ . عن أبيه عن عائشة أنها قالت : ثلاثة أحرف في كتاب الله هن من خطأ الكاتب وهي قوله تعالى : « إن هذان لساحران » وفي قوله تعالى : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، والمقيم الصلاة والمؤتون الزكاة » وفي قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون » وقد حقق النحويون في حديث عائشة حول غلط الكاتب وحديث عثمان في قوله : « أرى فيه لحنا » فاعتلوا لكل حرف منها ، واستشهدوا الشعر فقالوا في « إن هذان لساحران » هي لغة بلحادث بن كعب ، فهم يقولون : « مررت برجلان » و « قبضت منه درهمان » (و) جلست بين يداه (و) (ركبت علاه) وأنشدوا لهوبر الحارثي :

ترود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابي التراب عقيم

كما اعتلوا لسائر المواضع السابقة علة مناسبة .

وشيوع اللحن في مختلف الطبقات دليل على أن هذا الإعراب ثقيل لا تحمله سليقه العرب اللغوية ، وكان ذلك في صدر الإسلام وقبل أن يتم اختلاط العرب بغيرهم ذلك الاختلاط العظيم الذي كان في العصور التأخرة ثم إن شيوع اللحن لم تسلم منه طبقة المثقفين ولا العلية من القوم ولا العلماء ، فلم تسلم لهشيم بن بشير محدث أهل المراق سليقته اللغوية ، فكان يلحن في كلامه ويشير الجاحظ إلى مخالفته المحدثين ما التزام من قواعد الإعراب .

وكان عبد الملك بن مروان يحذر أبناءه من اللحن ، وكان يقول لهم : « إن اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدرى في الوجه وأقبح من الشق في ثوب نفيس » .

وشيوع اللحن في زمان عمر بن الخطاب معروف ، فقد روى أن عمر سمع أعرابياً يقرأ قوله تعالى : « إن الله يرى من المشركين ورسوله » يجر رسوله فنبهه على الخطأ ، وكان ذلك سبباً في وضع النحو إن صحت الأخبار ،

والأخبار في وضع النحو كثيرة لامجال لذكرها هنا ، ولكنها في مجموعها تشير إلى أن اللحن في هذه الفترة المتقدمة كان شائعا . وشيوعه في قراءة القرآن مما عجل في وضع هذه الضوابط النحوية للحفاظ على لغة التنزيل من العبث . وشيوع اللحن دليل أيضاً على أن للقوم لغة يتخففون فيها من الضوابط الثقيلة وهي اللغة المستعملة وهي لغة الكثير من الناس ولغة التخاطب في الحياة اليومية .

على أن هذه اللغة العامة التي استعملها الناس لم تكن بعيدة عن لغة الكتابة في مادتها اللغوية ، وكان من شرط هذه اللغة مجانبية الإعراب . وإلى هذا يشير الجاحظ في قوله : « وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أننا تركنا ذلك ، لأن الإعراب ينفض هذا الباب ويخرجه عن هذه إلا أن احكى كلاماً من كلام متعالي البخل وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه » .

والمشكلة اللغوية قائمة في عصرنا كما أسلفنا ، وذلك لأن العربية الفصيحة المكتوبة هي غير العربية المستعملة في التخاطب وغير اللهجات الدارجة التي لم ترق إلى لغة المثقفين في مادتها وهي من نماذج متأخرة متدهورة ، وليس قيام المشكلة على هذا الوجه بمستحيل الحل . فشروع الثقافة وتيسير المعرفة لأبناء العربية على شكل عام كفيل برفع مستوى اللغة إلى الحد الذي كانت عليه العربية في مختلف عصورها ، فلم يسلم عصر من عصور التاريخ اللغوي من ازدواج في اللغة ، وقد شاهد علماء اللغة العربية

الأقدمون مثل الخليل بن أحمد وسيديويه والكسائي وعيسى بن عمر وغيرهم لغة عامية يستعملها جمهور الناس ، ولقد أثر عن الكسائي أنه وضع رسالة في لحن العامة .
ولغة العامة غير لغة العلية فقد ذكر أبو هلال العسكري : إن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك وزرى عليك ، كما روى عن بعضهم أنه قال لبعض العامة : بم كنتم تنتقلون البارحة ؟ فقال : « بالخالين » ولو قال له : « ايش كان نقلكم لسلم من سخريته . فينبغي أن يخاطب كل فريق بما يعرفون » .

وربما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابة ، وذلك بسلامة أبنيتها وبتخير ألفاظها الصحاح في العربية ، ولكنها متحللة من ضوابط الإعراب ، فالتكلمون بها يلزمون الإسكان في جميع صورها ، وهذا ما نصبو إليه في تقريب العامية من الفصحح وسبيل هذا كما أسلفنا نشر المعرفة بين الناس والزمان كفيل بتحقيق هذا .

الفصل السادس

في تاريخ المشكلة اللغوية

للغة تاريخ نتبين فيه أصل اللغة ونشوءها وتطورها والمراحل التي قطعتها في عمرها الطويل حتى نصل في هذا البحث إلى ما آلت إليه في عصرنا الحاضر ، كما أن لسائر العلوم تاريخاً نهتدى فيه للأصول التي قامت عليها تلك العلوم ، لسائر المراحل التي مرت عليها . والبحث في العربية يؤدي بنا إلى التزام الناحية التاريخية وإذا قلت : إن اللغة العربية بدع بين اللغات فلا أراى أعدو الصواب كثيراً ، ذلك أننا لا نعرف تاريخ هذه اللغة في مراحلها الأولى إذ ليس من المعقول أن هذه اللغة بدأت بهذه النصوص الشعرية الجاهلية . فهذه النصوص الجاهلية تقدم للباحث نماذج عالية من العربية ، وهذه النماذج لا يمكن أن تكون بأى حال من الأحوال من البدايات في اللغة ، فلا بد أن تكون العربية قد قطعت قبل هذه النصوص مراحل أخرى في تاريخها لم تكن فيها على هذا المستوى العالى من حيث قدرة اللغة على أداء المعانى ومن توفر المادة العربية للتعبير عن النواحي المادية وانصرافها إلى العنويات من الأمور توسعاً ومجازاً . ولا أريد أن أخوض في موضوع الصحيح والمنحول من هذه النصوص ، فليس ذلك بضائر قيمة النصوص اللغوية ، وأنها صورة للحياة الجاهلية ذلك أن وجود المنحول من هذه النصوص لا يمنع من وجود الصحيح ونسبته إلى قائله .

ولا بد أن نبين أن الآثار الأدبية في العصر الجاهلي شعرية في الغالب ، والنثرية منها قليلة جداً وهى إن وجدت . فلا يصح الاطمئنان إليها . وإلى هذا ذهب الكثيرون من الذين عنوا بتاريخ الأدب الجاهلي .

ولا أريد أن أخضع الأمثال القديمة الجاهلية للمادة التي لا يطمأن إليها .

فالأمثال — على أنها نثرية — لا نستطيع أن نعدّها من النثر العالى الذى يقصد إليه الباحثون فى تاريخ الأدب . ذلك أنها مادة شعبية تعكس التجارب التى مرت بها المجتمعات القديمة . فالأمثال تعرض لأية أمة من الأمم ولا سيما البدائية منها .

على أن الباحث فى النصوص الشعرية الجاهلية واجد فيها من عيوب النظم شيئاً لا يجده فى النصوص الشعرية فى العهود الإسلامية ، وهذه العيوب تتعلق بالحفاظ على الوزن فى الشعر .

وهذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا بالمناسية التاريخية ، وأعنى بذلك أن هذه النصوص لم تكتمل موسيقاها وأنها مرحلة من مراحل التطور الفنى من حيث البناء فى القصيدة العربية ، وأنت واجد هذا الخروج عن ضوابط الوزن عند سائر الشعراء الجاهليين . فدونك معلقة امرئ القيس لتجد فيها قوله :

إذا قامتنا تضوع المسك متهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
وقوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل
وقوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلعع اليدى فى حبي مكلل
وقوله :

فعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العذيب بعد ما متأملى
وأنت واجد شيئاً من هذه المخالفات فى شعر طرفة بن العبد كقوله :

كأن البرين والدماليج علقت على عشره أو خروج لم يخضر
وقوله :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن مقتد

ومنه ما جاء فى قصيدة زهير ، كقوله :

رعوا مارعوا ظمهم ثم أوردوا غماراً تقرى بالسلاح وبالدم

وهذه هى السمات البارزة فى القصيدة الجاهلية، وربما كان منه فى شعر المخضرمين من الشعراء ، وهو من غير شك دليل على أن القصيدة العربية الجاهلية فى طور التكوين من الناحية الفنية Tehrique وأنها منتقلة من مرحلة إلى أخرى وفى كل مرحلة من هذه المراحل تستفيد شيئاً لاستكمال عناصرها الفنية .

ولم يؤثر عن الجاهليين نصوص نثرية كثيرة كماهى الحال فى الشعر ، وسبب ذلك معروف عند الباحثين فى تاريخ الأدب الجاهلى ، وليس من غرضنا فى هذه المقالة أن نعرض لهذا الموضوع . على أنه لا بد أن نقرر أن أمة تتسع لغتها لهذه النصوص النثرية التى تقتضى وجودها لم تصل إلينا . فالباحث فى النثر العربى مضطراً أن يبتدىء بالقرآن الكريم ويعد نصوص القرآن بداية هذا اللون الأدبى من الناحية الواقعية ، وهو مضطر أيضاً أن يفترض أن النثر العربى لا بد أن يكون قد مر بمراحل تاريخية .

ولغة القرآن وأسلوبه يطلعان الباحث على مستوى رفيع من حيث المبني وغزارة المادة اللغوية ، ومن حيث قدرة هذه القوالب اللفظية على الإعراب عن دقائق المعنى ، وخواطر الفكر ، ولعل هذا كان السر الذى حداً بالباحثين إلى القول بالإعجاز فى القرآن .

والبحت فى تاريخ القرآن يدلنا على أن لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الإقليمية . وأطلعت المجتمع العربى الإسلامى الأول على نموذج عال لهذه اللغة . فأخذوا بها . وفى القرآن يتكشف الستار عن عالم فكرى تحت شعار التوحيد لأول مرة فى تاريخ اللغة العربية . بحيث لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة إلا نموذجاً ضعيفاً له .

من حيث ظاهر وسائل الأسلوب ، ومسالك المجاز والدلالة . إلى مثل هذا ذهب المستشرق الفرنسي الكبير (ريجيس بلاشير) في محاضرة له ، فهو يقول : ومنذ ظهر الإسلام لم تعد اللغة العربية آلة عادية للكلام والتخاطب ، ولالغة إنسانية محضة بل شيئاً آخر نعم لن نفهم جوهر العربية وكيانها . بل لن نستطيع لفهماً إن نحن أهملنا أهمية هذا « الحدث القرآني » هذا الحدث الذي بفضلته تجاوزت اللغة حدود الإنسانية المحضة .

والبحث في تاريخ العربية يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحها والتزامها الإعراب . ولتكون لغة عامة لا أثر فيها للغات الخاصة التي اعتاد كل طائفة منهم استعمالها والقراءة بها فقد ورد أن عمر بن الخطاب قد سمع رجلاً يقرأ (عتي حين) في قوله تعالى : (ليسجننه حتى حين) ؛ فقال من اقرأك ؟ قال ؛ ابن مسعود فكتب إليه : إن الله أنزل هذا القرآن عربياً ، وأنزله بلغة قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش : ولا تقرأهم بلغة هذيل .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتي على اللهجات الدارجة المحلية أو قل على العربية المستعملة السهلة والتي تخففت من قيود الضوابط الإعرابية الثقيلة ، ومن هنا فالعربية شفعية التعبير منذ أن كانت ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ، وهي ملتزمة بضوابط الإعراب ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هذه الضوابط وربما تعدى الأمر مسألة الإعراب إلى مسألة الألفاظ نفسها فقد يكون في ألفاظ الثانية ماهو بعيد عن العربية وأنه قد دخل فيها نتيجة اتصال العرب أنفسهم بغيرهم من الأقوام . والاتصال حاصل في كل عصر فقد تهيأ للعرب في أطراف شبه الجزيرة العربية أن يتاخروا أقواماً غيرهم فلم تسلم بذلك سليقتهم ومن أجل ذلك حرص عمر على الأخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، وإلى مثل هذا كان يرمى عثمان في جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فنبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه .

ولا يعدم الباحث أن يجد في كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب

النحوقى هذا الباب شيئاً كثيراً من القراءات ومرد ذلك أن الناس قد اعتادوا على أساليب فى التعبير خاصة بهم ، وبذلك قرأوا ، وإن طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة قد اعتبرت من شواذ القراءات . وتبين من البحث فى لغة القرآن أن هذا الحدث القرآنى العظيم قد عمل على توحيد العربية وطبعها بطابع خاص فيه الشمول وفيه العموم بحيث تيسر لهذه اللغة أن تكون لغة العرب عامة وأنها تغلبت على الكثير من معالم اللهجات السائرة .

ووجود اللهجات السائرة وتنصلها عن التمسك بقيود الإعراب دليل على ظهور مرحلة جديدة فى تاريخ العربية أوشكت أن تعم لولا ما كان من أمر لغة التنزيل . وفى هذه المرحلة الجديدة تخفت العربية من ضوابط الإعراب .

على أن المعلومات التى بين أيدينا عن اللهجات الخاصة لا تتمدى بالإشارات الموجزة والعلامات التى لا تعدو أن تكون ملاحظات لا تكون فى مجموعها مادة كافية لرسم صورة للهجة من اللهجات فى بداية القرن الأول الهجرى ذلك أن النحويين واللغويين قد جمعوا هذه الملاحظات منذ أن بدأوا فى تثبيت قواعد العربية وظلت هذه ملاحظات تتناقل من جيل إلى جيل دون تصنيف وضبط بحيث لا نستطيع أن ننسب على وجه التحديد أية إشارة من هذه الإشارات اللغوية إلى أصحابها ، والأمثال كثيرة للبرهنة على ترددهم وعدم تحريرهم وجه الصواب من هذه الإشارات بحيث يبدو فيها للباحث أثر الاصطناع والكذب والتقليد فقد جاء فى كتب الأدب قول هو بر الحارثى :

ترود منا بين أذناء ضربة دعته إلى هابى التراب عقيم
وفى البيت التزام المثنى الألف فى جميع الأحوال ، وهى لغة بنى الحارث بن كعب وهى عند هؤلاء قلب الياء الساكنة إذا انتح ما قبلها ألفا فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشترت ثوبان ، وفى هذه اللغة أن ألف حرفى الجر (إلى) و(على) تبقى على حالها إذا كان مدخولها ضمير غائب أو مخاطب ، كما جاء فى النوادر لأبى زيد الأنصارى ، أن المفضل الضبي ذكر لبعض أهل اليمن قوله :

أى قلوب راكب تراها طارو علاهن فطر علاها
ولم ينسب السيوطى هذه اللغة لبنى الحارث بن كعب وحدهم فقد عزاها لبنى
العنبر وبني الجهم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وهمدان
ومزدادة وغدرة .

وهذه الإشارات لا تتجاوز مسائل الإبدال والقلب وسائر الحركات وما يتعلق
بشيء قليل من الأمور الصوتية ولم يعدها بعضهم من المستساغ القبول ، فالسيوطى
يحشرها فى باب (الردىء المذموم من اللغات) كالشكشة والكسكسة والتلتلة
والعنمنة والفحفحة والمجعجة وغيرها . كما أنها غير منسوبة نسبة صحيحة كما
أشرنا . فالعنمنة لغة قيس وتميم عند السيوطى ، وهى تعرض فى لغة قضاة عند
الثعالبى وفى لسان العرب غير هذا .

وإذا كانت هذه اللهجات لا تعطى إلا صورة شوهاء غير كاملة لمرحلة لغوية
من تاريخ العربية، فهل لنا أن نجد ذلك فى تاريخ اللهجات العربية الجنوبية كالمينية
والحيرية والسبئية أو فى اللحيانية والثمودية والصفوية والنبطية ؟ والجواب عن هذا
السؤال إن بين هذه اللهجات جميعها وبين العربية الفصيحة كما عرفناها فى لغة
القرآن أو فى لغة ما صح من النصوص الجاهلية فروقا بعيدة ، ومن ذلك أنه ليس
المعقول اتخاذ أية لهجة من هذه اللهجات صورة للعربية الأولى ، أو صورة
للمرحلة التى سبقت الفصيحة المعروفة فى لغة القرن الأول الهجرى . ونحن نطرق
هذا السبيل لعدم توفر النصوص الصحيحة المدونة فى هذه المرحلة اللغوية التى
تنشدها . ثم إننا نجرب هذه التجربة لأن بين أيدينا فى هذه اللهجات نصوصا
مكتوبة وهى النقوش مكتوبة بالآرامية وهى اللغة الثقافية كما هى الحال فى النقوش
النبطية فقد كتب النبط نقوشهم بالآرامية وإن كانت لغتهم عربية .

ويتبين من هذا العرض أن المواد الضرورية لم تتوفر لنا لمعرفة المرحلة اللغوية
التي سبقت عصر القرآن ، فلا بد إذن أن نسلك سبيلا آخر للوصول إلى شيء

مما نصبو إليه ، وذلك بالرجوع إلى نصوص العربية المثبتة في كتب اللغة والأدب والنحو ونستقرئها استقراءً دقيقاً لنخلص إلى موضوعات تؤلف منها مادة لغوية اتصفت بها المرحلة السابقة لعصر القرآن .

وهذه السادة اللغوية تشتمل على معلومات تتعلق بالأبنية والصيغ والأوزان كما تتعلق بمسائل خاصة ببناء الكلمة العربية وكيف توفر لبنية هذه الكلمة الانسجام والتكافؤ الموسيقي ، ولنعرض الآن لهذه المسائل .

١ — الابتداء :

والذي نلاحظه أن العربية لا تستسيغ الابتداء بالساكن من الحروف ولذلك قرر الخليل بن أحمد أن « حرف اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف » والعربية لا تجيز هذا كما أجازت ذلك اللغات الأجنبية الكثيرة ، ولهذا يستعان بالهمزة المفتوحة للتوصل إلى النطق بالساكن متخذة وسيلة أو قل معبراً إلى هذا الساكن من الحروف ليظهر في سكونه .

وكان يقول — بعد تمثيلة للخماسي من الأفعال : — « والألف التي في اسحنكك واقشعر واسجنفر واسبكر ليست في أصل البناء ، وإنما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها في الكلام لتكون عماداً وسماً للسان إلى الحرف الساكن » .

وسأل الخليل جماعة فقال : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامى وباء اضرب ودال قد ؟ فقالوا له . تقول ياء وباء ودال . فلم تعجبه إجابتهم ، لأنهم إنما لفظوا بالاسم ولم يلفظوا بالحرف ولم يملوه . كما هو في غلامى واضرب وقد . فقال لهم . : أقول ، إب واى واد ، فألحق ألفاً موصولة . قال : كذلك أراهم صنعوا بالساكن ألا تراهم قالوا : ابن واسم حيث أسكنوا الباء والسين ، وأنت لا تستطيع

أن تتكلم بساكن في أول الاسم كما لاتصل إلى اللفظ بهذه السواكن فألحقت ألفاً حتى وصلت إلى اللفظ بها فكذلك هذه الألفاظ حتى تصل إلى اللفظ بها كما ألحقت المسكن الأول في الاسم .

والكلمة العربية انصفت بالتكافؤ والانسجام بين أجزائها في الحركات والأصوات ، ومن أجل ذلك يؤتى بالهمزة التي يستعان بها على النطق بالساكن مكسورة أو مفتوحة أو مضمومة إذا كان الحرف الذي يلي الساكن مضموماً مثل استنصر واعترف فتتضم الهمزة . ليتماثل الصوت ويكون العمل فيهما على وجه واحد .

والذي أريد ملاحظته في هذا الباب هو القول بأن المرحلة السابقة لهذه العربية الفصيحة كانت تميز الابتداء بالساكن والذي يقوى هذا الافتراض عندى قولهم إن أمر الثلاثي في العربية همزة وصل والناطق المجيد لهذه البنية لا يحس بهذه الهمزة ، فلسانه ينطلق بالضاد في كلمة اضرب (الأمر) قبل أن ينطلق بشيء اسمه الوصل ، وإجادة النطق تستدعى محو هذه الألف إطلاقاً . وعلى هذا جاء نطق المغاربة في أيامنا هذه فهم ينطلقون بالساكن في أفعال الأمر الثلاثية ، ومن أجل ذلك فإن ماندعوه بالنبر « Accent Tonique » يكون عندهم واقفاً في نهاية الكلمة .

ومثل هذا ننطق بالساكن إذا بدأنا بالأسماء التي نصوا على أن ألفتها للوصل كما في (ابن) و (اسم) فأنت تنطق بالساكن أو بشيء فيه سكون أو بنصف الساكن إن أسعفتنا لغة الاصطلاح . حتى يتم النطق بالكلمة على الوجه اللازم .

ووجود هذه الناحية ربما كان دليلاً على الابتداء بالساكن في العربية التي سبقت هذه المرحلة الفصيحة كما يقوى هذا القول استساعة الانطلاق بالساكن في سائر

اللغات السامية الأخرى بل ربما كانت الآرامية السريانية أشد قبولاً للبدء بالسكان من التحرك ، ومن أجل ذلك صارت هذه الناحية من ميزات الظاهرة .

٢ — التقاء الساكنين :

اختصت العربية من بين سائر اللغات السامية بهذه الناحية مراعاة منها للتكافؤ والانسجام في بنية الكلمة الواحدة وفي اتصال الكلمة بغيرها حتى ينجى الكلام العربي على هيئة مخصوصة موسيقية منسجمة .

على أن الباحث في غرائب العربية وفرائدها واجد في هذا الباب شيئاً وهو قليل جداً وقلته ذات دلالة خاصة فهو يشير إلى وجود التقاء الساكنين في تلك المرحلة اللغوية السابقة للمرحلة المعروفة ، وإلا فكيف نعلل وجود الساكنين في كلمتي (حمارة) و (صبارة) في قولهم . حمارة القيظ وصبارة القر ، ومثل هذا ما حدث في التقاء الساكنين في أسماء الفاعلين في الأفعال الثلاثية المضعفة مثل (حال) و (ماد) ؛ ذلك أن العربية توجب الإدغام في هذه الألفاظ ووجوب الإدغام يستدعي التقاء الساكنين ، والذي أراه أن في العرب من كان يميز فك الإدغام مخالفة للقياس المعروف ومطابقة منه لسنن العربية التي لا تحتمل التقاء الساكنين فكان يفك الإدغام في هذه الألفاظ وعلى هذا جاء قول المتبني : —

فلا يبرم الأمر الذي هو حائل إلى آخر البيت . .

وليس معقولا أن يحمل هذا على تخطيط المتبني ، فقد كان عالماً بشوارد اللغة والنحو فلا يجوز أن يكون جاهلاً بهذا ثم إنه لم يلجأ إلى ضرورة شعرية فقد كان في طوقه أن يتحاشى هذه الضرورة — إن صحت — باستعمال مرادفة لكلمة حال (حال) وذلك كثير ميسور أما الذي سوغ له استعمال الكلمة — احتمال فك هذا الإدغام في لغة من لغات الناس في ذلك الزمان هروبا من التقاء الساكنين كما هي الحال في أيامنا هذه في لغتنا العامية الدارجة فهناك من يلتزم إدغام هذه الألفاظ محتملا

التقاء الساكنين كما أن هناك من يلجأ إلى فك الإدغام هروباً وتخلصاً فيقول مثلاً (دازز) و (شادد) بدلاً من (داز) و (شاد) .

وقد هربت العربية من احتمال التقاء الساكنين في بنية الكلمة الواحدة الثلاثية الساكنة العين . إذ يلتقي فيها ساكنان العين واللام لأن أواخر الكلمة سواكن إذا لم تدخل هذه الكلمات في جمل أو إذا وقف عليها كما تقول (نخذ) بإسكان الخاء في (نخذ) وفي (الاقتضاب) جواز تخفيف عين (فعل) مضموم العين ومكسورها .

وفي المحتسب لابن جني : وما سمع فيه (فعل) بضم الفاء وإسكان العين إلا وسمعت فيه (فعل) بضم الفاء والعين . ومنه إسكانهم نحو (رسل) و (عجز) و (عضد) و (كتف) و (كبد) .

والحكمة في هذا التحريك هو الهروب من التقاء الساكنين كما بيناه . على أنباء نجد مثل هذا في لهجتنا العامية البغدادية في الأسماء الثلاثية التي تضطر إلى تحريك عينها بحركة مناسبة هروباً من التقاء الساكنين فنقول (فعل) بكسر العين مجازة لكسرة الفاء ولالتقاء الساكنين كما في (اسم) و (عجل) ونقول (عمر) الميم و (قبر) بضم الباء وإن تجد من يقول (سعر) و (شعر) بإسكان العين فيها . والسبب في ذلك ما بيناه لأننا لو رجعنا إلى نطق هذه الكلمات في لهجة عامية أخرى ولتكن اللهجة المصرية لوجدنا المصريين ينطقون هذه جميعاً بإسكان العين احتمالاً منهم لالتقاء الساكنين

وإذا أردنا استقراء النصوص الفصيحة وجدنا هذه الناحية في الأفعال المضعفة الزيدة بثلاثة أحرف كما في أوزان (أفعال) مثل (أحمار) وهذه الأفعال قليلة وقلتها تشير إلى أنها من بقايا الرحلة السابقة اللغوية التي أشرنا إليها . فهذه الصفة قديمة وهي دالة على المبالغة ، وهي ثقيلة لوجود الساكنين ، ثم تخففت في الاستعمال فخفضت لسانة العربية الفصيحة في الرحلة اللاحقة فاستحالت إلى (أحمر) وهي في المعنى نفسه

والمبالغة حاصلة فيها . وليس كما علل الصرفيون بأن المبالغة في الأولى أكثر . ومن هذا قولهم : غار الطائر فرخة ، بتشديد الراء في (غار) ففي هذا الفعل قد التقى الساكنان ومنه أيضاً (غارت الناقة في الحلب) وما قلناه في (احمار) و (احمر) يصدق على قولهم (غار) فقد تخفف هذا الفعل حتى لجأ الاستعمال إلى (غر) الثلاثي المضعف وفي ذلك كفاية وغناء .

٣ — إبدال أحد التضعيفين بالياء :

وما زلنا نحمل على الخطأ أو على طريقة العوام في لهجتهم الدارجة قولهم (استمررت) بإسناد الفعل المضعف إلى تاء الفاعل وفي العربية الفصيحة شئ من هذا وهو قليل . ولعل قلته راجعة إلى أنه من بقايا اللغوية القديمة التي تشير إلى مرحلة لغوية قديمة قد سبقت الفصح المعروف والممثل في لغة التنزيل والحديث . وإلى هذا ذهب المبرد في شرح كلمة (التقضى) في قول العجاج :

تقضى البازى إذا البازى كسر

والتقضى هو الإلتصاف والعرب تبدل الياء في أحد التضعيفين فيقولون (تظنيت) والأصل (تظننت) لأنه من الظن . ومنه (قصصت) و (قصيت) . والمستقرىء للنصوص اللغوية واجد من هذا الموضوع شيئاً يصلح أن يكون مادة مفيدة للبحث

٤ — اسم المفعول :

في اسم المفعول من الفعل الثلاثي الأجوف فذلك لغة فنقول : (مبيع) من (باع) ومصون من (صان) وهذه الفذلكة داخلة في باب الإعلال وليس بنا حاجة لشرحه في هذا المقام . وإنما نريد أن نقول : إن لهجاتنا الحديثة الدارجة لا تلجأ إلى هذا الإعلال . بل تصوغه على وزن مفعول فنقول (مبيوع) وهذه الصفة واردة في الفصح من العربية ولكنها مسموعة وسماعها يخالف القياس المشهور وهو دليل على أنه من بقايا اللغوية القديمة التي تتسم بها المرحلة السابقة التي أشرنا إليها .

وقد جاء من هذا الباب (مصوون) و (مقوود) و (معوود) . وفي القاموس أسمعده فهو مسعود . وأكدة فهو مكمود . وألقح الفحل الناقة فهي (ملقوحة) . وهذه الأمثلة تشير إلى أن وزن (مفعول) هو أصل في صيغة اسم المفعول ولا يختص بهذه الصيغة الفعل الثلاثي . ولعل في هذه الأمثلة دليلا على قدم هذه الصيغة في مراحل اللغة الأولى .

٥ — مطل الحركات :

أفرد ابن جني في كتاب الخصائص فصلا لموضوع مطل الحركات والمراد بمطل الحركات مد الحركات ، وقد استفادت العربية من هذا المد كثيرا في تنويع الصيغ وتكثير المعاني . فقد مدت ضمة العين في المضارع كما في (ينبع) فصار (ينبوع) ومثل هذا (يحمور) و (يخضور) و (يعفور) وقد انتقلت هذه الصيغ في العربية إلى الاسمية وهو كثير في اللغة . على أنه لا تخفى الصلة في هذه الألفاظ بين الفعلية والاسمية ، فعلاقة اللون واضحة وربما هي التي سوغت هذا الانتقال اللغوي . ونستطيع أن نقترح أن يكون أصل الفعل المضارع في مرحلة لغوية قديمة على هذا الشكل . ومعلوم أن بين الاسم والفعل المضارع شبه ولهذا سمي بالمضارع لأنه مضارع للاسم العرب . والتسمية بالأفعال المضارعة قديمة جداً فقد عرف (يعوق) من آلهة اليمن

ومما يتعلق بباب مطل الحركات كلمة (اليعقيد) وهو العسل يعقد بالنار حتى يحتر . وقيل طعام يعقد بالعسل . ومنه اليعضيد وهي بقلة زهرها أشد صفرة من الورد وقيل غير هذا .

ونستطيع أن نرد فاعول إلى مطل الحركات فالعمود لا بد أن كان (عامود) ثم خفف إلى (عمود) وليس لنا أن نحمل العامود على الكلام العامي فشله الشاقول والناعور وكثير من أسماء الأدوات .

وفي كتب اللغة نصوص تشهد على هذا الباب فقد أنشد أبو علي الفارسي لابن

هرمة يرثى ابنه : من قوله :

فأنت من الغوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنزاع

وأراد بمنزع .

وهذه المواد تعطينا بعض الشيء عن خصائص العربية القديمة قبل أن تتوحد وتنسجم في قالبها المعروف القصيح .

٦ — صيغ الفعل المجرد :

المعروف عند الصرفيين أنهم صنفوا الأفعال الثلاثية في ستة أوزان ورتبوها حسب ورودها في الكثرة غير أن الناظر في النصوص وفي كتب اللغة يجد فيها شيئاً يؤدي به إلى الاعتقاد أن هذه الأفعال لم تكن مستقرة ولا سيما في القرن الأول الهجري وأن فعلاً من الأفعال مثلاً قد يكون على الوزن الأول (باب نصر) عند قوم من الناس . ولكن من (باب ضرب) عند آخرين . وبقي هذا التردد في اعتبار وزن الفعل طوال القرن الأول والقرن الثاني . حتى إذا تم تثبيت قواعد اللغة . استقرت هذه الأفعال على حال ثابتة ولا سيما الأفعال التي يكثر تداولها في التخاطب والكتابه على الأقل .

ولقد ورد شيء من هذا الذي نذهب إليه على السنة علماء اللغة . فقد قال أبو زيد الأنصاري : إذا جاوزت المشاهير من الأفعال فأنت بالخيار بين الضم والكسر وقال القراء : الأصل في المضارع الكسر .

وهذا التردد في معرفه الأوزان وضبطها وتشبيها قد تم في لغة القرآن بالرغم من أن كتب اللغة ظلت تذكر اللغات المختلفة في وزن الأفعال التي اختلفوا فيها . فقد قالوا في (فسد) هو من باب نصر عند قوم ، وهو من باب (كرم) على رأى آخرين . وهذه الحال تدل على أن الأفعال الثلاثية في المرحلة السابقة لعصر القرآن لم تكن مستقرة على حال وكان الحكم فيها للقائلين يؤلفون بين حركاتها كما يشاءون

٧ - المجموع :

المجموع من الموارد اللغوية القديمة ، وقد احتفظت بها اللغة العربية . وربما دلت كثرة المجموع في العربية على اختلاف اللهجات ولا سيما جموع التكسير . ويعنى هذا أننا نجمع كلمة واحدة على عدة صيغ من صيغ الجمع (Chemo) فالشيخ يجمع على (شيخه) ويجمع على (شيوخ) بضم الشين وعلى (شيوخ) بكسر الشين وعلى (أشياخ) ومثل هذا كلمة (الحب) بكسر الحاء فتجمع على (أحباب) و (حبان) بكسر الحاء وتشديد الباء و (حبوب) و (حبية) بكسر الحاء و (حب) بضم الحاء . ومثل هذا كثير في اللغة العربية وهو دليل على أن الجمع لم يستقر على حال وأنه يشير إلى المرحلة التي كانت فيها اللغة غير مستقرة على صيغ ثابتة من أجل هذا حدثت هذه الكثرة في الصيغ وسبب هذه الكثرة راجع إلى اختلاف الأقسام واختلاف الجهات .

وفي جمع المذكر السالم ألفاظ سماها النحاة الأقدمون بالملحقات وذلك لعدم انطباق الشروط التي اتفقوا عليها في جمع الاسم هذا الجمع المعروف وبقاء هذه الألفاظ التي ألحقت بجمع المذكر السالم يشير إلى مرحلة لغوية قديمة ، تلك المرحلة التي لم تنقيد فيها اللغة بضوابط واضحة وهذه الألفاظ هي ألفاظ العقود مثل (عشرون) وأخواتها وأرضون ووابلون وأهلون وعالمون ومن هذا الباب أصول (ثنائية) (Biliteure) مثل (بنون) و (مثنون) و (قلون) و (سنون) و (عضون) كما في قوله تعالى : « الذين جاءوا القرآن عضين » أى فرقوه أعضاء ومثله (عزين) جمع عزة أى فرقة ومنه ثبة قد جمعت على (ثبون) كما في قول عمرو بن كلثوم .

فأما يوم خشيتنا عليهم فتصبح خيلنا عقباً ثبيناً

ويتبين من هذا أن هذه الموارد اللغوية المتخلفة عن مرحلة قديمة بقيت في العربية الممثلة في لغة القرآن ولغة النصوص الجاهلية التي يطمان إلى صحتها .

٨ — الأبنية الغريبة :

وأقصد بالأبنية الغريبة تلك الصيغ التي وجدت في النصوص اللغوية القديمة والتي لم يكتب لها الشيوخ ثقلها وطول بنائها والتي عدت من باب الغريب مرة ومن الوحشى المهجورة مرة أخرى . ولا بد من ضرب الأمثال على هذه الأبنية لنخلص إلى نتيجة من النتائج ، جاء في النوادر لأبي زيد المبرتنى هو الفضبان الذي لا ينظر إلى أحد ، وكان على أبي زيد أن يأتي بالشاهد لنسكون على بينة .

وهذه الناحية من العيوب في المعجم العربي القديم لأنهم لا يهتمون باستقراء الاستعمال لتأييد المعنى الذي ينصون عليه . وربما كان هذا حجة لمن يقولون بالاصطناع والاختراع في المعاني ، وإن اللغوى يلجأ إلى هذا الباب ليظهر أنه عارف باللغة وفرائدها . ومثل هذا كثير في كتب اللغة المطولة . ولا بد من دليل آخر على اصطناع هذه الألفاظ وهو أنهم يذكرون للفظ الواحد معاني عدة لا علاقة بينها فقولهم ، محبطين ، وهو العظيم البطن ، والممتلىء غيظاً والمحرنجم هو الذي يريد الأمر ثم يكذب فيرجع ، في حين أن (احرنجم) عندهم بمعنى اجتمع ووجه العلاقة بين الاسم والفعل غير موجود إطلاقاً .

وقد أفرد ابن دريد في الجمهرة في الجزء الثالث باباً للأوزان الغريبة كالفعمل مثل المهرجل للخفيف السريع ، والشمر دل للطويل والدهمس للجريء الماضي على الليل ، والجلنفع للصلب الشديد والملك دل للصلب الشديد والعديس للشديد الخلق .

وفي وزن الفعلول الشغوم للناقة القوية والطحلول والصعلوك للفقير . والقرضوب للخص واللعموظ للشرة والنهم . والصحمور للعظيم البطن . وفي الفعلى ، الهيدى والخيزلى .

ومن الفعلول . الناقة العيسجور النشيطة ، والخيقور للذى لا يدوم على العهد .

ومن الفعوال ، القرواح للنخلة الملساء .

ومن الفيعل ، الميثوم الناقة الغليظة . وسيهوج وسيهوك اسمان توصف بهما الريح .

ومن الفيعل ، الهيزام وهو الصارم .

وهذه الأبنية الغريبة كثيرة اجتزأنا بهذا القدر منها وزيد أن نقول فيها شيئاً هو أن الغالب فيها ذو دلالة مادية فلا ينصرف إلى الناحية المجازية وأن المعاني التي ترد في هذه الأبنية متعلقة بالأوصاف الحسية كالطول والقصر والضخامة والعظم والدقة وشدة الخلق والسرعة والخفة وغير هذا مما هو داخل في هذا الخصوص . والخلق والاصطناع واضح في هذه الأبنية فالألفاظ التي تعنى شدة الخلق فيها كثيرة ومختلفة وهي تنصرف للانسان تارة وللحيوان تارة أخرى .

ولكن هذه الأبنية على العموم قديمة وإن الألفاظ التي وضعت لهذه المعاني في هذه الصيغ تقليداً وحكاية لما كانت عليه الأبنية في اللغة القديمة في مراحلها الأولى .

وأنا إذ أنهى هذه المقالة أود أن أقول إن على كان استقراء النواحي اللغوية التي يمكن أن تكون مادة مهمة في مراحل اللغة القديمة . أما إعطاء صورة واضحة للعالم لهذه اللغة في تلك المراحل فليس سهلاً ، وذلك أننا مفتقرون للنصوص الثابتة المدونة كما في سائر اللغات الحية .

الفصل السابع

من أوهام النحويين الأقدمين

كثر الكلام في عصرنا هذا على النحو القديم للعربية ومنهج النحاة وما يمكن أن يوجه إليه من مآخذ . ومهما قيل في هذا فإن جهود الأقدمين من النحاة شيء عظيم فقد استطاعوا أن ينتقلوا بهذا العلم من ضوابط يسيرة يقيم بها العربون أنفسهم بعد أن ضاعت السليقة العربية إلى علم دقيق معقد متطور يدرس لذاته فلم يقتصر على كونه أداة تصون العربية من اللحن والزلل . بل تجاوزت ذلك إلى أشياء أخرى . صار النحو علماً من العلوم الإسلامية الجديدة يقبل عليها الدارسون وفي أنفسهم هوى إلى هذه المادة فقد ذكر الذين ترجوا لأبي إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج من أكابر أهل العربية أنه كان في شبابه يخرط الزجاج فاشتبهى النحو فلزم المبرد يأخذه عنه ^(١) .

من الثابت أن علوم العربية نشأت بسبب العناية بلغة القرآن والدراسات القرآنية وإذا كان النحاة المتقدمون قد فكروا في وضع شيء يقيم العربية ويعصمها من اللحن ولا سيما بعد أن عرض النحو للغة القرآن ، فهم سرعان ما عزفوا عن لغة القرآن ولم يفتدوا منها الفائدة اللازمة . ولم ينظر النحاة إلى لغة القرآن نظرة تاريخية فيقيموا على هذه اللغة ضوابطهم وحدودهم .

قلت لم يفد النحاة من لغة القرآن الفائدة التاريخية اللازمة ، وذلك أن لغة القرآن صورة للعربية في ألوانها القبائلية والإقليمية . وهذا يؤدي بنا إلى أن لغة القرآن

(١) القفطي ، أنباه الرواة ١ / ١٥٩ .

قد تعرضت لقراءات عدة ، ومنشأ القراءات يرجع إلى أنه قد سمع هذه النصوص القرآنية من النبي (ص) جماعة عدة وحدث أن كان هناك اختلاف في سماعهم لهذه النصوص .

ولا أريد أن أعرض للقراءات وأصلها ونشأتها ودلالاتها وإن كنت على ثقة أن هذا الموضوع مازال مفتقراً للدرس .

لقد شغل الباحثون في القراءات أنفسهم بالحديث الشريف : « أزل القرآن على سبعة أحرف فاقراءوا ما تيسر منه » ، وقد روى هذا الحديث بصور مختلفة في «الصحاح» المشهورة من كتب الحديث قد انطلق أهل القراءات من هذا الحديث وقالوا فيه أقوالاً كثيرة في سبب وروده وفي معنى الأحرف . قال ابن الجزري :

ولا زلت استشكل هذا الحديث وأفكر ، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة ، حتى فتح الله علي بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله ، وذلك أني تتبعت القراءات صحيحها وشاذها ، وضعيفها ومنكرها ، فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها ، وذلك :

(١) إما باختلاف في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو (قرح) بضم القاف وفتحها (١٤٠ آل عمران) .

(٢) أو في الحركات بتغير في المعنى فقط ، نحو واذا كر بعد أمة (٤٥ يوسف)

(٣) أو في الحروف بتغير في المعنى ، لا الصورة نحو « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » (٣٠ يونس) .

(٤) أو عكس ذلك ؛ أي في الصورة لا المعنى ، نحو « وزادكم في الخلق بسطة » (٦٩ الأعراف) .

(٥) وإما بتغيرهما ، أى الصورة والمعنى ، نحو « فاسمعوا إلى ذكر الله » (٩ الجمعة) .

(٦) الاختلاف بالتقديم والتأخير : نحو « وجاءت سكرة الموت بالحق » قرأ أبو بكر وابن مسعود رضى الله عنهما « وجاءت سكرة الحق بالموت » (١٩ ق) .

(٧) الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب وقرىء (وأوصى بها) ، (١٣١ البقرة) (٢) .

ولم يقف اختلاف القراءات عند هذه الحدود والضوابط التى حصرها علماء القراءات بل اختلفت القراءات حتى صارت مادة تظهر ملامح وألوانا من اختلاف للجهات . من المعلوم أن أصحاب الأمر كانوا فى بداية عصر القرآن حريصين على ألا تبلغ وجوه الاختلاف مبلغا كبيرا حرصاً على كتاب الله وخشية من أن يبلغ الاختلاف فى وجوه القراءات مبلغاً يضيع فيه شئ من لغة التنزيل ، ولذلك منعوا ألا يقرأ كتاب الله فى غير ما اتفق عليه جماعة الثقات من القراء ، فقد أثار عن عمر بن الخطاب أنه سمع من يقرأ (عتى حين . بدلا من «حتى حين») حين فنهاه وزجره وهى قراءة عبد الله بن مسعود ولذلك طلب من ابن مسعود ألا يقرء الناس بلغة هذيل (٣)

غير أن هذا الحرص الشديد لم يمنع المسلمين فى مختلف جهاتهم وأقاليمهم من القراءة بلغاتهم المحلية التى درجوا عليها . ومن هنا نشأ فى علم القراءات ما عرف بالقراءات الشاذة .

والشواذ فى القراءات هى ما خلا تلك التى انتشرت بواسطة القارىء المشهور ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٣ هـ ، كقراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب واختيار

(١) ابن الجزري ، النشر ١ / ٢٦ عن كتاب (القراءات واللهجات لعبد الوهاب حمودة ١٤ ، ١٥ ، ١٦) .

(٢) الزخشري ، الكشاف (طبعة الاستقامة ١٩٤٦) ٣ / ٤٦٠ .

الحسن البصرى وأمثالهم . وقد ألف غير واحد من الأقدمين في موضوع الشواذ كالمكبرى في كتابه إعراب القراءات الشاذة ، والأهوازي وابن عطية والمهدى ولم نعرف مؤلفات هؤلاء ولم يصل إلينا منها شيء ، كما اندثر كتاب « اللوامع » وكتاب « المحتوى » للداني .

ومن أمثال هذه الشواذ التي لا تدل إلا على اللهجات الدارجة أو اللغات المحلية الإقليمية ما جاء من شواذ سورة الفاتحة :

قرأ أبو السوار الغنوي « هياك » بالهاء المكسورة في الآية الخامسة « إياك نعبد » ، وقد قرأ عمرو بن فايد « إياك » بالتخفيف ، وقرأ جناح بن حبيش « نستعين » بكسر النون .

وجاء في شواذ البقرة : قراءة يحيى بن وثاب : « ولا تقربا هذه الشيرة » بكسر الشين وبالياء حكاه أبو زيد . وقراءة « الشيرة » بإبدال الياء من الجيم إثبات للهجة من اللهجات التي تلزم بالياء في كل كلمة كان في بنائها الجيم ، وهذا النوع من الإبدال مازال موجوداً في لهجات القرويين في جنوبي العراق .

وقرأ مسلمة بن محارب « بمولهن » من قوله تعالى : « وبمولتهن أحق بردهن » يجزم التاء ، ومعلوم أن البعولة جمع « بعل » كما أن السهولة جمع « سهل » واختلاف القوم في أبنية الجموع يرجع إلى اللهجات الخاصة من غير شك .

ونجزي بهذا القدر من وجوه الخلاف التي تمكس لونا من ألوان اللهجات الخاصة ، وهذا يعني من الناحية التاريخية أن العربية في عصر القرآن ما زالت مفتقرة إلى التوحيد . ثم إن ما كان من جمع القرآن وقصره على المصحف العثماني سير إلى هذا التوحيد الذي أخذ يتقرر شيئاً فشيئاً وبذلك بدأت تزول أشياء كثيرة مما يدخل في موضوع « اللهجات » ولم يكن النحاة الأقدمون مدرकिन هذه الحقائق التاريخية الإدراك الكافي بالرغم من كونهم فرعوا إلى النحو حفاظاً على لغة التنزيل

العزیز . غیر أنهم سرعان ما ابتعدوا عن غایتهم هذه وعقدوا نحوم معلمین مفسرین مبتعدین کل البعد عن الهدف التعلیمی وإدراك الظروف التاريخية لهذه العربية . صار النحو علماً قائماً بذاته ، أقبل علیه الدارسون استجابة لهوى فی نفوسهم کما يحدث للكثیر من أصحاب الاختصاصات الأخرى .

ومن أجل ذلك قل اهتمام النحویین بالقرآن والاعتماد علیه فی التماس الشواهد التي كان ينبغي أن تؤخذ قواعد العربية . ولم یهتم النحاة بوجود القراءات واعتمادها اعتماداً كافياً ، بل ربما ذهبوا إلى القول بخطأ بعض وجوه القراءات . وقد بلغ بهم الأمر إلى أنهم حملوا على الخطأ شيئاً ورد فی قراءة الثقات من القراء مثل نافع قارئ أهل المدينة وابن عامر قارئ أهل الشام وكان على النحاة أن یفیدوا من هذه الوجوه فی القراءات لیشارکوا فی وضع شيء من تاریخ العربية فی هذه الفترة التي ندعوها بعصر القرآن .

ابتعد النحویون عن هذا النهج وتنكبوا السبیل وامتلأت مصنفاتهم بالضعیف المصنوع من الشواهد النثرية والشعرية ، وربما وجدت فی كل باب من الأبواب شيئاً مما لم یجر على لسان فصیح من الناس وأن لون الاصطناع ظاهر فيه فانت تجد مثلاً قولهم « زید هند ضاربها هو » و « زیداً أنا ضارب غلام أبيه » و « جاء القوم إلا حماراً » . وأنت واقع على مثل هذه الألاعيب فی كل صفحة من صفحات تلك المطولات .

ولعل النحویین كانوا یستريحون إلى الآیات الضعيفة فی بنائها التي لم یفب عنهم فی کثیر من الأحيان ما تحمله من مظاهر الضعف والاصطناع والكذب فقد ذكروا فی باب « الثنی » من شواهدهم البيت الآتی :

أعرف منها الجید والعینانا ومنخرین ...

فقالوا فی فتح نون الثنی إنه لغة وربما حملوه على الشذوذ ، كما أن فی البيت

شاهداً آخر هو التزام المثني بالآلف والنون في الرفع والنصب والجر ، ثم عقبوا على هذا الشاهد بقولهم : وقيل : إنه مصنوع . وأنا لا أشك في أن هذا الشاهد من جملة الشواهد الكثيرة المصنوعة ، إذ لو كان القائل من الجارين على فتح نون المثني والزام الألف فيه لم يكن له أن يأتي ببناء المثني مكسور النون وبالياء حين جاء به معطوفاً على ما قبله كما في قوله « ومنخرين » ، وعلى هذا يتبين أن هذا الشاهد مما صنعه ليقفوا عليه هذه الوقفة الطويلة ويفيدوا منه بالرغم من شكهم في صدق هذا الشاهد .

ومن هذه الألاعيب التي شغل بها النحويون أنفسهم وأطالوا فيها القول وربما شغفوا بها وعزفوا عن الكلام الفصيح المليح ما أنت واجده في كل باب من أبوابهم ، وأنا أثبت هنا شيئاً مما علق في ذاكرتي من هذه الشواهد .

جاء من شواهد في « أفعل التفضيل » مثل البيت الآتي :

ولست بالأكثر منهم حصي وإيما العزة للكائر

في هذا الشاهد ورد « الأكثر » ببناء التفضيل بالآلف واللام ، وفي هذه الحالة جرت العربية على ألا يؤتى بالفضل عليه مجروراً بـ « من » . وفي هذه الحالة كان على النحاة أن يقولوا : إن البيت خرج عن الاستعمال الكثير^(١) ، وعلى هذا فهو شيء جديد طارئ على استعمال أفعل التفضيل ، ومن غير شك أن الشاعر قد تجاوز طريقة الاستعمال الغالب لضرورة شعرية والشاعر مضطر في أحيان كثيرة كما نعلم .

لم يلجأ النحاة إلى القول بالضرورة فيقطعوا يسر في هذه المسألة اللغوية ،

(١) يبدو أن هذه الوجه الذي أنكره النحاة في استعمال (أفعل التفضيل) كان لونا من ألوان التطور في الاستعمار . ويدلنا على هذا شيوعه في لغتنا الحديثة فنحن نقول كثيراً : « والأنكى من ذلك » و« الأمر من ذلك » مبتعدين عن الاستعمال القديم الفصيح .

ولكنهم لجأوا إلى أقوالهم القائمة على شيء يشبه الألاعيب فقالوا في هذا البيت ليخرجوه تخريباً على طريقته : إن الجار والمجرور « منهم » غير متعلق بـ « الأكثر » الموجود في البيت ، بل هو متعلق بـ « أكثر » آخر غير محلي بالألف واللام حذف استغناء عنه بـ « الأكثر » الموجود . وعلى هذا يكون تقديرهم كالآتي :

ولست بالأكثر أكثر منهم حصي . .

وإذا كنا نفهم النحو في عصرنا هذا أداة يوصف بها الكلام ، ووصف الكلام وبيان أجزائه وعلاقة كل جزء بالآخر هو النحو ، فليس لنا في هذه الحالة أن نقبل مقالة النحويين الأقدمين في هذه المسألة الموسومة بالتكلف الواضح .

وكأنهم شعروا بضعف في أقوالهم في هذه المسألة اللغوية فعدلوا إلى الأخذ بوجه آخر فقالوا : إن الألف واللام زائدة في البيت .

كل ذلك ليجعلوا البيت سائراً في الحدود التي رسموها ولم يفتنوا إلى أن الاستعمال اللغوي غير ذلك وأن التغير يمرض لبناء الكلام كما يمرض لبناء الكلمة .

أقول : اشتد ولوع النحويين بهذه الأقوال وهذه التعليقات ، و الأخذ بما ثبت لهم أنه مصنوع . واعتمدوا لغة الشعر على اعتمادها في كثير من الأحوال عن أن تكون مثلاً للمأثور التداول من الكلام ، ولم يعتمدوا على لغة القرآن الفصيحة المشرقة الاعتماد الكافي .

قلت : لقد حمل النحويون كثيراً من وجوه القراءات على الخطأ .

قال أبو شامة في شرح الشاطبية^(١) .

(١) أبو شامة ، إبراز المعاني ٢٨٣ .

« قرأ حمزة « والأرحام » بالجر من قوله تعالى « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » .

قال الزجاج : القراءة الجيدة نصب « الأرحام » فأما الخفض فخطأ في العربية ، فان إجماع النحويين أنه يقبح أن يعطف باسم ظاهر على اسم مضمَر في حال الخفض إلا بإظهار الخافض « . ومن المجيب قول الزجاج هذا ، وذلك لأنه ممن عني بالقراءات ووجوه الاختلاف فيها ، ولكن غلبة النحو عليه دفعته إلى مشايمة أصحابه البصريين .

وقد رد المفسرون وأصحاب القراءات على النحويين وأنكروا عليهم القول بخطأ ما ثبت بالرواية من وجوه القراءات .

قال الرازي في تفسيره : « إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول ، فجواز إثباتها بالقرآن أولى . وكثيراً ما نرى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن ، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد التعجب منهم ، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت على وفقها دليلاً على صحتها فلائن يجعلوا ورود القرآن دليلاً على صحتها كان أولى » .

وقد جاء في شرح الفصل لابن يعيش في الكلام على هذه الآية قوله : « وأما قوله في « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » بجر الأرحام في قراءة حمزه ، فإن أكثر النحويين قد ضعف هذه القراءة نظراً إلى العطف على المضمَر المحفوض . وقد رد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد هذه القراءة ، وقال : لا تحمل القراءة بها . وهذا القول غير مرضي من أبي العباس لأنه قد رواها إمام ثقة ، ولا سبيل إلى رد نقل الثقة ، ومع أنه قد قرأتها جماعة من غير السبعة ، كابن مسعود ، وابن عباس ، والقاسم ، وإبراهيم النخعي ، والأعمش ، والحسن البصري ، وقتاده ، ومجاهد ، وإذا صحت الرواية لم يكن سبيل إلى ردها » ^(١)

وقال السيوطي في « الاقتراح » : « وأما القرآن فشكل ما ورد أنه قرئ به ، جاز الاحتجاج به في العربية سواء أ كان متواتراً ، أم آحاداً ، أم شاذاً . وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية اذا لم تخالف قياساً معروفاً ، بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه ، كما يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته للقياس في ذلك الوارد بعينه ، ولا يقاس عليه ، وما ذكرته عن الاحتجاج بالقراءة الشاذة ، لا أعلم فيه خلافاً بين النحاة » (١) .

وقد انساق الزمخشري في تيار النحويين فحمل كثيراً من وجوه الخلاف في القراءات على الخطأ ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » .

قال الزمخشري : « وأما قراءة ابن عامر « قتل أولادهم شركائهم » برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على اضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ، فشيء لو كان في مكان الضرورات — وهو الشعر — لكان سمجاً مردوداً فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟ والذي حمّله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف : « شركائهم » مكتوباً بالياء (٢) .

وقول الزمخشري هذا يعني أنه لم يشأ أن يحيد عن مقالة النحويين الأقدمين . أما قوله : « فشيء لو كان في مكان الضرورات لكان سمجاً مردوداً » فغير صحيح ذلك أن النحويين قبلوا من فاسد التركيب وضعيف البناء والمصنوع من الآيات ما تكون بالنسبة إليه ضرورات الشعر شيئاً هيناً .

وقد كان الكوفيون من النحويين أصوب منهجاً باعتمادهم القراءات مادة بنوا عليها نحوهم ، فقد احتجوا بقراءة ابن عامر أحد القراء السبعة في هذه الآية بنصب

(١) السيوطي ، الاقتراح ١٧ .

(٢) الزمخشري ، الكشف ٢ / ٤١ .

« أولادهم » وجر « شركائهم ». أما البصريون فقد خالفوهم في المسألة وعدت من مسائل الخلاف التي درجها أبو البركات بن الأنباري في « الإنصاف » فقالوا : « إن هذه القراءة لا يسوغ لكم الاحتجاج بها ، لأن الإجماع واقع على امتناع الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالفعل في غير ضرورة الشعر ، والقرآن ليس فيه ضرورة ، وإذا وقع الإجماع على امتناع الفصل بينهما في حال الاختيار سقط الاحتجاج بها على حال الاضطرار » (١) .

وقال أبو حيان في تفسيره :

وقرأ ابن عامر كذلك ففصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالفعل ، وهي مسألة مختلف في جوازها ، فجمهور البصريين بمنعونها ، متقدموهم ومتأخروهم ، ولا يجيزون ذلك إلا في ضرورة الشعر . وبعض النحويين أجازها وهو الصحيح ، لوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربي الصريح المحض ابن عامر الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب .

ولا التفات إلى قول ابن عطية : وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب . ولا التفات إلى قول الزنجشري . وأعجب لمعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة . وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم . ولا التفات أيضا لقول أبي علي الفارسي : هذا قبيح قليل في الاستعمال ولو عدل عنها ابن عامر كان أولى » (٢) .

ولعل أبا الفتح ابن جني قد أدرك شطط النحاة في هذه المسألة ، وابتدأهم عن الحق في عزوفهم عن الأخذ بما ثبت من القراءات الصحيحة الثابتة فقال :

(١) ابن الأنباري ، الإنصاف ١ / ٢٤٩ .

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط ٤ / ٢٢٩ .

« لا تقطع على الفصيح يسمع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ ما وجد طريق إلى تقبل ما يورده » (١) .

ولم يهتم النحاة الأقدمون باللغات الخاصة الاهتمام الكافي ، واللغات الخاصة ما ندعوه في عصرنا هذا بـ « اللهجات » ، وكان عليهم أن يفيدوا منها لتتوفر الناحية التاريخية في مجملهم اللغوي .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك » « آل عمران ٧٥ » .

قرأ الجمهور « يؤده » بكسر الهاء ووصلها بياء ، وقرأ « قالون » باختلاس الحركة « وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحزوه والأعمش بالسكون . قال أبو إسحق الزجاج : وهذا الإسكان الذي روى عن هؤلاء غلط ، لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم وإذا لم تجزم فلا أن تسكن في الوصل .

قال أبو حيان : وما ذهب إليه أبو إسحاق من أن الإسكان غلط ، ليس بشيء إذ هي قراءة السبعة وهي متواترة ، وكفى أنها منقولة عن إمام البصريين أبي عمرو ابن العلاء ، فإنه عربي صريح ، وسامع لغة ، وإمام في النحو ، ولم يكن ليذهب عنه جواز مثل هذا . وقد أجاز ذلك الفراء وهو إمام في النحو واللغة ، وحكى ذلك لبعض العرب تجزم في الوصل والقطع . وقد روى الكسائي أن لغة عقيل وكلاب أنهم يختلسون الحركة في هذه الهاء إذا كانت بعد متحرك ، وأنهم يسكنون أيضاً .

وأبو إسحاق الزجاج يقال عنه إنه لم يكن إماماً في اللغة ، ولذلك أنكر على ثعلب في كتابه الفصيح مواضع زعم أن العرب لا تقولها ، ورد الناس على أبي إسحاق في إنكاره ، ونقلوها من لغة العرب . ومن رد عليه أبو منصور الجواليقي وكان ثعلب إماماً في اللغة وإماماً في النحو على مذهب الكوفيين ^(١)

ومن الأمثلة الأخرى على ابتعادهم عن الأخذ باللغات الخاصة ما جاء في قوله تعالى : « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش » (الأعراف ١٠) .

قال أبو حيان : قرأ الجمهور « معاش » بالياء وهو القياس . وقرأ الأعرج وزيد بن علي ، والأعمش ، وخارجة عن نافع وابن عامر في رواية « معاش » بالهمز ، وليس بالقياس ، لكنهم رووه ، وهم ثقات فوجب قبوله . وقال الزجاج : جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ، ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ، ولا ينبغي التعميل على هذه القراءة .

وقال المازني : أصل هذه القراءة عن نافع ، ولم يكن يدرى ما العربية وكلام العرب الصحيح في نحو هذا .

وقال الفراء : ربما همزت العرب هذا وشبهه يتوهمون أنها فيشبهون مفعلة بفعيلة .

قال أبو حيان : فهذا نقل من القراء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشبهه وجاء به نقل القراء الثقات ^(٢)

(١) أبو حيان ، البحر المحيط ٢ / ٤٩٩ .

(٢) المصدر السابق ٤ / ٢٧١ .

هذه جملة أمثلة تظهر اشتطاط النحويين في الوصول إلى نحوهم الذي لم يكن مراعاة لأحوال العربية في العصر القراآى .

وعلى هذا فقد كان على النحاة أن يفيدوا من أوجه الخلافات فى القراءات وذلك لأنها لون من ألوان اللغات الخاصة وهو مائءعوه بـ « اللهجات » . وبهذا يكون قءتم لهم علم لغوى تاريخى متطور فى ألفاظة وءراكيبه .

الفصل الثامن

الأضداد

لابد للباحث في تاريخ العربية أن يقف وقفة طويلة على مشكلة الأضداد ليتبين حقيقتها في التاريخ اللغوي .

لقد كتب في هذه المسألة علماء اللغة الأقدمون وهم :

- ١ — أبو علي المستنير المعروف بقطرب المتوفى سنة ٢٠٦^(١) .
- ٢ — أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة ٢١٦^(٢) .
- ٣ — أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون التوزي المتوفى سنة ٢٤٠^(٣) .
- ٤ — أبو يوسف يعقوب بن اسحق السكيت المتوفى سنة ٢٤٤^(٤) .
- ٥ — أبو حاتم بن محمد السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥^(٥) .

وهؤلاء هم اللغويون السابقون الذين حرفوا بجهودهم اللغوية المهمة الأولى ثم اعتمدها من بعدهم الطبقة التي خلفتهم من علماء القرون التي تعاقبت من بعدهم . ومشكلة الأضداد من جملة ما كتبوا فيه من الموضوعات اللغوية الأولى .

(١) الزهر للسيوطي ١ / ٣٩٧ ، وقد نشره المستشرق هانز كوفلر في مجلة Islamica المجلد الخامس سنة ١٨٣١ «ص ٢٤٧ - ٢٩٣» .

(٢) الزهر ١ / ٣٩٨ . وقد طبع بتحقيق المستشرق أوغست هنتر سنة ١٩١٣ في بيروت ضمن مجموعة تشتمل على ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي وأبي حاتم السجستاني وابن السكيت .

(٣) الزهر ١ / ٣٩٧ .

(٤) وقد طبع ضمن مجموعة كتب الأضداد، انظر الحاشية (٢) .

(٥) طبع هذا الكتاب ضمن المجموعة المشار إليها .

ومن علماء القرن الرابع أبو بكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨ قد كتب في الأضداد^(١) وأشار إلى اعتماده على كتب هؤلاء المتقدمين . ومن هذه الكتب أيضا « كتاب الأضداد في كلام العرب » لأبي الطيب هبة الواحد بن علي الحلبي المتوفى سنة ٣٥١^(٢) .

وظل العلماء يؤلفون في هذا الموضوع . ففي القرن السادس ألف فيه أبو محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان المتوفى سنة ٥٦٩^(٣) . ولعل أبا الفضائل الحسن بن محمد الصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ أحد المتأخرين الذين شاركوا في هذا الموضوع وكتابه معروف^(٤) .

واختلف الرأي عند القدماء في مشكلة الأضداد فقد أنكروها جماعة وأبطلوها وذهبوا إلى أنه لا يمكن أن يدل اللفظ على الشيء وضده وقد ردوا بالتأويل ما ورد من الأضداد في كلام العرب . ومن هؤلاء أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه فقد وضع كتابا في إبطال الأضداد^(٥) . وقد تصدى جماعة للرد على هذا الرأي ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس فقد وضع في إثبات الأضداد ليرد به على مذهب ابن درستويه وأضرابه . قال في كتابه « الصاحبي » : وأنكر ناس هذا المذهب وأن العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده .

(١) الزهر ١ / ٣٩٧ ، وقد طبع الكتاب عدة مرات وقد حققه أخيراً أبو الفضل إبراهيم وطبع في الكويت سنة ١٩٦٠ .

(٢) الزهر ١ / ٣٩٧ وقد حققه الدكتور عزة حسن ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٣ .

(٣) الزهر ١ / ٣٩٧ وقد حققه الدكتور عزة حسن ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٣ .

(٤) الزهر ١ / ٣٩٧ وقد طبعه الشيخ حسن آل ياسين « النجف ١٩٥٢ » في المجموعة الأولى من نفائس المخطوطات .

(٤) الزهر للسيوطي وقد طبع في ذيل المجموعة التي أشرنا إليها في الحاشية . (٢) بتحقيق أوغست هنتر .

(٥) السيوطي ، الزهر ١ / ٣٩٦ .

وهذا ليس بشيء وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمى السيف مهنداً والفرس طرفاً هم الذين رووا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد . وقد جردنا في هذا كتاباً ذكرنا فيه ما احتجوا به وذكرنا رد ذلك وتقصه ^(١) .

ويبدو أن الشموبيين الذين يزرون بالعرب ويرمونهم بكل نقيصة هم الذين سلكوا هذا الطريق ليثبتوا أن لغة العرب قد خلت من الحكمة وافترقت إلى الدقة والبلاغة في إطلاق الألفاظ وتحديد المعاني وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم ابن الأنباري في (أضداده) «أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب» ^(٢) .

وكأن ابن الأنباري أراد أن يثبت حقيقة الأضداد والوجوه التي تنصرف إليها ليجيب عن الحجج التي أبداه «أهل البدع والزيغ» فذكر :

إن كلام العرب يصحح بعضه بعضاً ويرتبط أوله بآخره ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لأنها يتقدمها ويأتي بمدّها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد فمن ذلك قول الشاعر :

كل شيء ما خلا الموت جليل والفتي يسمى ويلهيه الأمل

فدل ما تقدم قبل «جليل» وتأخر بعده على أن معناه : كل شيء ما خلا الموت يسير ولا يتوهم ذو عقل وتميز أن «الجليل ها هنا معناه «عظيم» .

وكلام ابن الأنباري هذا يشير ضمناً أن اللفظة لا يمكن أن تدل على الشيء وضده في الوقت نفسه . أما خصوصية التضاد فهي مستفادة من خارج اللفظة وأعني

(١) ابن فارس، الصحاحي في فقه اللغة ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) ابن الأنباري، الأضداد «الكوت ١٩٦٠» ص ١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١ .

بهذا « الخارج » أن في الكلام من القرائن والمجوزات ما أدى إلى هذا التوسع في المعنى .

ومعنى هذا أن فكرة التضاد تكون نتيجة التطور في الاستعمال ونتيجة الجديد في الدلالة ومن أجل هذا فدراسة الأضداد تؤلف موضوعاً لغوياً تاريخياً من حيث علم الدلالة التاريخية *Sémantique historique* وبهذا التفسير يمكن أن نرد كثيراً مما اعتبر من الأضداد إلى هذه الحقيقة في التطور والاستعمال . ألا ترى أن قولهم : « رغب في » و « رغب عن » يشتمل على مطلق الرغبة في كلا الاستعمالين أما خصوصية التضاد فهي حاصلة في حرفي الجر (في) و (عن) في أن الأول يعبر عن اتجاه إيجابي وهو يفيد (نحو) في حين أن الثاني يفيد الاتجاه السلبي وهو المجاوزة . فإذا استفيدت خصوصية التضاد فهي في هذا الطريق في حين أن مادة الفعل احتفظت بالرغبة في كلتا الحالتين . وقد تقول : كيف حدث هذا الانتقال من الناحية الإيجابية إلى الناحية السلبية ؟ أقول : إن ذلك أمر اقتضاه التطور في الاستعمال عبر الزمان الطويل وذلك يعرض للغات عامة . وأكبر الظن أن من أراد بـ « الأمين » المؤمن على صيغة اسم الفاعل ، هو غير من أراد به المؤمن على صيغة اسم المفعول ، وأن زمان الأول غير زمان الثاني . غير أن العربية تفتقر إلى مثل هذا التحديد في الزمان والاستعمال وملاك الأمر راجع إلى البحث والتنقيب في النصوص المختلفة ليستطيع الباحث أن يثبت الاستعمالات ويردها إلى أزمنتها . وسأقول في القدر الذي اشتملت عليه هذه الكلمة في فكرة الضدية في كلتا الصيغتين عند عرضي لمفردات الأضداد عامة .

وليس في طوقنا أن نقول : إن الفعل « يظن » من مواد الأضداد كما ذهب الأقدمون ففسروا الفعل في قوله تعالى « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله »^(١)

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

أراد الذين يتيقنون ذلك ليثبتوا أن اليقين غير الظن المعروف الذى هو أضعف من اليقين والعلم .

أقول : إن الضدية لم تثبت لهذا الفعل أما مذهبوا إليه فهو مستفاد من الآية الكريمة كما سيأتى فلا يسوغ لتسكلم أن يجرى الفعل على هذا النحو من اشتماله على التضاد . والأمر فى الآية الكريمة غير هذا ، فلم يذهب وهم عاقل إلى أن الله عز وجل يمدح قومًا بالشك فى لقائه كما يعمل ذلك ابن الأنباري^(١) . وهكذا فإن التضاد حاصل فى الآية لما عرفنا من الحقيقة فى أن لقاء العبد بربه حاصل لا محالة .

ثم إن استقراءنا لاستعمالات الفعل « ظن » فى لغة التنزيل يدلنا على أن معانى أخرى تستفاد دون أن يكون فى ذلك شيء من التضاد فى قوله تعالى حاكياً فى يونس : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه »^(٢) . قال المفسرون : أراد : رجا ذلك وطمع فيه ، إذ ليس جائزاً أن يكون يونس تيقن أن الله لا يقدر عليه .

وهذا المعنى الذى ذهبوا إليه يشير إلى أن المعانى قد تختلف باختلاف الأحوال التى يجرى فيها الكلام ، وأن ما يستفاد منها داخل فى باب الاستعمال وما يجد فيه من صور مختلفة فى زمن واحد أو فى أزمنة مختلفة فقد يجوز أن يحصل فى هذا الاختلاف فى الاستعمال ما يمكن أن يجرى على التضاد كما رأينا ، فإذا حصل ذلك فهو داخل فى باب ما أسموه بـ « ما اتفق لفظه واختلف معناه » وقد كتب فى هذا غير واحد من الأقدمين .

وعرض ابن الأنباري لراى جماعة أخرى وهؤلاء يرون أنه : « إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع »^(٣)

(١) ابن الأنباري ، الأضداد ص ٣ .

(٢) سورة الأنبياء ٧٨ .

(٣) ابن الأنباري ، الأضداد ص ٨ .

« فقد يجوز » يوحى إلى أنه لم يعتقد أن هذه المادة تنصرف إلى الأضداد ذلك أن فكرة التضاد قد حصلت من ملابسة الطهر للحيض واتصالهما ببعضهما في الزمان فقد يتوسع في الاستعمال فتحصل فكرة التضاد .

وقد دفع اعتبار الشعوبيين الأضداد تقيصة من تقائص لغة العرب إلى تحمس القائلين بالأضداد فاندفعوا ينقبون في كلام العرب ولغة التزليل مستقصين هذه المسألة ، مستدلين بها على مقدرة العربية في الأعراب عن دقيق المعاني فتتهياً من ذلك مادة ضخمة . وكأن هذا الحساس قد دفمهم بقوة فراحوا يتلمسون أبعد الوجوه للتقريب بين لفظين على سبيل التضاد .

قال قطرب : « إنما أوقمت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم في كلامهم كما زاحفوا في أجزاء الشعر ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم ، وأن مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب »^(١).

ومن هؤلاء الذين قبلوا فكرة الأضداد وتوسعوا فيها دون أن يوجهوها كما فعل ابن الأنباري وغيره ، أحمد بن فارس فقد قال : « من سنن العرب في الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد نحو الجون للأسود والجون للأبيض . ثم قال : « وأنكر ناس هذا المذهب وأن العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده وهذا لبس بشيء . وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمى السيف مهنداً والفرس طرفاهم الذين رووا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد »^(٢).

وقد يحلو لنفر من الباحثين في الفيلولوجية العربية من المستشرقين^(٣) أن يفترضوا

(١) ابن الأنباري ، الأضداد ص ٨ .

(٢) ابن فارس ، الصحاحي ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) لقد كتب المستشرق الألماني نولدكه منذ ما يقرب من نصف قرن في «الأضداد» وفي كتابه الشهير:

Th. Noldke, Neue Beitrag Zur Semitische Sprachwissenschaft.

شيئاً في مسألة الأضداد فيقولوا : « إذا كان الشعوبيون وجلهم من الفرس الأعاجم قد استدلوا بالأضداد على أن لغة العرب ،فتقرر إلى الدقة والسداد فلعل هؤلاء هم الذين شاركوا في البحث عن الأضداد فتوسعوا فيه توسعاً كثيراً وتلمسوه لأدنى سبب » .

أقول : إن الشعوبيين وهم طبقة من الفرس قد عابوا العرب في هذه المسألة ولكن الباحثين ليسوا جميعاً من الفرس فقد تصدى للتنقيب عن هذه المواد جماعة منهم العربي ومنهم غير العربي . ومن الطريف أن نذكر أن بين المتعصبين للعربية الذابين عنها جماعة من أصل فارسي كابن قتيبة الذي يشيد بالعربية أيما إشادة وابن فارس كما رأينا .

والحقيقة أن اهتداء الرواة وعلماء اللغة إلى مواد الأضداد كان نتيجة ولمهم بالتماس فرائد العربية ونوادرها وغريبها فقد تبعموا هذه « الفرائد » في كلام العرب وفي « كتاب الله » وسنأتى على بيان ذلك لا سيما ما كان خاصاً بكتاب الله الكريم .

وربما كان شوقهم إلى معرفة هذه الفرائد والنوادر هو الذي دفعهم إلى تسجيل الأضداد والتوسع فيها أكثر مما دفعهم حرصهم على الرد على الشعوبية .

ومن العجيب أن ما اعتبر من مادة الأضداد في لغة القرآن عند جماعة من المفسرين لم يكن له هذا المعنى من التضاد عند جماعة أخرى من أهل التفسير .

فقد جاء من قوله تعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب »^(١) ، ولقد أجروا الفعل « أسروا » على التضاد على اختلاف في التفسير في الحالتين والمفسرون على غير اجماع على اعتبار (أسر) من الأضداد فالإمام الطبري وهو من مفسري السنة

يثبت أن معنى الفعل المذكور هو الإخفاء وهو المعنى الأصيل الذي تنصرف إليه الكلمة عامة في حين أن غيره من المفسرين كالزخشرى والفخر والرازي يعرضون لتفسير هذه الآية فيشرون إلى المعنى الآخر المضاد وهو الإظهار كما يشرون إلى المعنى الأول المعروف وهو الإخفاء .

ذهب الطبري في الكلام على المشركين في سورة يونس في تفسير الآية المشار إليها : (وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم وأيقنوا أنه واقع بهم)^(١).

على أن الزخشرى قد ذكر في الآية نفسها : (. . . لأنهم بهتوا رؤيتهم ما لم يحسبوه ولم يخطر ببالهم ، وعانوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب ، وقيل : أسروا رؤسائهم الندامة من سفلتهم الذين أضلّوهم ، حياء منهم وخوفاً من توبيخهم . وقيل : أسروها أخلصوها ، أما لأن إخفاءها إخلاصها ، وإما من قولهم : سرّ الشيء خالصه . وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة وقيل : أسروا الندامة : أظهروها من قولهم : أسر الشيء وأشره إذا أظهره وليس هناك تجلّد)^(٢).

أما الفخرى الرازي فيعرض للآية الكريمة ويعرض لهذه الوجوه جميعاً التي يحتملها الفعل (أسر) في تفصيل ومحاكاة فيقول : (. واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد . أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر ، وأما ورودها بمعنى الإظهار فهو قولهم : سرّ الشيء وأسره إذا أظهره إذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال : المراد منه إخفاء تلك الندامة والسبب في هذا الإخفاء

(١) الطبري تفسير ١ / ٨٦ .

(٢) الزخشرى ، الكشف ٢ / ٥٣٢ «مطبعة الاستقامة ١٣٦٥» .

وجوه ..) وهو يفصل في هذه الوجوه فيأتي بما ذكره الزمخشري في شيء من الإسهاب . ثم يعود فيقول : (.. وأما من فسر الإسرار بالإظهار فقله ظاهر لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة ، وفي القيامة بطل هذا الفرض فوجب الإظهار . وثانيهما قوله تعالى : (وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) فقليل بين المؤمنين والكافرين ، وقيل : بين الرؤساء والأتباع وقيل بين الكفار بإزالة العقوبة عليهم^(١) .

لعل هذا الخلاف بين المفسرين يوحى لنا الخلاف بين أهل السنة من المفسرين وبين المعتزلة منهم فهذا التفصيل وهذه المحاكاة العقلية يكون من نتائجها أن يبدو في الآية لون من فكرة التضاد في هذا الفعل .

ثم إنك إذا أعدت النظر في هذه الوجوه تبينت أن معنى الضدية في الفعل آت من اعتبار خارجي كما يبدو في كلام الفخر الرازي ، فقله : « إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة ، وفي القيامة بطل هذا الفرض فوجب الإظهار » . يشير إلى أن الإظهار قد كان من معاني الفعل لسبب تقتضيه ظروف هؤلاء الكفار .

على أن الزمخشري حين أورد معنى الإظهار ذكر أن ذلك من قولهم : « أسر الشيء وأشره إذا أظهره » . ولا بد لنا أن نقف قليلا على عبارته هذه . فقله « أسر » بالسين بمعنى أظهره قد يوحى لنا أن في « أسر » بالسين إبدالاً بين السين والشين وكثيراً ما يحصل هذا الإبدال بين السين والشين . ولنا أن نقول إن « الإسرار » هو الإظهار ثم عرض لهذه المادة الإبدال فجاءت بالسين .

على أن استقراءنا لمادة الأضداد التي جاءت في كتاب محمد بن القاسم الأنباري دلنا على طائفة من ذلك مما ألصق بالأضداد ولا تتوفر فيه فكرة التضاد بوجه من الوجوه وها نحن نعرض لذلك .

قال : « ومما يشبه الأضداد الأصفر يقع على الأصفر ، وربما أوقفته العرب على الأسود قال الله عز وجل : « صفراء فاقع لونها » ^(١) . فقال بعض المفسرين : هي صفراء حتى ظلّفها وقرناها أصفران . وقال آخرون : الصفراء السوداء . وقال جل اسمه : « كأنه جمالة صفر » ^(٢) فقال عدة من المفسرين : الصفر : السود ، وقال الفراء : إنما قالت للجميل الأسود : أصفر ، لأن سواده تعلوه صفرة فسموه أصفر ، . . . » ^(٣) وهكذا يمضي ابن الأنباري فيأتي بأقوال من أوقفوا الأصفر على الأصفر الحقيقي .

وقال : « وقال ابن قتيبة : « توسد » حرف من الأضداد يقال قد توسد فلان القرآن إذا نام عليه وجعله كالوسادة له ، فلم يكثر تلاوته ولم يقيم بحقه ، ويقال : قد توسد القرآن إذا أكثر تلاوته ، وقام به في الليل فصار كالوسادة وبدلاً منها ، وكالشعار والذئار » ^(٤) . فأنت ترى أن تحميل الفعل « توسد » معنى التضاد غير واضح في النص وأن ذلك لا يوصل إليه إلا بهذا التفسير الطويل الذي لا يخلو من الاصطناع .

وقال : « وأشد حرف من الأضداد ، يقال : بلغ فلان أشده إذا بلغ ثمانى عشرة سنة ، وبلغ أشده إذا بلغ أربعين سنة ، قال الله عز وجل : « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » ^(٥) . قال الفراء : « ويقال : الأشد أربعون سنة . قال : وحكى لى بعض المشيخة بإسناد ذكره أن الأشد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة » ^(٦) .

(١) سورة البقرة الآية ٦٩ .

(٢) سورة المرسلات الآية ٣٣ .

(٣) ابن الأنباري ، الأضداد ص ١١٠ .

(٤) ابن الأنباري ، الأضداد ص ١٦ .

(٥) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

(٦) الأضداد ص ٢٢٢ .

ومن هنا يتبين لنا اختلافهم في تحديد السن التي يبلغ فيها الرجل الأشد وفي كل هذا لم تكن فكرة التضاد متوفرة .

وقال : « ومما فسر من كتاب الله جل وعز تفسيرين متضادين قوله تبارك وتعالى : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ^(١) يقال : معناه خلقها مرفوعة بلا عمد فالجحد واقع في موضعه الذي يجب كونه فيه . ثم قال بعد « ترونها » أى لا تحتاجون مع الرؤية إلى خبر » ويفسر تفسيراً آخر ، وهو الله الذي رفع السموات بعمد لا ترون تلك العمدة فدخل الجحد على العمدة في اللفظ وهو في المعنى منقول إلى الرؤية . . . » ^(٢) .

وفي هذا دليل على أن الذين تصدوا لجمع الأضداد اندفعوا في هذا السبيل اندفاعاً عجيباً فصاروا يتلمسون هذه المادة في ضروب من التأويل والتفسير ، والنظر الصحيح لا يمكن أن يثبت ذلك . ومثل ذلك ما جاء في الكتاب :

« ومما يفسر تفسيرين متضادين قول الجمدى .

إنك أنت المحزون في أثر الحى فإن تنو نيهم تقيم

.....

قال الأصمى في (فإن تنو نيهم تقيم) معناه تقيم صدور الإبل وتلحق بأهلك ؛ قال كيسان : كذب الأصمى لم يرد النابغة هذا ، وقد سمع الجواب من أبي عمرو ولكنه نسيه وإنما أراد : فإن تنو ما نوا من البعد والقطيعة تقيم ولا تتبعهم حتى يوافق فملهم فملك وما تنوى بنون » ^(٣) .

(١) سورة الرعد الآية ١٥ .

(٢) الأضداد ص ٢٦٨ .

(٣) الأضداد ص ٢٦٩ .

وفي هذا توسع وتجاوز لإثبات حقيقة التضاد في حين أن التضاد غير واقع فيه .
وقال محمد بن القاسم الأنباري في كتابه :

و « أو » من الأضداد تكون بمبنى الشك في قولهم : يقوم هذا أو هذا أي
يقوم أحدهما . وتكون معطوفة في الشيء المعلوم الذي لا شك فيه كقول
جرير :

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

أراد وكانت^(١) .

وهذا أيضاً ضرب من الاصطناع لإثبات شيء لا يتوهم فيه التضاد إلا بسبب
ضعيف واتخاذ البيت حجة على ذلك لا يقوم دليلاً مطلقاً .
ومثل هذا ما جاء أيضاً :

« ومما يفسر من القرآن تفسيرين متضادين قول الله عز وجل : « وأصبح
فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به »^(٢) فيقول المفسرون : معنى الآية
وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من كل هم إلا من الاهتمام بموسى والإشفاق عليه
وإن كادت لتبدي باسمه ، فتقول : هو ابني .

وقال بعض أهل اللغة : معنى الآية وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الحزن
لعلمها بأن موسى لم يقتل ، إذ كان الله عز وجل قد أوحى إليها أنه يرده عليها ويحمله
من المرسلين إن كادت لتبدي به ، أي بذهاب الحزن »^(٣) .

ولا أريد أن أطيل في ذكر هذه الأمثلة التي تثبت أن مادة الأضداد لم تكن

(١) الأضداد ص ٢٢٩ .

(٢) سورة القصص الآية ١٠ .

(٣) الأضداد ص ٢٨٩ .

على هذا النحو من الاتساع والشمول في لغة العرب ولكن أسباباً كثيرة عرضنا لها دفعت الرواة الأقدمين وعلماء اللغة على النهاب بعيداً في هذا السبيل فأدخلوا في الموضوع أشياء كثيرة لم تكن تشتمل على طبيعة الأضداد : وقد أحصيت من هذا القبيل ما يقرب من مائة وخمسين مادة حفلت بها كتب الأضداد وهي لا تملك الضدية إلا بهذه الوجوه البعيدة من التأويل والتفسير منها :

ظنٌ ، رجا . خال ندّ ، ضدّ ، قرء الوامق ، صرّى ، سواء ، ضراء ، مسجور ، ذّعور ، بردتُ ، قانع ، أخفيت ، المستخفي ، سارب ، وثب ، نبّل ، طرب ، ماتم ، بعد ، مقتوين ، عائد ، أون ، ضعف ، مثل ، سجع ، خاف ، حميم ، خجل ، راغ غفر ، تأتم ، قلع ، تصدّق ، تخنّست ، بعض ، عقوق ، توسّد الدغطاية ، حَرَف ، الصرّعان ، شَرَف ، فادر ، خُلوَف الجَرّبة ، مُعَصِر خَزَوْر ، بعل ، أخلف ظهري ، يدّية ، الدرع ، أُمّة ، نَسَل ، مُسْنِج ، مَرى ، حافل ، طبّخ ، ذاع ، أراح ، إجلعب . ثنى ، اعتذر ، حَجَرَ ، صَفَرَ ، بَعَلَ ، ناس ، غانية ، زبية ، فوق ، صلاة ، ساحر ، أحنف ، جُرموز ، نهيك ، عاديّات ، أعور ، رَبع ، خابت ، تبيع ، جَمَرَ ، زوج ، عاقل ، فارض ، استقصى ، هَوَى ، ثلّ ، أسود ، نسي ، أصغى ، سَلَفَ نَجَد^(١) .

وهذه المادة قد حفلت بها كتب الأضداد وقد اعتمدت فيها على كتاب محمد ابن القاسم الأنباري والرجوع إليها يؤيد أن هذه المادة قد توسع فيها فشملت مواد لم تكن منها .

ولابد لنا أن نلاحظ أن الطائفة من الأضداد يمكن ردها إلى اعتبارات اجتماعية ومن ذلك جملة من المواد التي تنصرف إلى الناحية الإيجابية بدلا من سلبية مقيّمته وهذا الانصراف على سبيل التفاضل . ومن ذلك « بصير » للأعمى وفي هذه الكلمة شيء آخر غير التفاضل هو أن في إطلاق (بصير) على الأعمى تكريماً وإحساناً للأعمى وهو لون من التأدب والتظرف .

(١) انظر فهرس الألفاظ الأضداد في كتاب الأضداد لمحمد بن القاسم الأنباري .

ومن ذلك (السليم) لديدغ ومثله (جلل) للأمر الحقير والأمر العظيم . ومنه أيضاً (المفاضة) للصحراء وهي مهلكة في حقيقتها أما استمارة (المفاضة) لها تفاؤلا أى أن قاصدها والسالك فيها يعود منها قانزاً .

وقد نلجأ إلى التضاد في لفتنا العامية الدارجة على سبيل التهميم فنطلق «النجيب» على من يفتقر إلى النجابة ، وقد تطلق (العاقل) على مجنون ومثله (الكريم) على البخيل الشحيح .

على أن العامية قد تلجأ إلى فكرة التضاد تفاؤلاً على نحو ما عرفنا في اللغة الفصيحة فهم يكتنون عن الأعور بـ «كريم عين» كما وجدت أن التونسيين يطلقون على النار «العافية» وهذا ماورد في اللغة الفصيحة أيضاً . كما يسمون (الفحم) (بياضاً) هروباً من سواد الفحم إلى البياض الذي يتفاعل به . هذا عرض سريع لمواد الأضداد العربية أتيت فيه على موادها وعلى حقيقة التضاد فيها وكيف تطورت وعلى مكانة الأضداد في الدراسات التاريخية اللغوية وسأتبع ذلك بالمواد الأخرى التي تدخل في تاريخ المشكلة اللغوية .

الفصل التاسع

الإبدال والقلب

يؤلف بناء الكلمة العربية مشكلة لغوية ينبغى الوقوف عندها والنظر فيها من نواح عدة . فهي لا تقتصر على الناحية الفنية في كيفية صوغ الكلمة ، بل تتجاوز ذلك فتكون وسيلة تدل على شيء من تاريخ العربية .

فن اهتمام العربية بالأبنية كثرتها ، فقد ذكر سيبويه في أبنية الأسماء أنها نحو من ثلاثمائة وزن وبضعة أوزان .^(١)

وقد يكون هذا راجعاً إلى أن العرب كانوا يلتمسون رشاقة اللفظ وتوفر الناحية الموسيقية ، وبناء اللفظة العربية في حركاتها وسكناتها وأصواتها يظهر جنوح العربية إلى بلوغ هذا التناسب الصوتي الموسيقي .^(٢)

وقد عنى الأقدمون بجمع اللغة وتصنيفها عناية كبيرة . ولكن هذه الجهود المضنية لم تستوف كل مايجب استيفاؤه . فقد أثر عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال :

(١) السيوطي ، المزهري ٢ / ٢ .

(٢) إن الحديث الشريف (ليرجعن مأزورات غير مأجورات) يدل على هذا النحو مهمزة الميل الموسيقى ، فقد قالوا: إن «مأزورات» جاءت على هذا النحو مهموزة لتساوق مع «مأجورات» . والوجه أن يقال: «موزورات» من الوزور إثباتها بالواو يبعد هذه لمساوقة الموسيقى .

والإتباع والمزاوجة في العربية يؤيد هذا الذي نذهب إليه ؛ فإن قولهم : «حيص بيص» و«شذر مذر» وإلى غير ذلك يفيد المعنى تقوية المراد ، غير أن هذه التقوية لا تحصل إلا إذا توفر شيء من التساوق والانسجام بين الألفاظ .

« ما انتهى إليكم من كلام العرب إلا أقله ، ولوجاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ^(١) .

وقد ذكروا أن رجلاً سأل الخليل بن أحمد : « أخبرني عما وضعت مما سميت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ » فقال : « لا » كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : « أحمل على الآكثر وأسمى ما خالفني لغات » ^(٢)

ولا أريد أن أعرض للقياس الذي يفهم من هذه العبارة ، وإنما أريد أن أفيد بما وصفه الخليل بـ « لغات » .

أقول : إن هذا العربية الواسعة كما هي في المطولات من المعجمات وكتب اللغة الأخرى ، قد بلغت ما بلغت من السعة بكثير من الوسائل وها أنا أعرض لمشكلة من هذه المشكلات وهي مادعي عند الأقدمين بمسألة « الإبدال » .

الإبدال من مصطلح النحويين واللفويين وملاك الأمر فيه عند النحاة معروف للدارسين . وقد أجمل النحويون مواضع الإبدال وهي مسائل قياسية مطردة لاتهمنا في هذا البحث .

أما الإبدال اللغوي فكثير ولا يحصره ضابط وقالوا : إن الإبدال يمرض لكثير من أصوات العربية . وهو عندهم إقامة حرف مكان حرف مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة وهكذا تشترك الكلمتان أو الكلمات بحرفين أو أكثر ويبدل حرف منها بحرف آخر قد يكون قريباً منه في نشأته من جهاز النطق أو قد يشتمل على شيء من خواصه ، وقد يكون بعيداً منه .

(١) ابن الأنباري نزهة الألباء ص ٣٢ .

(٢) أحمد أمين ؛ ضحى الإسلام ٢ / ٢٥٩ .

فإذا قلنا: قُضِبَ وقُضِفَ فقد اشتركا في القاف والضاد واختلفا في الباء والفاء وأحدهما مبدل من الآخر وهما متقاربان مخرجاً . أما إذا قلنا: « قطع و « قطف » فقد اشتركا في القاف والطاء واختلفا في العين والفاء وهما متباعدان مخرجاً .

وقد عرف مصطلح « الإبدال » أول ما عرف بما صنف علماء اللغة الأقدمون كالأصمعي والزجاجي وابن السكيت وأبي الطيب من رسائل في هذا الموضوع واتخاذهم « الإبدال » اسماً على هذه الحقيقة اللغوية . غير أن آخرين التزموا بمصطلحات أخرى للدلالة على ما أسماه غيرهم بـ « الإبدال » فقد شاع البديل والمبدول والقلب والمقلوب والمحول والمضارعة والتعاقب والمعاينة والنظار والاشتقاق الكبير أو الأكبر .

وأبو الفتح عثمان بن جني من علماء القرن الرابع الهجري سمي كتابه في هذا الموضوع بـ « تعاقب العربية »^(١) ، كما كتب في الخصائص « باب الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه »^(٢) .

وختم هذا الباب بقوله: « ونحن نمتقدأن نشرح كتاب يعقوب بن السكيت^(٣) في القلب « والإبدال » . ولم يشر إلى علاقة الموضوع بضرب من الاشتقاق .

وقد جعله ابن فارس في كتابه « الصحاحي » في خصائص العربية فقال : « من سمن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض: مدحه ومدده ؛ وفرس رَقْلَ ورَقْنِ وهو كثير مشهور . »^(٤)

(١) قال فيه أبو الفتح: وأطرف به، وحجمه مائتا ورقة (عن كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي ص ٧).

(٢) ابن جني، الخصائص ٢ / ٨٢ .

(٣) كتاب القلب والإبدال لابن السكيت في مجموعة « الكنز اللغوي بيروت سنة ١٩٠٣ .

(٤) ابن فارس والصحاحي عن المزهر للسيوطي .

وقد وصف « الإبدال » بـ « الأكبر » في كتب التأخرين كالسيد الجرجاني وأصحاب « مراح الأرواح » و « زهرة الأحداق والعلم الخفاق » و « سر الليال » .

ومقالة ابن فارس في الإبدال تشعر أن العرب كانوا يقيمون حرفاً مكان حرف وبهذا صار من سننهم ، وما أظن أن المعري في أى عصر من عصور العربية يملكون هذه الميزة المصطنعة أو كأنهم حين يقولون لا تنطلق ألسنتهم بلغتهم البديهة وإنما يستعيرون شيئاً غريباً عنهم . أريد أن أقول : إن اللغة فطرة وبداهة فالذى يقول « مدحه » لا يمكن أن يفسر لسانه فيقول « مدّه » والعكس صحيح أيضاً .

وعلى هذا فلم نعدم أن مجديين الأقدمين من نظر إلى هذه المشكلة النظر الصحيح فقد قال أبو الطيب اللغوي الحلبي : « ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تمويض حرف من حرف ، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان في لغتين لعني واحد حتى لا يختلفا إلا في حرف واحد .

قال : والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزة وطوراً غير مهموزة ؛ ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى ، وكذلك أبدال لام التمرير ميماً ، والهمزة المصدرة عيناً ؛ كقولهم في نحو أن^(١) عن ، لا تشارك العرب في شيء من ذلك . إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون^(٢) .

وقال أبو حيان في (شرح التسهيل) : قال شيخنا الأستاذ أبو الحسن بن الصائغ قلما تبد حرفاً إلا وقد جاء فيه البدل ولونادراً^(٣) .

وقال أبو عبيد في (الغريب المصنف) : باب البدل من الحروف — مدّه

(١) قال في القاموس : تكون مصدرية وفي لغة تميم يقولون : أعجبنى عن تفعل .

(٢) السيوطي ، المزهري ١ / ٤٦٠ .

(٣) المصدر السابق ١ / ٤٦١ .

أَمَدَهُ مَدَّهَا ، يعنى مدحته ، واستأديت عليه مثل استعديت والأيم والأين :
الحية . (١) .

وقد فسر ابن جنى معانى كثير من الأفعال المتعاقبة تفسيراً جعل به (أصوات الحروف
على سمت الأحداث) مثال ذلك قولهم : خضم وقضم فالحضم : لأكل الرطب
كالبطيخ والقثاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم : للصوت اليابس
نحو قضمت الدابة شعيرها ، وفى الخبر (قد يدرك الحضم بالقضم) أى الرخاء
بالشدة واللين بالشظف وعليه قول أبى الدرداء : (يخرمون ونقضم
والموعد الله) (٢) .

وإذا عرضنا لمجاميع الإبدال وجدنا أنها فى كثير من الأحيان تخلو من العزو
فإن كثيراً مما ذكره أبو يوسف يعقوب بن السكيت وأبو الطيب اللغوى مفتقر
للعزو فلم يخص الألفاظ التى اعتورها الإبدال بيئة معينة . وقد جرت على هذه
الطريقة معجمات العربية ، فكان الصورتين اللتين يعرض لهما الإبدال للفظ
متساويتان فى الاستعمال وفى مبلغ الفصاحة التى رسمت لمفردات العربية .

وقد ذهب ابن السكيت وغيره من الأقدمين إلى أنه قد يحصل الإبدال ويقول
به أبناء بيئة واحدة .

قال ابن السكيت فى « الإبدال » : حضرني أعرابيان من بنى كلاب ، فقال
أحدهما (أنفحة) والآخر (منفحة) ، ثم افترقا على أن يسألا أشياخ بنى كلاب ،
فاتفق جماعة منهم على قول ذا ، وجماعة على قول ذا (٣) .

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن جنى ، الخصائص ٢ / ١٥٧ .

(٣) ابن السكيت الإبدال (ضمن الكثر اللغوي بيروت ١٩٠٣) عن «الإبدال» لأبي
الطيب اللغوي تحقيق «عز الدين التنوخي» دمشق (١٩٦٠) .

ومثل ابن السكيت أبو الحسن ابن سيده الأندلسي التوفي سنة ٤٥٨ هـ الذي ذهب إلى إمكان المعاقبة في القبيلة الواحدة فقال:

« وأذكر الآن شيئاً من المعاقبة وأرى كيف تدخل الياء على الواو والواو على الياء من غير علة (عند القبيلة الواحدة من العرب) ، وإما لافتراق القبيلتين في اللغتين ، فأما ما دخلت فيه الواو على الياء والياء على الواو لعله فلا حاجة إلى ذكره في هذا الكتاب لأنه قانون من قوانين التصريف^(١) .

وقد لاحظ ابن سيده أن في الإبدال صوراً فمنه البديل ومنه ما يجري مجرى البديل ، كما لو كانت اللفظتان المتقاربتان لغتين متعاقبتين ، ومثال ما يجري مجرى البديل نحو : دهدهت الحجر ودهديته ، زعم الفارسي أنهما لغتان : الهاء في تميم ، والياء في أهل العالية ، وزعم الفارسي أن تيمماً همز النشار (المشار) وغيرهم لا يهمزوه وقالوا جس الودك وجد وليس هذا بدلاً : أولاً ترى أن بعضهم يقول جس الودك وجد الماء ولا يقال :

جس الماء وجد الودك ، وكان الأصمعي يخطئ ذاً الرمة في قوله :

نثار إذا ما الروع أبدى على البرى ونقرى سديف الشحم والماء جامس^(٢)

وقد عرض المحدثون لهذه المشكلة اللغوية ، ومن الأوائل الذين بحثوا في الموضوع أحمد فارس الشدياق فقد كتب معجمه الضخم وهو « سر الليال في القلب والإبدال » وقد ذكر في مقدمته مانصه :

« وأكثر ما يكون القلب والإبدال في الألفاظ الدالة على القطع والكسر والخرق والهدم والشق والعزق والتبديد لأنها كلها من جنس واحد وجلتها مأخوذة

(١) ابن سيده، المخصص ١٤ / ١٩ .

(٢) ابن سيده، المخصص ١٢ / ٢٧٤ .

من حكاية صوت نحو : قَتَّ وقَطَّ وقَضَّ وقَطَّ وجدَّ وجثَّ وجذَّ وجزَّ^(١) والـحـ.
وكأن الشدياق أراد أن يثبت أن أصل هذه المواد المضعفة حكاية الأصوات
وهي مسألة قديمة أشار إليها بوضوح ابن جني من الأقدمين. كما أنه يرى أن المضاعف
هو الأصل ثم يزداد حرف ثالث لتخصيص فكرة القطع واتصالها بنوع «المقطوع»
ومعنى هذا أن «قطَّ» غير «قطم».

وهذا لا يستقيم لأحمد فارس الشدياق إلا إذا افترضنا أن الثنائي (قط) و
(قد) و(جد) و(جز) وغير ذلك هو الأصل ثم يصار من الثنائي إلى المضعف
الثلاثي ثم يتم ما دعوه بالإبدال أو بتثليث الثنائي بحرف ثالث يخصص المعنى .

ومن المحدثين أيضاً مصطفى صادق الرافعي ، فقد عرض لمسألة «الإبدال
اللغوي» فذهب إلى إمكان وقوع المعاقبة بين الحرفين وقال : « والمعاقبة إما أن
تكون لغة عند القبيلة الواحدة ، أو تكون لافتراق القبيلتين في اللغتين »^(٢) .

وأريد أن أخلص من هذا العرض لأقوال الأقدمين والمحدثين في هذه المشكلة
إلى أن العربية قد اشتملت على لغات عدة هي لغات القبائل المختلفة . وطبيعي أن
يحصل الخلاف بين هذه اللغات لاختلاف البيئة . وعلى هذا فإن كثيراً مما حمل على
الإبدال داخل ضمن هذه اللغات . وعلى هذا فليس هناك إبدال، بل هناك اختلاف
بين المعربين فالذي يقول : « صراط » لا يقولها بالسين « صراط » والمكس
حاصل أيضاً .

ذكر أبو الطيب اللغوي « أن أبا حاتم السجستاني قال : قلت لأُم الهيثم : هل
تبدل العرب من الجيم ياء في شيء من الكلام ؟ فقالت : نعم ، ثم أنشدني :

(١) الشدياق، سر الليال ص ٥ .

(٢) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب ١ / ١٤٦ .

إذا لم يكن فيمكن ظل ولا جنى فأبعدكن الله من شيرَات^(١)

والشيرات هي الشجرات وهي لغة جماعة ويؤيد هذا قراءة بعضهم « ولا تقربا هذه الشيرة » حكاه أبو زيد^(٢) .

ويروى أبو الطيب عن الفراء في هذا الموضوع ما يدل على أن الفراء كان يدرك ألفاظ المعاقبة إدراكاً صحيحاً فهو يقول :

« إن قرأ من بلعبر يصيرون السين - إذا كانت مقدمة وجاءت بعدها (ط . ق . غ . خ) - صاداً ، وذلك أن الطاء حرف تضع فيه لسانك في حنكك فينطبق الصوت فتقلب السين صاداً صورتها صورة الطاء واستخفوها ليكون المخرج واحداً كما استخفوا الإدغام ، فمن ذلك قولهم : الصراط والسرائط ، قال : وهي بالصاد لغة قريش الأولين التي جاء بها الكتاب قال : وعامة العرب تجعلها سيناً^(٣) .

وكان جماعة من الأقدمين أرادوا أن يضعوا لهذه المسألة اللغوية إشارات هي أقرب إلى القواعد والحدود المقررة . فهذا ابن السيد البطلاني في الأندلس المتوفى سنة ٥٢٠ هـ قرر بأن :

« الحرف الأضعف يقلب إلى الأقوى ، ولا يقلب الأقوى إلى الأضعف . وشرح هذا بقوله : « كل سين وقع بعدها حرف من الحروف الخمسة (ق . خ . غ . ع . ط) جاز قلبها صاداً نحو سقر وصقر ، ويساقون ويصاقون ، وسخر منه وصخر من الجزء ، فأما الذي من الحجارة فبالصاد لا غير ، أما (يساقون)^(٤) فإنما جاز قلبها صاداً

(١) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال ١ / ١٤٦ .

(٢) ابن خالويه ، مختصر في شواذ القرآن (شواذ سورة البقرة) .

(٣) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال ١ / ١٥ .

(٤) يشير إلى قوله تعالى : «يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون» الأنفال ٦ .

(يصادقون) لأن السين متسفلة وأضعف من الصاد المستعملة ، والأضعف ينقلب إلى الأقوى ، ولأن السين أصل ، وإذا كانت الصاد أصلاً لم يجز قلبها شيئاً كصخر بمعنى الحجر ، فلا يجوز أن يقال فيه (سخر) لأن الصاد أصل وهي أقوى من السين ، والأقوى لا ينقلب إلى الأوهى^(١) .

وما ذكره ابن السيد صحيح في كون تقارب المخرج هو الذي يؤدي إلى هذه المعاقبة ، أما قوله إن الصاد « أصل » أو السين « أصل » فليس بصحيح وذلك لأن الكلمة هي بالسين عند جماعة وبالصاد عند آخرين والسين أصل عند من ينطق الكلمة بالسين ، وكذلك الصاد أصل عند من ينطق الكلمة بالصاد .

وإلى مثل هذا ذهب أبو العباس المبرد إلى القول بتعاقب الحروف إذا توفر قرب المخرج فأورد قول النعمان بن المنذر لحجل بن نضلة : « أردت أن تذييه فدهته » قال أبو العباس : وقوله (فدهته) يريد مدحته فأبدل من الحاء هاء لقرب المخرج ، وبنو سعد بن زيد مناة بن تميم كذلك تقول ولحم ومن قاربها قال رؤية : (لله در الغانيات المدة) يريد المدح ، وفي الأرجوزة : (برأق أصلاد الجبين الأجله) يريد : الأجلح ، والعرب تقول : جَلَحَ الرجل يَجْلَحُ جَلْحاً ؛ وَجَلَهُ يَجْلَهُ جَلْهاً والمعنى واحد^(٢) .

وإلى مثل هذا ذهب ابن جني في سر الصناعة قال : إن أصل القلب (البذل) في الحروف إنما هو فيما تقارب منها وذلك الدال والطاء والتاء ، والذال والظاء والتاء والهاء والهمزة والميم والنون وغير ذلك مما تدانت مخارجهم^(٣) .

وقد فسر أصحاب المعاجم اللفظة بنظيرتها في تعاقب الحروف ، فقد جاء في القاموس المحيط : الحرس الجرس^(٤) ليشير إلى التعاقب والمناظرة .

(١) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال ١ / ١٢ .

(٢) المبرد ، الكامل ٢ / ٩٧ .

(٣) ابن جني سر الصناعة ١ / ١٩٧ .

(٤) القاموس مادة ح و س .

ومثل المجد الفيروز ابادى من أصحاب المعجيات الجوهرى من المتقدمين وابن مكرم وغيرهم . جاء فى « اللسان » الشاسي لفه فى الشازب وهو النحيف اليايس من الضمير^(١).

وقد لاحظ الأقدمون فى الفعل المضاعف لونا من الإبدال من أحد الحرفين المضاعفين ياء فيقال فى حسست ومددت وظننت : حسيت ومديت وظنيت .

وأشار سيبويه إلى شىء من هذا فقد جاء فى الكتاب :

« هذا باب ماشذ فأبدل مكان اللام ياء لكراهية التضعيف وليس بمطرد ، وذلك قولك تسريت وتظنيت وتقصيت من تسرر ونظن وتقصص ، وقيل فى قوله تعالى (إلى طعامك وشرابك لم يتسنه من أن تقديره (لم يتسن) فقلت النون الثانية ياء ، ثم قلت ألفاً لتطرفها وانفتاح ما قبلها ، وحذفها للجزم ثم جعل مكانها هاء للوقف ، وقال الميجاج :

إذا الكرام ابتدروا الباعَ بدَرُ تقضىَ البازى إذا البازى كَسَرُ

يريد تقضيه من الانقضاض ، ويقال تقصيب من القصة وهذا كله شاذ : لأننا لا نقول فى تحبب : تحبى ، ولا فى تحسس تحسى وكل هذا التضعيف فيه عربى كثير »^(٢).

أقول إن صيرورة المضعف على هذا النحو جار فى العامة إلى يوم الناس هذا ولما المصينة الوحيدة الباقية عند إسناد المضعف إلى ضائر الرفع فلا يقال «مددت» بل « مديت » .

وقد حفلت العامة المحلية فى كثير من أقطار العربية بأسماء اللغويون

(١) اللسان مادة ش س ب .

(٢) سيبويه ، الكتاب ٢ / ٤٥١ .

بـ « الإبدال » ، واستقرأؤنا لشيء من هذه الطرائف العامة يؤيد أن الإبدال يقع في الأحرف التي تتقارب مخارجها مع اختلاف بيئة القائلين . فالمعروف أن الفعل العامي « لقوَس » يصبح « لقوَس » كما يصبح « لقوَص » و (سأل) يكون (سعل) في لغة كثير من القرويين وأن مجاورة السين للحاء في العامة العراقية تؤدي إلى إبدال الصاد بالسين ، يقال : صخام وصخى وصخل وغير هذا وهو سخام وسخى وسخل .

ولابد من القول إن تعاقب الأحرف على طريقة الإبدال في العربية يؤدي إلى تنويع المعاني واتساع دوائرها فأنت ترى أن الوشوشة تنصرف الى صوت لاتنصرف إليه (الوسوسة) أو (الوصوصة) ، وأن (الهديل) غير (الهدير) وأن (فلّج) غير (فرّج) أو (فلح) ومثل هذا كثير .

ومعنى هذا أن اختلاف القائلين وتقارب المخارج قد أضافا إلى العربية مادة ضخمة حفل بها المعجم العربي .

على أن هذه السعة التي أضيفت للمعجم العربي بطريقة الإبدال قد توسع فيها وربما دخلها شيء من التجوز والتوسع والكذب ، وذلك أنك تجد الكثير مما عرض له الإبدال كما نص عليه الأقدمون يفتقر للشاهد الصحيح . قال أبو عمرو : التبجّس والتفجّس : الكبر وعن الليث الفجس والتفجس عظمة وكبر وتناول .

ويقال : بمر مُبْلَنْدٍ ومُكَلَنْدٍ إذا كان شديداً ، وقد ابلندى يبلندى ابلنداداً واكلندى يكلندى اكلنداء إذا اشتد . ومثل هذه الألفاظ اليتيمة كثير في معجماتنا وهي غفل من الشاهد النصيح الصحيح ، ثم إنك لا يصعب عليك تمييز المادة التي ارتجلت ارتجالاً وأضيفت إضافة وما أظن أن العربية تفيد من هذه السعة غير المقتضاة .

أما « القلب » فهو نحو جذب وجَبَدَ فقد جعله ابن فارس من سنن العرب (١).
وكان هذه الفوضى ميزة يفخر بها العرب على غيرهم . وقد صنف فيه علماء اللغة
الأقدمون ، وكان ابن فارس قد أدرك أن كثيراً مما أسموه بالمقلوب من الألفاظ غير
فصيح ولذلك قال : وليس في القرآن شيء من هذا فيما أظن (٢).

والذي نراه أن الألفاظ المقلوبة موجودة في الألسن الدارجة ، ووجودها فيها
يشعرنا أنها من الاختلافات الإقليمية اللغوية . يقول كثير من العراقيين : « إن
هذا الشيء يساوى نظيره الآخر » في حين أن جماعات أخرى في جهات معينة
معروفة تقول « ان هذا الشيء يواسى » .

وهذه الاختلافات في الألوان العامية كثيرة وربما اتخذنا منها دليلاً في أن
الألفاظ المقلوبة في فصيح العربية ترجع إلى السبب نفسه .

والذي نلاحظه أن القلب يعرض كثيراً في لغة الأطفال الصغار في الثالثة
أو الرابعة من أعمارهم وهو عيب من عيوب النطق ، وهم يتخلصون من ذلك كلما
تقدموا في السن وأدركوا إدراكاً لغة الكبار التي يقلدونها .

على أن طائفة من هذه الألفاظ المقلوبة قد وجدت طريقها في كتب اللغة
دون أن يشار إلى أنها مقلوبة نحو : « فجر » و « فرج » و « سلط » و « سطل »
و « جمر » و « رجم » وغير هذا .

وقد ألف ابن السكيت في هذا النوع كتاباً نقل عنه الجوهري كثيراً في
« الصحاح » .

وقال ابن دريد في « الجمهرة » : باب الحروف التي قلبت ، وزعم قوم من
النحويين أنها لغات (٣) .

(١) السيوطي ، المزهر ١ / ٤٧٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

كلمة أخيرة :

لقد تبيننا أن هذه العربية التي ورثناها حفلت بمواد شتى مما ندعوه اليوم بـ « اللهجات » ، وليس من العلم أن نقول إن لغة القرآن أو الفصحى هي لغة قريش أو لغة الحجاز ، والصحيح أن نقول إنه اجتمعت في هذه العربية مواد كثيرة ترجع لجماعات عدة في بيئات عدة . ولم ينص في الكثير المغالب على القائلين وربما كان ذلك بسبب أن اللغويين والنحويين أرادوا أن يؤلفوا بين أشتات هذه اللغة التي جاء بها الكتاب الكريم والتي أريد لها أن تكون شاملة عامة ليكون المسلمون جميعهم متفقين في فهمهم لهذه اللغة الكريمة .

وعلى هذا فإن هذه المواد من إبدال وقلب تشير إلى شيء من تاريخ .

الفصل العاشر

تحقيق لغوي في الصيغ والاستعمالات

هذا بحث حققت فيه طائفة من الصيغ والاستعمالات مما يكثر في عربيتنا الحديثة العربية . وأقصد بهذه العربية عربية الدواوين الرسمية ، وعربية الصحافة والإذاعة والمقالة الأدبية . على أن هذا البحث لا يقتصر على هذه النماذج من اللغة الحديثة ، بل يتعدى ذلك للتحقيق في طائفة من الاستعمالات العربية التي عرفت في عربيتنا الفصيحة القديمة . وأنا إذ أبحث في هذا اللون من العلم اللغوي لا أقصد أن أشير إلى مكان التجاوز ، أو قل مواطن الخطأ في هذه العربية الحديثة ، ولكني أريد أن أشير إلى أن هذه العربية الحديثة هي لغة هذا العصر الحاضر بحاجاته العديدة ووسائله المختلفة وما وجد فيه وما يجد من أشياء ومستحدثات . وهي استعمالات وصيغ قائمة دائمة أردنا أم لم ترد خضعت لسنة التطور شأن جميع اللغات في هذا الموضوع .

ومن الواجب أن نسجل هذا التجاوز ، أو قل هذا الجديد ليربط بينه وبين عربيتنا الفصيحة القديمة عملاً بالنهج اللغوي التاريخي . وسنجد أن علم اللغة في العربية لا يتنكر للجديد المولد أو قل لا يريد أن ينسب إلى الخطأ مواد كثيرة . فالشذوذ في العربية والقول باللغات الخاصة ومساائل التوهم يؤيد ما نذهب إليه في هذه الحقيقة اللغوية .

وسأتناول في هذا البحث طائفة من الصيغ تشتمل على جموع مختلفة وأفعال وغير هذا مما دخله شيء من الجديد صرفه عن الوجه الفصيح المشهور .

ألفاظ الجمع :

(١) لقد شاع جمع « مدير » بصيغة اسم الفاعل من « أدار » على « مدراء » في لغة الدواوين الرسمية ، وكأنهم لا يعرفون أن الكلمة تجمع جمع تصحيح على « مديرون » . وأغلب الظن أن الذي سهل هذا التجاوز أنهم حملوا « مدير » على « فاعل » التي تجمع على « فعلاء » . وربما لم يبق « مدراء » مكاناً لـ « مديرين » في الاستعمال الجارى في العراق .

(٢) ورد في لغة الصحف استعمال « شقا » جمعاً لـ « شقى » والصحيح أن الكلمة تجمع على « أشقياء » كما هو مشهور معلوم ، فاستعمالهم « شقا » من باب الخطأ إذ ليس المفرد « شاقى » كما نقول : غازی غزاة ووزنه « فعلة » .

(٣) ومثل هذا الخطأ الجديد لاستعمالهم « ثقة » بالناء المربوطة وهم يريدون بها جمع « ثقة » فكأن المفرد من ذلك « ثاق » وهي تبحى^١ في نطقهم بضم الثاء .

(٤) ويجمعون « سائح » على « سواح » فكأن الكلمة جاءت من فعل أجوف واوى والصحيح أن يقال « سياح » ويبدو أن الذي جر إلى هذا الخطأ ضمة السين في الكلمة المجموعة « سياح » على « فمال » .

(٥) ويجمعون « مدينة » على « مدائن » بالهمزة ، ومثلها « مصيدة » على « مصائد » بالهمزة والصحيح أن تثبت الياء لا الهمزة ذلك أن ما كان فيه الياء أو الواو أصيلة لم يجر أن تبدل همزة ، وعلى هذا حملت « معاش » في قراءة نافع على الخطأ في قوله تعالى : « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون »^(١) . وعن ابن عامر : أنه همز على التشبيه بصحائف^(٢) .

(١) الأعراف ١٠ .

(٢) الزخشي الكشاف ٢ / ٨٠ (طبعة الاستقامة القاهرة ١٣٦٥) .

وقد خرج اللغويون والنحويون قراءة نافع هذه بالهمزة على أن « معيشة » وهي « مفعلة » شبهت بـ « فعيلة » .

وقد جد في لغتنا العربية الحاضرة جموع لم تعرف في المأثور من نصوص اللغة ، ولكن البحث يهdy إلى شيء يمكن أن رد إليه هذه المولدات ومن ذلك استعمالهم « مشاكل » جماعاً « لمشكلة » و مهام « جماعاً » لمهمة ولم رد « مفاعل » جماعاً لـ « مفعلة » صيغة اسم الفاعل ، وجمع المؤنث السالم يغنى عن هذا التجاوز . غير أن كتب النحو تورد قول أبي ذؤيب الهذلي :

وإن حديثاً منك لو تبذلينه جنى التحل في ألبان عوذ مطافل^(١)

فالمطافل جمع « مُطفل » وهي ذات طفل وقد جمعت « مطافيل » بالأشباع . وربما استطعنا حمل « المشاكل » على « المصائب » وعلى « المراضع » جمع « المرضعة » كما في قوله تعالى : « وحرمنا عليه المراضع من قبل »^(٢) .

(٦) وقد يعرض لشيء من ألفاظ الجمع خطأ في الشكل فيقولون : « زخارف » يضم الراء و « تجارب » يضم الراء أيضاً و « قنابل » يضم الباء وبذلك خرجت هذه الجموع عن الصيغة الصحيحة الفصيحة وهي « فمال » بكسر اللام ، والذي أراه أن الضمة اجتلبت خطأ من ضمة المفرد فالمفردات هي « زخرف » يضم الراء و « تجرُبة » يضم الراء على النطق العامي السائر فكأنها ليست مصدر « جرب » على « تفعله » . ومثلها « قنبلة » يضم الباء بمفرد « قنابل » .

(٧) وربما تحول الجمع في هذه العربية الدارجة إلى مفرد في الاستعمال ومن ذلك استعمالهم « آونة » فكأنها تحولت عن جمع لـ « أوان » وهي لذلك تعقب

(١) الرضى ، شرح الشافية ٤ / ١٥٥ .

(٢) الزمخشري الكشاف ٣ / ٣٩٦ .

في الاستعمال أحيانا لفظ « طوراً » أو « حيناً » ولذلك أيضا خفيت على كثيرين من طلاب الدرس .

(٨) وقد يجمعون « حاجة » على « حاجيات » فيقولون « الحاجيات المنزلية » ولا ندري كيف جيء بهذه الياء .

(٩) وقد تتوهم صيغة الجمع في الفاظ منها : « أثاث » فيقولون : أثاث فاخر والصفة تشعر باستعمال الجمع . ودلالة « الأثاث » معروفة فهي تدل على مواد من ريش ومتاع . وفي كتب اللغة أن الأثاث المال أجمع ، الإبل والغنم والمبيد والمتاع . وقال الفراء : الأثاث لا واحد لها ، كما أن المتاع لا واحد له . وجاءت الكلمة في لغة التنزيل : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورثيا »^(١) وقوله : « ومن أصوافها وأوبارها وأشمارها أثاثاً ومتاعاً »^(٢) .

على أن هذا المعنى يثبت للكلمة في صورتها العبرانية وإذا تتبعنا فرائد العربية وجدنا شيئاً يدلنا على وجود هذه الكلمة في صورة أخرى في مادة عربية وهي « لات » النافية العاملة عمل « ليس » وكأن النحويين قد وقفوا على التاء في « لات » وفطنوا إلى أن النافية هي « لا » ثم ركبت مع التاء ، ولكنهم لم يهتدوا إلى حقيقة التاء فقد قال جماعة : أنها تاء التأنيث ، وقال آخرون : إنها للمبالغة ، وقالوا أنها لكليتهما^(٣) . والذي يرجحه التحقيق أن « لات » هي « لا ايت » ثم خففت وركبت على نحو ما ركبت « ليس » التي هي « لا ايس » و « ايس » تعني « وجود » فكأن « لا ايس » لا شيء ، ويدل على هذا أن العبرية « ايش » تعني وجود أو قل إن (شيء) مقلوب (ايش) .

ومثل (أثاث) في الأفراد (رفات) ولكن العربية الحديثة حملتها على جمع

(١) مريم ٧٤ .

(٢) النحل ٨٠ .

(٣) ابن عقيل ، شرح ألفية ابن مالك .

المؤنث لوجود الألف والتاء . والرفات الحطام من كل شيء تكسر . وفي التنزيل العزيز : « أئذا كنا عظاماً ورفاناً »^(١) وقد عرض هذا الخطأ للغة السيد أحمد الصافي النجفي يستعمل الكلمة جمعاً غير مرة في شعره .

(١٠) وقد منعت لغتنا الدارجة الحديثة — ولا سيما ما نسمعه على ألسنة المذيعين في العراق — الصرف عن الجموع على زنة « أفعال » فقد منعوا « ألوان » و « أغراض » وغير ذلك من الصرف وكأنهم حملوا ذلك على « أشياء » وما علموا أن في منع « أشياء » من التنوين كلاماً كثيراً لا نرى حاجة لنعرض له في هذا المكان .

مواد أخرى :

يقال الآن : « رجل مجرب » بصيغة اسم الفاعل وهو قياس صحيح ، فالرجل المجرب هو الذي عرف الأمور وجربها ، أما المجرب بالفتح فهو من جربته الأمور وأحكمته . والذي نعرفه أن الكلمة في صيغة المفعول هي التي تكلمت بها العرب وجاءت في كلامهم ، ولا بد أن نسجل هنا أن اللغة الحديثة عدلت عن اسم المفعول إلى اسم الفاعل وذلك لاختلاف النظر إلى الفعل وعلاقة الفعل بالفاعل من حيث الإيجاب والسلب وهذا لون من ألوان التطور اللغوي .

ندب :

الزمت العربية المعاصرة بصيغة « انتدب » في حالة التمديد والفصح المَشهور هو الفعل « ندب » يقال : ندب القومَ إلى الأمر يندبهم ندباً ، وندبت فلاناً ولا يقول : انتدبته . أما « انتدب » فهو فعل لازم يقولون : انتدبوا إليه أي أسرعوا ، وانتدب القومُ من ذوات أنفسهم أيضاً دون أن يندبوا له .

قال الجوهري في الصحاح : ندبه للأمر فانتدب له أى دعاه له فأجاب وفي الحديث : انتدب الله لمن يخرج في سبيله أى أجابه إلى غفرانه . ويتبين من هذا استعمال الفعل « انتدب » بمعنى « ندب » كما في عريبتنا الفصيحة شىء لم تجر به لغة العرب الفصيحة القديمة . ولم يشذ عن أصحاب المعجمات في هذه المادة إلا الفيومى في « المصباح المنير » فقد أثبت أن « انتدب » مثل « ندب » ولم يشر إلى مرجع يؤيده في هذا على غير عادته في ذكر المراجع .

استهتر :

والاستهتار الولوع بالشىء والمستهتر بزنة اسم المفعول المولع ، وفي الحديث المستهترون بفتح التاء الثانية المولعون بالذكر والتسبيح، وجاء في حديث آخر : هم الذين استهتروا بذكر الله أى أولعوا ومنه : إن لله ملائكة مستهترين به . وأريد أن أقف على هذه المادة بصيغتها في البناء للمجهول وبصيغة اسم المفعول لأسجل أن عريبتنا المعاصرة بنت الفعل للمعلوم وينبنى على هذا أن الوصف منه بزنة اسم الفاعل وليس بزنة المفعول ثم إن « المستهتر » في لغتنا الحاضرة الخارج عن القصد والتزيد من العبث واللاهو « فالستهتر » قد يكون المكثر من شرب الخمر والذي لا يحترم الحدود في عبثه ولهوه . وهذا التحول في المعنى والصيغة لون من ألوان التطور جاءت به عريبتنا الحديثة .

سهم :

السهم النصيب والقدح الذى يقارع به . واستهم الرجلان تقارعا . وساهم القوم فسههم سهماً قارعهم فقرعهم ، وأسهم بينهم أى أقرع . وهذا هو المعروف في كتب اللغة ، ولكن عريبتنا الحاضرة توسعت وأفادت من الاشتقاق فأخذت من « السهم » بمعنى النصيب « أسهم » أو (ساهم) بمعنى شارك وهذان الفعلان من المولدات الحديثة التى لا نجد لها في الفصيحة القديمة . وهذا التوليد باب يظهر غنى العربية في توليد الألفاظ للأفادة منها في معان جديدة اقتضاها عصرنا الحاضر .

احتج :

ترد هذه اللفظة في لغة السياسة في أيامنا فيقال مثلاً : « احتجت الحكومة الأردنية على الاعتداءات اليهودية المتكررة ». والمراد استنكرت الصنيع واعتبرته اعتداءً ورفعت بذلك شكوى إلى الهيئة الدولية . وورد « الاحتجاج » بهذا المعنى في لغة هذا العصر من الجديد المولد الذي حفلت به العربية . وهو مخالف للاستعمال في كتابات المتقدمين ، وعندهم « احتج بالشئ » واتخذة حجة ليس غير .

فالاحتجاجات كما يرد في الاستعمالات الصحفية جديد لم تعرفه العربية القديمة .

شجب :

يرد هذا الفعل في عريتنا الحديثة ولا سيما ما يكتبه أهل السياسة وأهل الصحافة فيقال مثلاً : « شجبت الصحافة العربية تأييد ألمانيا الغربية لإسرائيل والمراد أنها نددت بالتأييد واستنكرته . وهذا معنى جديد لم يرد في العربية قبل عصرنا هذا . وقد استعمل المتقدمون « شجب » بمعنى « حزن » أو « هلك » وقد ورد « شَجَبَ » بالفتح « يشجُب » بالضم شجوباً ، و « شجب » بالكسر « يشجب شجباً » فهو « شاجب وشَجِب » و « أشجبه الله » أهلكه . وليس في هذه المعاني ما يقرب مما نحن فيه من الاستعمال الحديث .

فشل :

وهذا الفعل من الأفعال الشائعة . في كتابات أهل هذا العصر ، وهو يعنى ما يعنيه الفعل « خاب » . يقال : فشل في مسعاه أو كانت نتيجة الفشل . والذي نعرفه من استعمال هذا الفعل لا يقرب من هذا . قال تعالى :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . والفشل في الآية الجبن أى تجنبوا عن عدوكم إذا اختلفتم . وفَشِلَ الرجل فَشْلاً ، فهو فَشِيل : كَسِيل وضعف وتراخى وجبن . ومن هنا تبين لنا بعد هذا الاستعمال الفصيح القديم عما نستعمله الآن .

خا بر :

وهذا الفعل يستعمل فيما يستعمل الفعل (أخبر) أى (أنبأ) وأكثر ما يخص الاستعمال هذا الفعل هو الإخبار بالهاتف « التلفون » يقال : خابره أى كلفه وأنبأه مستمعيناً بهذه الآلة ، وفى كل هذا ابتعاد عن الاستعمال الفصحى المشهور . والمخابرة من لغة الدواوين الرسمية فى أيامنا هذه فى العراق . يقال : جرت مخابرة فى شأن هذا الموضوع ، أى حدث سؤال وجواب ومكاتبة بين جهات عدة فى هذا الموضوع

والمخابرة فى الاستعمال القديم شئ غير هذا ، ولا يقرب منه فى شئ . فهى المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض . والخبث أن تزرع على النصف أو الثلث ، وهى المخابرة ، وهى الخبرة بكسر الخاء أيضاً . وعن رسول الله (ص) أنه نهى عن المخابرة . والمخابرة المؤاكرة ، والخبير الأكثر ، قال الشاعر :

تجزء رءوس الأوس من كل جانب كجزء عقاقيل السكروم خبيرها

عاش :

استعمل هذا الفعل استعمالاً جديداً فى أيامنا على طريقة المجاز ، يقال : عاش المسألة أو القضية أو المحنة أو الفترة ، بمعنى كابدتها واحتملها وخبر من نتائجها . وهذا الاستعمال كما يبدو نقل للأسلوب الأعجمى ، فى الفرنسية يقال : *Il a Veou* فى الكلام على شئ مثل هذا . وفى الاستعمال الفرنسى يتمدى الفعل بصورة مباشرة وقد انتقل هذا التعبير إلى العربية من الاستعمال الأعجمى فشاع هذا الفعل فى هذا الاستعمال الجديد إلى مشتقاته الأخرى كما فى قولهم : (الواقع الماش) بزنة اسم المفعول من غير الثلاثى ، وكان الصحيح أن يقال : المعيش بالرجوع إلى سيفعة الثلاثى .

هدف :

والهدف : الغرض المنشغل فيه بالسهام . والهدف : كل شئ عظيم مرتفع ،

وهو كل بناء مرتفع مشرف . هذا هو الذي نصت عليه مطولات اللغة ، والكلمة في عربيتنا الحاضرة من الكلمات التي كتب لها الشيوخ واستخدمت استخداماً كثيراً ، ومن أجل هذا توسعت اللغة فيها فأخذت من الاسم فملاً ثلاثياً هو (هدف) وهذا الفعل يتعدى بحرف الجر (إلى) فهم يقولون : (هذه الحركة تهدف إلى عدة أغراض) وكأنهم يريدون بذلك (تقصد) واشتقاق هذا الفعل واستعماله على هذا النحو شئ جديد لم يثبت في كلام العرب وهو من المولدات التي وجدت في لغتنا الحاضرة فقد كانوا يستعملون الرباعي من هذه المادة ، فالأهداف عندهم الدنو والقرب ، وأهدف الشئ دنا وقرب ، ومثله استهدف الشئ أى انتصب .

طمئن :

وهذا فعل جديد شاع في لغتنا الحاضرة وهو مضعف على (فعل) فيقولون (يطمئن الرغبات) أى (يكتفي الحاجات ويسد النقص) . وهذا الفعل لا وجود له في العربية الفصيحة القديمة ، وهو مولد على طريقة التضعيف والحزم من (طمأن^(١)) والطمأنينة والاطمئنان معروفان .

قرن :

ومن هذه المادة الفعل (قارن) وقارن الشئ الشئ مقارنةً وقرناً اقترن به وصاحبه . ولغتنا الحاضرة تستعمل الفعل (قارن) في قولهم : (قارن الشئ بالشئ) على نحو غير الذي أثبتته كتب اللغة وهو استعمال جديد . والمقارنة في لغتنا اليوم لا يراد بها الاقتران والمصاحبة وإنما يراد بها (الموازنة) فهم إذا وازنوا بين موضوعين من الموضوعات أحدثوا (المقارنة) بمعناها الجديد . والموازنة هي الكلمة

(١) لم يرد «طمأن» الرباعي على هذا النحو في معجمات اللغة وإنما ورد مقلوبه «طمأن» كما ورد المزيدي «اطمأن» وذهب سيبويه إلى أن «اطمأن» المزيدي بالهمزة والتضعيف مقلوب ومعنى ذلك أن الأصل هو «طمأن» وحجة سيبويه أن «طمأن» غير ذي زيادة . ويبدو لي من هنا أن «طمأن» بهذا الشكل جاء من «أمن» ثم زيدت الطاء على هذا النحو الذي لم يجر كثيراً في العربية .

المقتضاة في هذا الباب ، فقد عرفنا (الموازنة بين أبي تمام والبحري) للآمدى وهو من الكتب الشهيرة في النقد والبلاغة .

والاستعمال الحديث في موضوع (الأدب المقارن) هو من تحميل مادة (المقارنة) هذا المعنى الجديد فالموازنة فيما أسموه بالأدب المقارن حاصلة موضوعا وتطبيقا .

مبرر :

ومن هذه المادة فعل مضعف هو (برّر) على (فعل) وهو من الأفعال الشائعة التي حفلت بها لغتنا الحديثة فهم يقولون مثلاً : (الغاية تبرر الوسيلة) أى تجوزها . وهذا شئ جديد لم يرد في كتب اللغة .

عوض :

والعوض البديل . وهذه الكلمة لا تتبع إلا بحرف الجر «من» فيقال «عوض من» على أننا لا نقول إلا : « عوض عن » فى عربيتنا السائرة الدراجة . ومثل هذا التجاوز فى استعمال حروف الجر قد حصل كثيراً فى لغتنا الحاضرة بحيث خفى الصواب فى أفعال كثيرة وسنعرض لجملة من ذلك .

كلم :

ومن هذه المادة يرد الفعل « تكلم » فيمدونه بحرف «عن» والوجه فيه أن يقال : « تكلم على الشئ » و « الكلام على الشئ » ولا نقول : تكلم عن الشئ كما هو شائع فى لغتنا الحاضرة.

جوب :

وفى هذه المادة يرد الفعل « أجاب » فيمدونه بحرف الجر «على» والوجه فيه أن يقال : « أجاب عن السؤال » و «الجواب عن السؤال» ولا نقول : أجاب على السؤال كما هو معروف فى لغتنا الحاضرة .

ضلع :

ومن هذه المادة يرد الفعل « تَضَلَع » فيعدونه بحرف الجر « الباء » فيقولون : « تَضَلَعُ بِالشَّيْءِ » والوجه أن يقال : « تَضَلَعُ مِنَ الشَّيْءِ » و « هو ضليع من الشيء » .

عمق :

ومن هذه المادة يرد الفعل (تعمق) وهو من الأفعال التي تتعدى بنفسها في لفتنا الحديثة ، فيقولون (تعمق الشيء) والوجه أن يتعدى بحرف الجر (في) فيقال : (تعمق في الأمر) .

بدل :

والفعل من هذه المادة (بَدَّل) فضعف على وزن (فَعَّل) وتبدَّل و (استبدل) وهذه الأفعال ترد في لفتنا العربية في عصرنا الحاضر وهم يستعملونها على النحو الآتي : (بدل الكتاب بكتاب آخر) و (استبدل الشيء بشيء آخر) وحرف الجر في هذا الاستعمال يباشر ما أخذ عوضاً من الشيء . وهذه الاستعمال لا يجري على ما جاء في لغة التنزيل فقد جاء في قوله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ^(١)) وفي قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ^(٢)) .

وفي قوله تعالى : (ومن يتبدل الكفر بالإيمان ^(٣)) وفي قوله تعالى : (قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ^(٤)) . على أن هذا الفعل قد يأتي في لغة التنزيل دون أن يتعدى بالحرف : (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ^(٥))

(١) الأحزاب ٥٢ .

(٢) النساء ٢ .

(٣) البقرة ١٠٨ .

(٤) البقرة ٦١ .

(٥) النور ٥٥ .

كفء:

الكفء : النظير وكذلك الكُفء والمصدر الكفاءة بالفتح والمد ، ويقال لا كفء له أى لا نظير له وهو فى الأصل مصدر . ومن الكُفء الكفاءة فى النكاح ، وهو أن يكون الزوج مساوياً للمرأة فى حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك . وهكذا فإن المعنى الذى تنصرف إليه هذه المادة وهو المساواة حاصل فى كثير من المشتقات غير أن عربيتنا الحاضرة قد عدلت عن هذا المعنى وصار الكفء فيها هو (الكافى) التقدير فيقولون : هو كفء فى عمله أى قادر ذو كفاية وكان الصحيح أن يقال : هو كاف فى عمله . وعلى هذا فإن (الكفاءة) قد أخذت هذا المعنى المولد الجديد وهو القدرة على الشئ و (فلان ذو كفاءة) يراد به (ذو كفاية) .

والكفاية هى المتطلبة فى هذا الاستعمال فقولهم : (رجل كافٍ وكفى) أى يكفى الأمر ، ويقال : رجل كافيك من رجل .

وأرى أن سبب هذا الهم الذى أدى إلى أن يكون (الكفء) (كافيا) عدم فهم الكلمة حين وردت فى كلام الله تعالى فى سورة الاخلاص : (ولم يكن له كفوا أحد)^(١) وقد وقعت الكلمة منصوبة خبراً (كان) وقد سهلت الهمزة إلى الواو فصارت الكلمة ترسم بالواو خطأ (كفؤ) وقد حرف معناها إلى معنى (الكافى) الذى أشرنا إليه .

ومن الخطأ فى الرسم بالواو وانحراف الهمزة عن مكانها على الواو تولدت كلمة جديدة لا وجود لها فى مفردات العربية وهى (كفوء) على وزن (فمول) للدلالة على معنى القدرة والجدارة فقد قالوا : (فلان كفوء بين أقرانه) ثم حلا للمتكلمين بهذه اللغة أن يؤثثوا الكلمة فيقولوا : (العناصر الكفوءة) وهكذا فقد ولد الخطأ فى الرسم كلمة مولدة جديدة شاعت فى كتابات أبناء هذا العصر ولا تعدم أن تجدوها فيما يكتبه المتأدبون .

(١) الإخلاص .

سبق :

نقرأ في لغة الدواوين الرسمية في العراق كلمة (مُسَبَّق) وهي بزنة اسم المفعول المشتق من الرباعي (أسبق) فيقال مثلاً : (وكانت النتائج قد نشرت مسبقاً) والكلمة تستعمل ظرفاً . وإذا نظرنا إلى الفعل الرباعي (أسبق) في كتب اللغة وجدناه في قولهم : (أسبق القوم إلى الأمر وتسابقوا بادرُوا) وهذا الاستعمال بعيد عما يستعمل في لغة الدواوين الرسمية في أيامنا .

فنى :

يقال : (التفانى في سبيل الوطن) والمراد : بذل النفس في سبيله ، وحقيقة التفانى لا تفيد هذا المعنى الذى شاع في عربيتنا الحاضرة ، فإذا قلنا (تفانى القوم) فالمراد قتل بعضهم بعضاً .

وعى :

وشاع عند ما يقرب من سنتين مصدر جديد هو (توعية) على أن فعل هذا المصدر المضعف (وعى) لم يشع بل لم يعرف . وهذا المصدر وفعله من المولد الجديد في عربيتنا الحاضرة . وقد استعملت ، (التوعية) لفرض سياسى فالمراد منها (إيقاظ الجمهور) وتنبيهه (نحو الوطنية الجديدة القائمة على الاشتراكية والنظم الاجتماعية الأخرى .

كتف :

ومن هذه المادة الفعل (تكاتف) وهو مادة جديدة استعملت في العربية الحديثة ، ولا أحسب أنه استعمل في الفصحى المأثور من العربية ، وقد خلت معجمات اللغة من هذا الفعل ، ولكن اللغة الحديثة تفيد من الاشتقاق فتتوسع فيه لمعنى من المعانى . ومن المفيد أن نقول : إن علاقة المعنى الجديد للفعل

(تكاتف) بالأصل وهو (كتف) من مفردات (خلق الإنسان) مفهومة معروفة .

ضمن :

ومن هذه المادة الفعل (تضامن) والمصدر (تضامن) والفعل والمصدر من المواد التي تشيع في لغة الجيل الحاضر بمعنى (الاتحاد) فيقال مثلاً : (إن الأمة بتضامنها تبلغ الآمال) . ومعنى (التضامن) في الفصيح المأثور (التكافل) وبعيد ما بين (الاتحاد) و (التكافل) ومادة (ضمن) تعنى (كفل) و (الضمين) (الكفيل) . ويبدو في هذا أن (التضامن) بمعنى (الاتحاد) شيء من المولد الجديد الذي جاءت به لغة العصر .

إخصائي :

يراد بالإخصائي الاختصاصي أو المختص ، والكلمة تستعمل وصفاً لأصحاب العلوم والفنون فالطبيب الإخصائي هو الاختصاصي بمرض معين وكذلك يقال عن أصحاب العلوم الأخرى . ومن المفيد أن نذكر أن (إخصائي) لا يمكن أن تسد سد الاختصاصي ولا يفهم منها ذلك إلا على سبيل شيوخ الخطأ . فليس في مادة (خصص) شيء من هذه الكلمة . وإذا أردنا وجه الصواب فلا بد أن نقول : إن (الإخصائي) منسوب إلى (الإخصاء) وفرق بين (الاختصاص) المطلوب لأصحاب العلوم (والإخصاء) مصدر أخصى يخصى باعتبار الفعل رباعياً وإن كان الثلاثي (خصى) هو الثابت الصحيح والمصدر إخصاء بالكسر والمد .

رئيس :

والوصف بـ (الرئيس) معروف كثير في عريقتنا الحاضرة ، يقال : (السبب الرئيسي) و (العنصر الرئيسي) وغير ذلك . والذي أراه أن الوصف المنسوب غير

صحيح ، والوجه أن يقال : (السبب الرئيس) دون نسبة (الرئيس) ولا حاجة هنا إلى أن ينسب الشيء إلى نفسه ، وأكبر الظن أن هذه الصفة المنسوبة هي من بقايا ماورثته العربية من المصور التركية ، لأنه ليس المراد بهذا الوصف المنسوب كوناً خاصاً بـ (الرئيس) ، فليس هو مثل الوصف بـ (الأساسى) المنسوب إلى (الأساس) . وإنما هو مثل قولهم (السبب المهم) .

حياتى :

وتساهل أهل هذا العصر في لغتهم حتى ارتكبوا الخطأ فقد نسبوا إلى (الحياة) قالوا (حياتى) دون النظر إلى ألف الحياة وعلامة التأنيث فكما ينسبون إلى (وطن) ويقولون (وطنى) وكذلك نسبوا إلى (حياة) فقالوا : (حياتى) وكأن (حيوى) ليست نسبة إلى (حياة) وقد بلغ من شيوع الخطأ أن صارت وزارة التربية التى تشرف على صيانة العربية تجعل في منهاج المدارس الابتدائية (العلوم الحياتية) . وربما كان (وحدوى) أخف وطأة من هذا الارتكاب الشنيع .

مصون :

اسم المفعول من (صان) وكان هذه الكلمة في لغة الجرائد على وزن مفعول توهماً على الخطأ ، ومعلوم أن (فمول) يستوى فيها المذكر والمؤنث نحو عجزوه وغيره ، ولذلك فقد كتبوا في الصحف في الأخبار عن عقد قران مثلاً : جرى يوم أمس عقد قران السيد فلان على الآنسة المصون . . . ! وقد جر التوهم إلى أخطاء كثيرة ولذلك ينبغي ألا ينصرف الذهن إلى التوهم الذى أحدث مواد لغوية نحو توهم أصالة الياء في (قيمة) فقالوا في الفعل (قيّم) بدلا من (قوّم) ومثله (عيّد) من (عيّد) .

أما التوهم الذى نبأشره فهو من الأخطاء نحو توهم الياء أصلية في (يحيك) والذى جر إلى هذا (الياء) في المصدر (حياكة) . ومثله الواو في (سُواح) بدلا

من (سُيَّاح) والعدول عن الياء إلى الواو في هذا الجمع كان بسبب ضمة السين .
التي اجتلبت الواو من أجلها خطأ .

لا زال :

من أفعال الاستمرار ومجىء (لا) قبل (زال) الفعل الماضي يحضها للدعاء
كما هو في العربية . قال ذو الرمة :

ألا يا أسلمى يادارمى على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

على أن هذا الدعاء لم تحتفظ به عريتنا الحاضرة . وأن متأدبى عصرنا
لا يميزون بين (لا زال) و (مازال) فيقولون : لازالت الأنباء تتوارد) .

والأنكى من ذلك :

وهذا خطأ آخر في استعمال اسم التفضيل ، فالعلوم أن اسم التفضيل إذا كان
على بالآلف واللام لا يؤتى بالمفضل عليه مجروراً بمن ، فالصحيح أن يقال :
(والأنكى ، والأحر ، والأدهى) دون الإتيان بالمفضل عليه مجروراً بمن ولا حجة
بالشاهد النحوى :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكائر

فقد خرج على أن (من) ليست تفضيلية بل للتبميز أى : لست من بينهم
بالأكثر حصى .

ومعظم الأسباب تؤكد . .

هذا باب عود الفعل على المضاف إليه وهو غريب في العربية الفصيحة إلا في
شواهد سنمرض لها . أما في العربية المعاصرة فهو استعمال شائع . ولغة اليوم في
الصحيفة والإذاعة والمقالة الأدبية تعطى مئات الشواهد على ذلك .

أما في المأثور النصيح فنه قوله تعالى : (وكنتم على شفا حفرة من النار .
فأنقذكم منها)^(١).

وقال جرير :

رأت مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال
وقال آخر :

وما حب الديار شغفن قلبي

وقال العجاج :

طول الليالي أسرع في تقضى طوين طولى وطين عرضي

ما دخلت الدار إلا ورأيت الطفل يلهو :

هذه جملة صدرت بالنفي ثم جىء بـ (إلا) بعدها وهي متلوة بالواو التي تفيد الحال . وهذه الواو ترد كثيراً في مثل هذه الجملة في لغتنا الحاضرة وربما وجدت في لغة العصر العباسي ولكن لغة التنزيل قد خلت من هذا الاستعمال . جاء في قوله تعالى : (ما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين)^(٢) وفي قوله تعالى : (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)^(٣) . وفي قوله تعالى : (وما يأتيهم من ذكر الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين)^(٤) .

الجملة الواقعة في جواب إذا الفجائية :

هذه الجملة تكون اسمية وهي لغة هذا العصر تكون مصدرة بـ (باء) زائد

(١) آل عمران ١٠٣ .

(٢) الأنعام ٤ .

(٣) الحجر ١١ .

(٤) الشعراء ٥ .

إذا كان المبتدأ ضميراً نحو : (خرجت فإذا به واقف في الباب) ، وقد خلت لغة التنزيل من هذه الباء في مثل هذا الاستعمال . فقد جاء في قوله تعالى : (ثم تقبح فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)^(١) وفي قوله تعالى : فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون)^(٢) .

اجتماع الشرط والقسم « لئن »

قالوا : إن اللام في « لئن » موطئة للقسم ومعنى ذلك أن الجواب لا بد أن يكون للقسم نحو قول الشاعر :

فلئن عفوت لأعفون جلاً
ولئن وهنت لأوهن عظمى

ثم قال النحويون : وقد جاء قليلاً ترجيح الشرط على القسم عند اجتماعهما وتقدم القسم ، وإن لم يتقدم ذو خبر ، ومنه قوله :

لئن منيت بنا عن غيب معركة
لا تلفنا عن دماء القوم ننتقل

أقول : إن هذا الاستعمال غير قليل وترجيح الشرط على القسم عند اجتماعهما وتقدم القسم وارد عند عصور العربية الأولى .

قال عمر بن أبي ربيعة :

لئن كان ما حدثت حقاً فما أرى
كمثل الألى أطريت في الناس أربما

وفي العصر العباسي نجد أبا تمام في مثل هذا المقام يأتي شعره على نحو ما أقره النحويون في استعماله « لئن » . قال يمدح محمد بن يوسف الطائي :

لئن عمت بني حواء قعماً
لقد خصت بني عبد الحميد

(١) الزمر ٦٨ .

(٢) الصافات ١٩ .

وعلى هذا جرى في جميع قصائده . غير أن البحترى في جميع قصائده يجعل
الجواب في مثل هذا الاستعمال إلى الشرط ، فهو يقول :

لئن صنت شعري عن رجال أعزّة فإن قوافيه بوصفك أليق

أما في شعر الشريف الرضى فالأسلوبان قد وردا ، فهو يقول :

لئن راب مني ما يريب فإني على عدواء الدار غير مريب

وقوله :

لئن فارقتهم وبقيت حياً لقد فارقت أيام الشهاب

أما شعراء هذا العصر فهم يحملون الجواب في مثل هذا المكان للشرط
ولا عبرة في هذه اللام الموطئة للقسم .

في الاستفهام :

يستفهم كثيراً بـ « ما » وبـ « من » من أدوات الاستفهام . وقد يحصل
أن يتوسط ضمير النية المنفصل بين اسم الاستفهام والمستفهم عنه فنقول :

« ما هي المسألة ؟ » و « ما هو السبب ؟ » و « من هو المسئول » وهذا
الأسلوب شائع كل الشيوع في عريتنا السائرة ، غير أن الاستقراء لا يؤيد هذا
الاستعمال ، والإيجاز الذي هو صفة العربية في بلاغتها يأبى هذا الحشو . قال تعالى
« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ^(١) » . وقال تعالى : « قالوا ادع لنا ربك
يبين لنا ما هي » ^(٢) .

لا يتفق والحالة الراهنة :

الواو في هذه الجملة للمية ومعنى هذا أن الاسم التالي لها منصوب على أنه

(١) البقرة ٦٩ .

(٢) البقرة ٦٨ .

مفعول معه ، ومثل هذه الجملة وكثير غيرها مما يكون فيها الفعل دالاً على المشاركة. وهذه الأفعال لا يمكن أن تأتي بعدها واو للمعية وإنما تتمحض هذه الواو إلى المطف . وإذا صح المطف فلا يمكن عطف اسم ظاهر على ضمير مستتر وإنما يجب أن يؤكد هذا الضمير المستتر بضمير منفصل حتى يتم المطف نحو :

(لا يتفق هو والحالة الراهنة) . ولكن الجملة كما أثبتناها في أعلاه شائعة في لغتنا الحاضرة .

وبعد فهذه جملة مواد أجريت فيها تحقيقات لغوية لأسجل شيئاً من التاريخ اللغوي وكيف يعرض له التبدل والتطور سلباً وإيجاباً .

الفصل الحادي عشر

الثقافة العامة في التاريخ

كشف البحث العلمى عن صلة اللغة بالإنسان وبيئته ، فهى تظهر المجتمع الإنسانى على حقيقته . وقد اهتم بموضوع اللغة العلماء المختصون فى العصور الحديثة كما بحثه الأقدمون فكتبوا فيه على الطريقة التى سلكوها فى علومهم القديمة . على أن غير قليل من غير ذوى الاختصاص فى موضوعات اللغة قد بحث فى الموضوع نفسه فى خلال دراساتهم . ومن هؤلاء علماء الاجتماع وعلماء النفس والفلسفة وآخرون غيرهم . وليس عجباً فقد بحث الفلاسفة الأقدمون فى موضوع اللغة . وكانت اللغة موضوعاً فلسفياً عندهم ، وللموضوع جوانب كثيرة وأبواب متعددة فاللغة أساس كل أنواع النشاط الثقافى (وهى بذلك خير دليل يهتدى به الباحث إلى معالم أى من المجتمعات الحديثة) . ففى كل مجتمع مهما كانت طبيعته وسعته ، تشغل اللغة مكاناً ذا أهمية أساسية ، إذ هى أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع ، وهى فى الوقت نفسه رمز إلى حياتهم المشتركة وضمآن لها .

فما الأداة التى يمكن أن تكون أكثر كفاية من اللغة فى تأكيد خصائص الجماعة ؟ فهى فى مراتبها ويسرها ، وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعانى تصلح لاستعمالات متشعبة ، وتقف موقف الرابطة التى توحد أعضاء الجماعة فتكون العلاقة التى بها يعرفون والنسب الذى إليه ينتسبون .

ولست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بيمينه ، وإنما هى عامل مهم للترابط بين جيل وجيل ، وانتقال الثقافات عبر العصور لا يتأتى إلا بهذه الوسيلة . ومن أجل هذا كان من السهل على الباحثين أن يكتبوا تاريخاً واضحاً للكثير من اللغات

الحديثة ، بادئين بأقدم صورة للغة ، متعمقين التطور التاريخي لها ولذلك استطعنا أن نقف اليوم على البحوث القيمة في هذا الموضوع .

ولقد كان لما لينوفسكي العالم الأنثروبولوجي فضل كبير في لفت الأنظار إلى مفهوم جديد في اللغة فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات التي اصطلح عليها بالمجتمعات (البدائية) أو (الفطرية) أو (الوحشية) أن دراسته لن تصبح دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في المجتمع . قرر ما لينوفسكي بعد قيامه بهذه الدراسات في هذه المجتمعات ، أن اللغة لم تكن مجرد وسيلة للتفاهم والاتصال فهي حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنظم ، وأنها جزء من السلوك الإنساني ، وهي ضرب من العمل ، وليست أداة عاكسة للفكر . ويرى أن العمل الإنساني هو أصل مختلف الظواهر والنظم الاجتماعية ، وتبرز نظريته في الصلة بين العمل واللغة ويرى أن مواقف العمل هي التي تعمل في تنوع اللغة ، وهو يسجل في دراساته لمختلف قبائل أستراليا وجزر الهند الغربية أن للصيادين لغة تختلف موسيقاها عن موسيقى لغة الزراعين ، والألغاز تدور في سهولة وخفة مع العمل اليسير ، وتعتقد بتعمد العمل .

ومعلوم أن لكل زمن أو بيئة ذوقاً خاصاً في استعمال ألفاظ اللغة ، ويبدو ذلك في أدب الأمة ولا سيما في الجانب الشعبي منها ، ولا يمكن أن نطبق ماتواضع عليه الناس في أساليب الذوق في هذا الباب في زمن معين ، على لغة أو لهجة في زمن آخر أو بيئة أخرى .

ولا بد أن نمرض لرأى آخر في تفسير موضوع اللغة واجتماعيتها فهذا ابن خلدون يعرض في مقدمته لموضوع العلوم اللسانية فيقول في نشأة لغة الأمصار في اللغة الأولى وهو على معرفة تقسية بأثر اختلاف البيئات على الظواهر الاجتماعية التي منها اللغة وإليك قوله « وإن كلا منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده ، والإبانة

عما في نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم » . ويقول أيضاً بعد عرضه لطائفة من فنون الشعر في هذه الأمصار : « والكثير من المنتمين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ، ويعج نظمهم إذا أنشدوا ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم (ويقصد بذلك العلماء) فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم (ويقصد بذلك الشعوب) لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظيره ، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة .. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة ، وإذا طبقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك . وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر » .

ونريد الآن بعد هذا العرض أن نخلص إلى لغة الناس العامة لتبين الجو العام والثقافة العامة ، ولعل النصوص التي عثرنا عليها على قلتها تشير إلى هذا الذي نريد أن نتبينه . والنصوص قليلة وقلتها راجعة إلى أن هذه اللغة وهذا الأسلوب لم ينظر إليهما بما يستحقانه من احترام ، فقد غلب النظر إلى الفصيحة ، وأسباب ذلك معروفة سنشير إليها في هذا العرض التاريخي .

كان للحدث القرآني تأثيره العظيم في العربية ودفعها خطوات فسيحة إلى الأمام ، فقد عملت لغة التنزيل على توحيد هذه اللغة ، ومعلوم أن الأمصار كانت تقرأ القرآن قراءات مختلفة ، وسبب هذا الاختلاف أن لغات الأقاليم قد فعلت فعلتها في الموضوع ، فما كان من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان إلا أن يعملوا على توحيد هذه القراءات ليكون المسلمون إجماعاً على لغة واحدة . فقد منع عمر عبد الله بن مسعود أن يقرئ الناس بلغته الهذلية حين سمع أحدهم يقرأ الآية الخامسة والثلاثين من سورة يوسف (ليسجننه عتي حين) بدلاً من (حتى حين) .

ولم يكن شيوع اللهجات العامية مختصا بمصر دون آخر ، أو قل إن مشكلة الفصحى والعامى قائمة فى كل عصر فى التاريخ الإسلامى . ولا نستطيع أن نمد شيوع اللحن دليلا على نشوء العامية فقد عرف اللحن فى أوائل العصر الإسلامى ، وقد ظهر على السنة الطبقة المثقفة المتعلمة فى الأخبار أن عمر بن الخطاب قد أدب أولاده بسبب اللحن وأن عبد الملك بن مروان كان يحذر أبناءه من اللحن . فإن اللحن فى منطق الشريف أقبح من آثار الجدري فى الوجه . وقد أشار الأصمى إلى اللحن فى لغة مالك بن أنس التوفى سنة ١٧٩ هـ ومعلوم أن مالكا هذا يحتل مكانة عالية بين الطبقة المثقفة والذى يرجع إليه فى مسائل كثيرة . وأحسب أن القارىء يعرف الشيء الكثير عن مالك بن أنس فلا حاجة بنا إلى التعريف به فهو معروف مشهور ومثل مالك هذا فى اللحن على منزلته ومقامه . أيوب السختياني فقد كان يلحن حتى فى كتاب الله .

وقد فطن النحاة إلى أن اللحن قد عرض لقراء القرآن ، فهم يعيرون على نافع مقرئ أهل المدينة أنه قرأ (معائش) بالهمزة وكان حقا أن تقرأ بالياء . ولم يكن وضع قواعد النحو يعجد فى التزام القوم بالفصحى وعدم الأخذ بالدارج وغرض الواضعين معروف فهو حفظ لغة التنزيل أن يتسرب إليها اللحن والأخذ باللغات الإقليمية ، وقد مر الشعبى (المتوفى سنة ١١٠ هـ) على قوم من الموالى يتذاكرون النحو . فقال : لئن سلمتموه إنكم لأول من أفسده وكان شيوع اللهجات بحيث أن القراءات الشاذة استمرت بالرغم من إلزام الناس بالأخذ بما أجمع عليه المسلمون وبالرغم من منع أصحاب الأمر القراءات الأخرى كما مر بنا . فقد عرفنا فى القراءات الشاذة الشيء الكثير من تأثير اللهجات فى قراءات القرآن . وكتب التفسير حافلة بهذه القراءات . فقد ذكر أن أحدهم قرأ على طريقته ولهجته « ولا تقربا هذه الشجرة » بكسر التاء بالفعل . ثم أن آخر قرأ « ولا تقربا هذه الشجرة » بكسر الشين وابدال الياء بالجيم ، وهذه المخالقات للفصحى المعروف معروفة فى اللهجات

الإقليمية وما زال هذا الإبدال حتى يومنا هذا في كثير من الجهات في القسم الجنوبي من العراق :

وقد أسلفت أن اللهجات الخاصة قد رافقت الفصحى في سائر عصور العربية ، ولعل ذلك كان سبب الدعوة القائلة بوجود المشكلة ، ولا يحسب القارىء أن المشكلة اللغوية وما ينتج عنها من مشكلات ثقافية هي وليدة عصرنا الحديث ، فهي قديمة كما عرفنا ذلك في البحث اللغوي التاريخي ، ولكننا نستطيع أن نقول إنها اليوم أعقد مما كانت بالأمس وذلك لأن المجتمع العربي يواجه حضارة معقدة تلزمه أن يكون مزوداً بآلات للأخذ بنواحي هذه الحضارة المتعددة الأطراف ، ومن هذه الآلات والأدوات مسألة اللغة فلا تغنى لهجة اليوم الدارجة كما أن الفصحى لم يعد اللغة التي يملكها الناس ويتصرفون في أمرها ، ولذلك فالتعلم والتلقين واجب .

وقد كنت أحصى من هذه النصوص العامية في لهجاتها الدارجة ما أقع عليه في هذا البحث التاريخي ، وقد عرفنا أن اللغة العامية كانت معروفة في أيام العربية الأولى ، ولا أريد بالعربية الأولى العصور التي سبقت الإسلام وظهور النبوة فتلك حقبة لا نعرف من أمرها الشيء الواضح الذي يمكن أن يكون أساساً للبحث ومعلوم أن العربية بدع بين اللغات القديمة ، وذلك أننا لا نعرف عن طفولتها شيئاً نجعله مادة أصيلة في البحث بحيث نقيم من هذه الركائز بناء يظهر التاريخ اللغوي العام لهذه اللغة .

ولكن أقول إن العامية عرفت في أيام الخليل بن أحمد وأضرابه من النحويين واللغويين ، وقد نسب للكسائي النحوى أنه ألف رسالة في لحن العامة . وقد ذكر صاحب الأغاني أن سبب نسبة المغنى المشهور إبراهيم الموصلى إلى الموصل أنه كان يغنى متى شرب وهو يروى هذين البيتين :

أناجت من طرف الموصل	أحمل قلل خمر يا
من شارب الملوك فلا	بدمن سكر يا ^(١)

وواضح من هذين البيتين أنهما باللسان الدارج الذى كان الموصليون يستعملونه
وسمع إبراهيم بن سفيان الزياى النحوى المتوفى سنة ٢٤٩ مغنيا يغنى أبياتاً
فقال له :

لمن هذا الشعر أصلحك الله ؟ فقال له المغنى ! « لى ياسيدى وأنا جوان
ابن دست الباهلى سيدى » فقال : « إيش عليك من ذا يا سيدى » قلت : فردد
الصوت. قال تريد « تقشمة » « كنك » عقاب أو (كنى) ما أعرفك ؛ ما تركت
على كبد ابن عمى الأصمى الماء وقد جيت إلى ، طارت فراخ برجك طارت .

ولا بد لى أن آتى على كتاب «البخلاء» فأقول فيه شيئاً فقد حكى الجاحظ
عن زمرة من البخلاء وكان سبيله أن يولد الأحاديث على السنة هؤلاء وهو فى هذه
الاحاديث يكشف عن الأوساط العامة التى يحيمون فيها . وفى طوق الجاحظ أن
يصور البيئة العامة أو قل يوحى إليك وأنت تقرأ أحاديث البخلاء البيئة الفقيرة
الشحيحة ذلك أن الجاحظ نفسه قد عاش فى بيئة معدمة فقيرة فقد شوهد فى أيام
طفولته وصباه يبيع الخبز والسمك فى سيحان . وهو يحاول أن يستعيد البيئة العامة
بملحها وخرفها وتقاليدها . ولنسمعه يقول : (وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً
أو كلاماً غير معرب ولفظاً معدولاً عن جنه فاعلموا أننا تركنا ذلك لأن الإعراب
يبنض هذا الباب ويخرجه من حده إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء
وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباههم . ولم يقتصر على استعمال اللحن
والكلام غير المعرب واللفظ المعدول عن جهته وإنما أوحى بهذا المذهب فقال :-
(ومتى سمعت - حفظك الله - بنادراً من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها مع إعرابها
ومخارج ألفاظها فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخرج كلام الولدين
والبلدين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير وكذلك إذا سمعت بنادراً
من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطنام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب
أو تتخذها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً فإن ذلك يفسد الإمتاع بها

ويخرجها من صورتها ويذهب استطابة الناس لها . وانت تحس حين تقرأ « البخلاء » كيف يقضى سواد الناس سحابة يومهم فهو يقول على لسان صاحب الدار المؤجرة وهو يشكو الساكن من إتلافه للدار « ويدق على الأجزاء والحواضر والرواشن » ولا يكتفى الجاحظ بالجو العامى بالعبارة أو اللفظة بل يتعداه إلى القول العامى ينقله كما هو على ألسنة الناس وربما جاء بالذخيل الأعجمى المستعمل في لهجاتهم فقد ذكر التشريب والرزة والجله والتريد والبوش والمهريسة والكرنبية والفجلية والبالوعة والغموس والدوشاب وغير هذا مما هو كثير في البخلاء . وقال : -
 (فقال لو خرجت من جلدك لم أعرفك) وترجمة هذا الكلام بالفارسية « أكراز پوست پارون بیائی نشتناسم » . قال أحد المراززة البخلاء لصديقه المراقى الذى زاره فى مدينة مرو وكان هذا المروزي قد أظهر النبأ والجهل التامين كى لا يعرف صديقه المراقى نخافه أن يدعو له للغداء . وقال محدثا عن الكندى أحد بخلائه وكان هذا صاحب دور للسكن إذ يقول له : - وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقبال وجذب الأقال تهشمت الأبواب وتقلقت الرزات وإذا كثر الصبيان وتضاعف البوش ونزعت مسامير الأبواب . والرزة من ألفاظ المعجم فى حين أن « البوش » من الألفاظ العامية التى لا تشير إليها المعجمات . وقال الجاحظ على لسان البخيل الكندى : - فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئا حلف بالغموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله وحلف بالزاد والطعام مما هو داخل فى العقلية العامية ومازال العوام فى أيامنا يقسمون بهذه الأقسام . ولا بد من الإشارة إلى المصطلحات العامية التى أشار إليها الجاحظ فى حديثه عن البخل : -
 قال أبو فاتك : « التتى لا يكون نشالا ولا نشافا ولا مرسلا ولا لكاما ولا مصاصا ولا نقاضا ولا كا ولا مقورا ولا منربلا ولا محملقا ولا مسوغا ولا ملنما ولا مخضرا فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطاع القطاع والنهاش والداد والدقاع والمحول » وهذه الألفاظ مما حملها العوام معنى لا تشير إليها المعجمات وكتب اللغة .

ويشرح الجاحظ مفسراً المخطراني فيقول : « إنه الشخص الذي يفتح فاه كما يصنع من يتشاءب فلا ترى له لسانا البتة . وهكذا نستطيع أن تتبين في كتب الجاحظ مادة غزيرة في الثقافة العامة وأنها خير مصدر لمعرفة البحث اللغوي التاريخي .

الفصل الثاني عشر

الأصول التاريخية للعامة البغدادية

في «ألف ليلة وليلة»

كتاب «ألف ليلة وليلة» قد شغل الناس واستمتعوا به في مختلف أقاليم هذه المعمورة. وقد أعجب به الأوروبيون أيما إعجاب، وصار من كتبهم المفضلة، فترجموه إلى لغاتهم، واهتم به المستشرقون اهتماماً بالغاً منذ أن بدأ «أنطوان كالاند Antoine Galand» المتوفى سنة ١٧٥١ م بترجمته إلى الفرنسية، وعن هذه الترجمة أخذت الترجمات الأخرى. ولا أراني إلا آتياً بالحديث المعاد إن أشرت إلى اهتمام سائر الذين عنوا بهذا السفر النفيس أمثال (فون هامر Von Hammer المستشرق النمساوي، و «سلفستردى ساسي» Sylvester de Sacy) وغيرهم من الأعلام. ولعل اهتمام هؤلاء الأعاجم المستعربين بالكتاب قد نبه الشرقيين ولا سيما العرب منهم إلى العناية بهذه «الليالي» الممتعة التي أقبل عليها الناس كل حين مستمعين. أعجب بها العامة كما أعجب بها الخاصة حتى دخلت في نماذج الأدب العالمي، وأثرت في آداب كثير من الأمم منذ مطلع القرن الثامن عشر للميلاد، حتى لقد أثر عن الفيلسوف الفرنسي «Voltaire»: أنه لم يتصد للكتابة إلا بعد أن قرأ هذا الكتاب أربع عشرة مرة. كما أن أحد مشاهير الكتاب الفرنسيين تمنى أن يمحو الله من ذاكرته «ألف ليلة وليلة» حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته. ومن هنا كانت هذه «الليالي» مصدراً من مصادر الأدب العام، وهي من أجل ذلك تدخل في مادة «الأدب المقارن» ومنهجه.

وإذا عدنا إلى هذه «الليالي» وجدناها تعكس الحياة الاجتماعية بجلاء

ووضوح ، ومن الثابت أن هذا « الكتاب » لم يكن ثمرة فترة واحدة من فترات التاريخ الحضارى ، وإنما كان تسجيلاً لفترات مختلفة ، كما أنه لم يخص مكاناً بعينه بل اتصل بكثير من بلاد المشرق القديم . وليس من حاجة إلى إثبات هذه الحقيقة المألوفة .

يمثل الكتاب حياة عامة الناس ، كما يصور حياة الخاصة منهم ، وهو عندما يتناول قصص الوزراء والنبل والأشراف والقضاة والأمراء والخلفاء ، يذكر إلى جانب ذلك الحمال والبقال والدجال والساحر ومروض الأسود والتمور ، كما يذكر العبيد والخدم والإماء ، وتبدو المرأة في « الليالى » في صورة اجتماعية خاصة ، فالحديث عن كيدها ومكرها كثير ، وربما عكست « الليالى » عطاءً من حياة المرأة في انحلالها وانحطاطها ، وهذا كثير ظاهر ، ولا سيما في الحديث عن بذخ الخلفاء والملوك في القصور الأنيقة ، ومكانة المرأة في هذه القصور . فأنت ترى أن « الكتاب » قد صور حياة طبقات الناس عامة في رغباتهم ونوازعهم الإنسانية ، نجد الخير كما نجد الشر ، ونرى الصدق كما نرى الكذب ، ويمر بك العذاب والفرح والحب والأسى والحسد والغيرة والمكر والدس والنميمة وجلة ما يعرض للنفس الإنسانية من عواطف وغرائز .

ويتحدث صاحب « الليالى » في المقدمة عن التاريخ فيقول : « لو كتب ذلك بالإبر على آفاق البصر لكان عبرة لمن اعتبر . »

وقد أشرنا إلى أن « الكتاب » قد اتصل بأقاليم عدة . تبدو فيه للقارىء بغداد وما كانت تتمتع فيه في عصور التاريخ المختلفة كما تظهر البصرة والقاهرة والإسكندرية ودمشق وغيرها .

ونستطيع أن نقول : إن الجانب البغدادى يتميز على غيره ، وهو واضح كل الوضوح ، ومن هنا نستطيع أن نقرر : « أن ألف ليلة وليلة كتاب بغدادى ، وأنه

صور المجتمع البغدادي في طبقاته الاجتماعية المختلفة وإذا كان الأمر على هذه الحال فلا بد أن يكون « الكتاب » مادة نلح فيها لغة البغداديين في أصولها التاريخية، واستقرأ هذه النصوص التي تؤلف مادة « الليالي » يدل على لون من العامية البغدادية التي ثمنى بإظهارها في هذه الدراسة .

ولا بد من اعطاء صورة من هذه العامية البغدادية قبل أن ندخل في صلب هذه المادة اللغوية وزيد بالعامية في هذا البحث الألفاظ التي شاع استعمالها بين العامة فاعتبرت من اللغة العامية ، ذلك أن الخاصة تجتنب من اللغة ما يدور على ألسنة العوام لتسلم لها لغة خاصة . ومن أجل ذلك كان من شروط البلاغة عندهم خلو الكلام من العامي المرفول ، وكتب البلاغة حافلة بالأمثلة الكثيرة من هذا الباب . وقد تكتب السيورة لكلمة من الكلمات ، في عصر من العصور وتشييع حتى يتداولها العوام في لغة التخاطب فتصبح الكلمة مرذولة مرزوءة . وقد عرف هذا النظر للمادة اللغوية في مختلف العصور العربية ، ومن أجل ذلك فقد برزت العامية طوال الفترات التاريخية ، والمستقصى لأخبار اللغة والأدب واجد من الأمثلة مادة يعتد بها . والبحث في هذا الميدان شاق بسبب من إهمال الرواة والمؤرخين لكثير من نصوص هذا الأدب العامي ، عملاً بمسيرة ذوق الخاصة الذي طبع العربية فانصرفت له ، ذلك أن الخاصة تملك من أمور العامة ما تملك فتصرف شئونهم وتوجههم إلى ما تريد أن يدرجوا عليه . وربما فرض هذا النوق الرفيع على العامة ، فأتت ترى أن العلمي يتشبه بالخاصة ويستعير لنفسه عاداتهم ووسائلهم وحتى لغتهم ، وهذه الحال كانت قد حصلت لكثير من الأئمة وليس العرب بدعا بين الناس . وقد يكون من أسباب ذلك مسألة تاريخية ، هي أن لغة القرآن قد صقلت العربية وطبعتها بطابع خاص ثم إنها ميزت من الفصحى مستوى رفيعاً أخذت الناس بمبانيه ومعانيه ، وصار هذا النمط القرآني يفرض على المسلمين اللغة الرفيعة المهيبة التي سحروا بها في آي القرآن .

وهذه الفترة من تاريخ العربية ذات أثر كبير في اللغة ، وقد عملت على توحيد كثير من خصائص اللغة التي هي ألصق ما تكون بما ندعوه اليوم باللهجات ، وهكذا طفت على الألوان الإقليمية فشاعت وكان منها للعربية لون عام ضببطت حدوده وأصوله على وجه عام . ولا يعنى هذا أن شيئاً كثيراً من تلك الألوان قد زال عن أصله ذلك أن هذا الأمر ليس بالسهل وأن مسألة التعمود ودرج الناس على طريقة في الكلام ، من المسائل التي لم تنقرض دفعة واحدة ، وفي تاريخ العربية ما يشير إلى أن الأمصار أو قل الجماعات البشرية المختلفة قد استمرت تقرأ كتاب الله بلحون خاصة ، وهذه الألحان معروفة مقيدة بأقاليمها ، فمسألة (القراءات) لم تكن غريبة عن موضوع (اللغات) الخاصة أي (الألحان) وهي اللهجات باصطلاحنا الحديث . إذا فالعامية قديمة جداً ، ولا بد أن تكون العامية قد صاحبت الفصحى المذهب في جميع عصور التاريخ اللغوي ، وربما لم تكن العربية بدعاً بين اللغات في هذا الباب . فكثير من لغات الأمس ولغات اليوم قد عرفت هذه الظاهرة اللغوية ، ويعنى هذا أن شيئاً من مبدأ الازدواج في اللغة كان قد وقع ، وما زال يقع في كل مرحلة من مراحل التاريخ .

وإذا عدنا إلى العامية أو قل للدارج من العربية متفحصين متبينين لنضع نماذجها ونصوصها في حيز تاريخي محدود ، وجدنا صعوبة قائمة في هذا الأمر ، ومصدر ذلك أن العامية في العربية لم تنل من اهتمام الدارسين شيئاً ، ومرد ذلك انشغالهم بلمغة القرآن واتصال هذا الأمر بالإسلام وإثبات معجزة الدين الحنيف التي تقوم على الجانب اللغوي من التنزيل . وظلت هذه النظرة إلى لغة القرآن محوطة بهذه القدسية طوال العصور ، ولم تسمح هذه النظرة لرواة اللغة وجماعها والدارسين والمتأدبين أن يسجلوا نماذج مما جرى على ألسنة الناس وما يتناقلونه في اجتماعهم من نماذج لغوية تنطلق على فطرتهم وسجيته دون تكلف أو تعمل . وأنت لا تستطيع أن تحظى بشيء من ذلك إلا أن تكون ذا صبر طويل لتسقط أخبار العامة وما توحيه إليك من فرائد في هذا الباب .

ومعلوم أن لكل زمن أو بيئة ذوقاً خاصاً في استعمال ألفاظ اللغة ، ويبدو ذلك في أدب الأمة ولاسيما في الجانب الشعبي منها ، ولا يمكن أن تطبق ما تواضع عليه الناس من أساليب الذوق في هذا الباب في زمن معين ، على لغة أو لهجة في زمن آخر أو بيئة أخرى .

ومن صفات العامية في كل عصر أنها لا تعنى كثيراً بالمألوف من قواعد العربية ومعنى ذلك أن شيئاً من اللحن قد وقع فيها دون أن يكون قصد في هذا الأمر ، ومسألة ذلك متعلقة بالسجية الفطرية التي تنطلق بصورة عفوية . ولا نستطيع أن نعد شيوع اللحن دليلاً على نشوء العامية ، فقد عرف اللحن من أوائل العصر الإسلامي . وقد ظهر على ألسنة الطبقة المثقفة المتعلمة .

ففي الأخبار أن عمر بن الخطاب قد أدب أولاده بسبب اللحن^(١) ، وأن عبد الملك بن مروان كان يحذر أبناءه من اللحن ، فإن اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدرى في الوجه .

وقد أشار الأصمعي إلى اللحن في لغة مالك بن أنس (المتوفى سنة ١٧٩ هـ)^(٢) ومعلوم أن مالكاً هذا يحتل مكانة عالية بين الطبقة المثقفة ، وكان يرجع إليه في مسائل كثيرة ، ومثل مالك هذا في اللحن على منزلته ومقامه ، أيوب السختياني فقد كان يلحن حتى في كتاب الله^(٣) .

وقد سجل النحاة شيئاً من اللحن قد عرض لقراءة القرآن مما خلا السبعة المشهورين وتفصيل ذلك في كتب القراءات . وأريد أن أخلص من ذلك إلى أن العامية موجودة وقد سبقت فترة شيوع اللحن ، وإن كان اللحن من مظاهرها وهو

(١) ياقوت ، إرشاد الأريب ١ / ٢٠ .

(٢) الصولى ، أدب الكاتب ٣٣ .

(٣) ياقوت ، إرشاد الأريب .

يعرض لها في السنة الناس ، وظهورة على السنة الصفوة المهذبة دليل على قدمه ، وعلى تأثر هؤلاء بالألوان الدارجة العامة من اللغة . وقد أسلفت أن معرفة العامية في العربية أمر عسير بسبب من عزوف الكتاب عنها لما عرضت من أسباب ذلك . ولعل كتب الجاحظ خير مصدر لمعرفة اللغات واللهجات الخاصة ، فقد سجل الجاحظ نماذج من هذه اللهجات ، وفطن إلى مصطلحات العامة من أصحاب الحرف . وحسبك أن تعرف أن الجاحظ قد أشار إلى لغة الأطفال وكيف أن الطفل يستخدم ألفاظا خاصة . يطلقها على مدلولات معينة ، فالطفل يرمز للكلب بلفظ « واواو »^(١) كما يرمز للشاة بلفظ « ماء ما »^(٢) .

وتحدث الجاحظ في « البيان » عن لغات غير العرب من الموالى ممن نزلوا بين العرب وأخذوا لغتهم ، ولكنهم مع تعصبهم للعربية وحبهم لها ، وهجرانهم لغاتهم الأولى ظلوا يتكلمون بهذه العربية بلحونهم المعروفة ، فهو يقول : « ويستطيع الحاكية من الناس أن يحكى نطق الأهوازي ، والخراساني ، والزنجي ، والسندی حتى نجده كأنه أطبع منه . . . » وهو يقول أيضاً : « أن التبطى القح يجعل الزاى سينا والعين همزة »^(٣) . ويسرف الجاحظ فيروى الحكايات التي تثير الضحك والفكاهة عن لهجات هؤلاء الناس . والأمثلة في « البيان » كثيرة ؛ ولعل من الطريف أن نذكر إشارة الجاحظ إلى استعمال الدخيل الفارسي في النصوص الفصيحة وهو الفارسي الذي لم تألفه العربية من ذي قبل ؛ فقد جاء في شعر الشاعر العماني مادحاً هرون الرشيد : « آلى يذوق الدهر آب سرد » ومعناه حلف لا يشرب الماء البارد أبداً^(٤) .

(١) الجاحظ ، البيان ١ / ٢٩ .

(٢) الجاحظ ، الحيوان ٥ / ٨٩ .

(٣) الجاحظ ، البيان ١ / ٣١ - ٣٢ .

(٤) الجاحظ ، البيان ١ / ٦١ .

وقد فطن الجاحظ إلى استعمالات ولهجات الطبقات الدنيا في المجتمع في أيامه ؛ فهو يمرض للغة المتسولين والمحتالين ولا سيما ما جاء في كتابه البخلاء من هذا الباب وكما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة ؛ وهم اللصوص وكتب في الموضوع رسالة أسماها « كتاب اللصوص » وقد جاء ذكر الكتاب في مظان عدة^(١). ولعل هوى الجاحظ في تسجيل آداب العوام وملحهم وظرفهم هو الذي دفعه إلى أن يسجل حكايات عن الملاحين مع ذكر مصطلحاتهم التي يستعملونها^(٢). كما أشار إلى شيء من ذلك صاحب حكاية أبي القاسم البغدادى^(٣). وفي كتاب « المستطرف » شيء من هذه المصطلحات أيضا^(٤).

ونعود إلى كتابنا « ألف ليلة وليلة » لتبين آثار العامية ممثلة باللون البغدادى فيه فنقول : إن عامية هذا الكتاب تظهر في الألفاظ التي شاعت بين العامة ولم ترق إلى الخاصة . والتزام العامة لها جعلها في عداد الألفاظ العامية . بحيث صارت تتجنب في الكلام البليغ ؛ وكأن الكلمة عندهم لا تكون فصيحة ولا يكتب لها أن تدخل في الكلام البليغ إلا إذا لم تصب بمصيبة الشيوع. وكأن الشيوع في الكلمة يعنى استرذالها وهبوطها من مستوى رفيع .

وقد يحصل أن يكون في الكلمة نوع من الإبدال اللغوى أو القلب المكانى في الكلمة « Métathèse » . والإبدال والقلب المكانى وإن كانا يمرضان للنصوص الفصيحة . فحصولها في اللسان الدارج متوارد متعارف .

(١) الجاحظ، « تصنيف حيل لصوص الليل وتفصيل حيل سراق النهار » كما ورد ذكر « كتاب اللصوص » في الحيوان ٥٧/٢ . ياقوت ، إرشاد ٧٦/٦ . والكتاب من كتب الجاحظ المفقودة .

(٢) الجاحظ ، البيان ٢١٢ / ١ .

(٣) أبو المطهر ، حكاية أبي القاسم (M, 2) ١٠٤ .

(٤) الأبشيهي ، المستطرف ٢ / ٢٤٥ .

ومن مظاهر هذه العامية أنها تعتمد إلى ألفاظ فصيحة فتستعملها ؛ استعمالات تبعد عما ألف في الفصح المشهور وسنرى شيئاً من ذلك في المادة المعجمية التي أحصيناها أمثلة في هذا البحث .

وأنت واجد في هذا الكتاب شيئاً من الدخيل الذي أصبح جزءاً من لغة العامة بحكم الحاجات المتنوعة التي ولدتها الحضارة فلزم ذلك مادة لغوية للافصاح عن الجديد من الحاجات ؛ وبحكم الغزو والتمازج الثقافي والانصهار الحضارى الذى يمكن أن تلمس آثاره بدراسة حضارية لهذه الفترة التي لا يمكن تحديدها على وجه الضبط .

وكما تظهر هذه العامية في الألفاظ ؛ تراها تظهر في الأسلوب العام لصياغة الكلام ؛ فانت ربما لاتجد في كثير من الجمل وال فقرات إلا اللفظ الفصح ؛ ولكن الأسلوب المتبع في تركيب الكلام ؛ وما يحمله من صور وأخيلة يجعله من صميم الاستعمالات العامية ؛ ذلك أنها أخيلة وصور لم يحتملها الأدب المترف الرفيع ، أو قل يتجافاها هروبا من عامية مرذولة تظهر على ألسنة البقالين والحالين ومروضى الأسود والنمور والخدم والجوارى وغير هؤلاء من أصناف هذا الحشد من العامة . ولم أرد أن أسجل من ذلك إلا القدر الذى يعطى الامثلة المطروبة .

ولابد من العودة إلى أبى عثمان الجاحظ الذى فطن إلى لغة العامة حين نقل عنهم في كتاب البخلاء ؛ فقد حكى الجاحظ عن زمرة من البخلاء ؛ وكان سبيله أن يولد الأحاديث على ألسنة هؤلاء ؛ وهو في هذه الأحاديث كشف عن الاوساط العامية التي يحيون فيها .

وفي طوق الجاحظ أن يصور البيئة العامية ؛ أو قل أن يوحى إليك وأنت تقرأ أحاديث البخلاء البيئة الفقيرة الشحيحة ؛ ذلك أنه قد عاش في بيئة فقيرة معدمة ؛ فلقد شوهد في أيام طفولته وصباه يبيع الخبز والسماك في « سيحان » .

وهو يحاول أن يستعيد البيئة العامية بملحها وظرفها وتقاليدها ؛ وهو يشير

إلى هذا في « البخلاء » كما نقلنا ذلك في غير هذا المكان . وأنت تحس حيث تقرأ في « البخلاء » كيف يقضى سواد الناس سحابة يومهم . ولا يكتفى بالجو العامي للعبارة أو اللفظة ؛ بل يتعداه إلى القول العامي ينقله كما هو على ألسنة الناس .

وفي رسالته « في صناعات القواد » يمرض جماعة من أصحاب الحرف الذين أدخلت الحرفة الضيم على لفهم ؛ فيسألهم عن معركة دارت في بلاد الروم بد أن قدم المعتصم منها ؛ فيصفها كل واحد بأسلوبه الذي يأخذ مادته اللفظية من مادة حرفته ؛ ثم يذكر عدة أبيات في الغزل . والجاحظ يؤكد مهنة كل واحد من هؤلاء ويذكرها ليشير إلى أثر ذلك في أصناف كلامهم ؛ وهم حزام وطبيب وخياطوزراع ومؤدب وصاحب حمام وكناس وطباخ وفرلش وخباز .

والجاحظ ربما افتمل ذلك ليقرر ما يريد أن يقرره من أن الحرفة لا بد أن تؤثر في لغة الناس وما يتبادلونه من مخاطبات فهو يقول على لسان الحزام في وصف المعركة :

« لقيناهم في مقدار صحن الاصطبل فما مكان إلا بمقدار ما يحس الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق من ممرغه . فقتلناهم وجعلناهم كأنهم أنايير سرجين فلو طرحت روثة ما سقطت إلا على ذنب دابة » ثم يذكر متغزلا .

« إن يهدم الصبر من جسمي معالفة فإن قلبي بقت الوجد معمور
إني امرؤ في وثاق الحب يكبحه لجسام هجر على الأسقام معذور »
إلى أن يقول :

لبست برقع هجر بعد ذلك في اصطبل حب فروث الحب منشور^(١) »
وهكذا يأتي على وصف هذه المعركة بلسان هؤلاء العامة من أصحاب

(١) الجاحظ ، رسائل « ط . السندوبي » ص ٢٦١ .

الحرف . وهكذا فلتعلمهم لا تخلو من لفظ فصيح ، ولكنها تحمل بالصور والأخيلة العامة ومثل هذا نجده كثيرا في أسلوب « ألف ليلة وليلة » على لسان العامة .

وأريد أن أقرر شيئا لاحظته في « ألف ليلة وليلة » وهو أن صاحب الحكايات أو قل أصحاب الحكايات على علم بدقائق اللغة والأسلوب ، وأنهم يعيرون كل طبقة من الناس لغتها الخاصة : فكلام الأمير أو الوزير أو من على شاكتهم من الخاصة فصيح رفيع تسير فيه الجملة والكلمة في نظام مرتب مقصود يجعل منها لغة خاصة ليست لغة التخاطب . كما أود أن أشير إلى أن الحوار في هذه الحكايات يميل أكثر ما يميل إلى الأسلوب العامي ، وكأن كاتب الحكاية يريد في ذلك أن ينقل الحكاية كما تدور على ألسنة شيوخها ولا سيما إذا كانوا من الطبقة العامة . ولعل هذا يذكرنا بمشكلة كتاب القصة والمسرحية في عصرنا هذا وكيف إنهم يميلون إلى الكتابة بالعامة في حوار شيوخ المسرحية أو القصة حرصاً منهم على أن تكون القصة أو المسرحية واقعية حية .

وهكذا فحوار « ألف ليلة وليلة » الذي يدور على ألسنة الشيوخ التي تتحرك في الحكايات مشحون باللفظ العامي الذي يراد منه أن يكون ملائماً لمقتضى الحال ، ومتفقاً مع ما يمكن أن يجري في ظروف كظروف الحكايات المعروفة . وهذه الألفاظ تندرج بشكل يلفت النظر في الحكى أو السرد أى في ما خلا الحوار في هذه الحكايات . ولقد نحكم في إدراكنا لعامة الألفاظ المستعملة في (ألف ليلة وليلة) مقدار شيوعها في عصرنا الراهن . وأنا أنبه القارئ ألا يتخذ من العامة البغدادية المستعملة في أيامنا أصلاً يقيس عليه ما يجده من مواد عامية في هذا الكتاب ذلك أن عامية اليوم تختلف عن عامية « الكتاب » أو قل تختلف عن عامية الماضي القريب . فالعامية متطورة متغيرة وهي متأثرة أبداً بمؤثرات عدة ، وليس من شك أن عامية بغداد قبيل الاحتلال البريطاني تختلف عما نسمعه اليوم على لسان ابن الشارع وعلى ألسنة الصناع والحرفيين . واعتبار

عامية اليوم لا يثبت عامية اللفظة في نصوص « ألف ليلة وليلة » ذلك أنها مقيدة بزمانها ومكانها . وعلماء البلاغة يشيرون إلى ألفاظ فصيحة استعملتها العامة فخرجت لذلك عن رتبة الفصح .

ومن مظاهر عامية هذه النصوص أن الكلمة أو الجملة ربما تنكرت عن عمد أو قصد للمعروف المشهور من قواعد النحو ، وربما خرجت أيضاً على التعارف من قياسات الصرف والاشتقاق وذلك لأنها منقولة عن ظرف يدعو إلى هذا الخروج المقصود وكأن العامة قد ضاقت ذرعاً بمقررات النحويين واللغويين وهم من أجل ذلك كلفون بالخروج عليه ، مهتمون بذلك اهتماماً يدعو إلى النظر وقد يحماهم ذلك على التهمك على النحويين ، ومن ذلك ما أثر من الأخبار والطرف عن النحويين وما كانوا يجدون من تجاوز العامة عليهم . فقد أثر عن الكسائي إنه قال : « حلفت ألا أكلم عامياً إلا بما يوافقه ويشبه كلامه . وقتت على نجار فقلت له بكم هذان البابان . فقال بسلحتان يامصفعان ألا بما يصلح » (١) .

وهذا الخبر له دلالة التاريخية اللغوية وهو يشير إلى أن الفصح العربي كان مما يتعاناها العامة في أحاديثهم اليومية في هذه الفترة التاريخية المتقدمة . ومعنى ذلك أن « الازدواجية في اللغة » كانت موجودة على عهد الرشيد إلى في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وأغلب الظن أن شيئاً من ذلك كان موجوداً قبل هذه الفترة بكثير وأن إغفال الإعراب كان من الأمور السائرة ، ومعنى ذلك أنهم يجرون في ذلك على فطرتهم العامية التي تتخفف من القيود وتميل إلى الإيجاز ، وطبيعي أن الإعراب قيد ربما كان ثقيلاً على كثير من الناس في سائر عصور العربية فضلاً عن ثقله وصعوبته في عصور « ألف ليلة وليلة » ولا سيما المتأخرة منها .

(١) ابن الجوزي ، أخبار الظراف ص ٧٧ .

والعامى لا يحس أن كلامه مشوب باللحن أو أنه خرج على قوانين النحاة ، أو ألزم اللفظ المعدول عن جهته وإلى هذا أشار الجاحظ حين قال :

« وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فأياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخذ لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ، ويذهب استطابة الناس لها » . (١)

والجاحظ في هذه الإشارة يقابل لغة العامة بلغة الإعراب الأصيلة في الفصاحة فيقول عنها :

ومتى سمعت — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب ، فأياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخرج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير .

وأنت تقرأ حكايات « ألف ليلة وليلة » فتقرأ ما يتناقله العامة من أساليب الكلام ومن مظاهر ذلك أن العامى مولع أو قل مفطور في كل زمان ومكان إلى القسم أو الحلف وأنه يقسم في كل أمر يحزبه صغيراً كان أم كبيراً . وربما كان القسم في لغة العوام نوعاً من الاستعمال اللغوى يجرى به العامى بفطرته التقليدية ، فأنت لا تشعر إن به حاجة إلى استعمال القسم ، وأن الأمر خال من مشكلة والتباس أو خلاف يضطره إلى أن يلجأ للقسم ، ولكنه مع ذلك يجرى على سجيته فتسمع منه ألفاظ القسم يستعملها من غير انقطاع . والقسم من خصائص الشعوب السامية وألفاظه مختلفة بحسب الزمان والمكان ، وبحسب

(١) الجاحظ ، البيان ١ / ٨١ .

اختلاف الأديان وبحسب اختلاف الطبقات . فهو موجود في الجاهلية كما هو موجود في الإسلام وهو مألوف عند المسيحيين كما هو معروف عند المسلمين ، وإن طبقات الناس عامة تجر به في كلامها . غير أن العامة تلتزم به كثيراً وتطلقه كما أشرنا دون حاجة إليه ، وألفاظهم في القسم تشير إلى بيئتهم العامية . وإذا رجعنا إلى حكايات « ألف ليلة وليلة » وجدت هذا القسم ظاهراً واضحاً وأنه مستعمل على ألسنة العوام انطلاقاً مع سجيئتهم التي ألفت هذا النوع من الاستعمال . وأنت إذا قرأت هذه الأقسام وجدتها لا تبتعد عما نسمعه اليوم على ألسنة العامة من البغداديين ، كأن يقسم أحدهم « برأسه » أو « بعينه » أو بعيشته » .

وقد فطن الجاحظ إلى شيء من ذلك حين ذكر البخيل الكندي ^(١) أحد الذين تحدث عنهم في « البخلاء » فقال :

« فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئاً ، حلف بالقموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله » ^(٢) والحلف بالزاد والطعام مما هو داخل في العقلية العامية ، وما زال العوام في أيامنا يقسمون بهذه الأقسام .

والجاحظ لا بد أن يشير إلى هذه الاستعلامات ذلك أنه قد اهتم بالمصطلحات العامية في حديثه عن البخل ، فقد ذكر .

« قال أبو فاتك : الفتى لا يكون نشالاً ولا نشافاً ولا مرسلأ ولا لكماً ولا مصباحاً ولا تقاضاً ولا دلاًكاً ولا مقوراً ولا مغربلاً ولا ولا مسوغاً ولا ملفعاً ولا مخضراً ، فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطاع والقطاع والنهاش والمدآد والدفاع والمحول ^(٣) » . وهذه الألفاظ مما جعله العوام معاني

(١) لا يفهم من كلام الجاحظ أن المقصود بالكندی الشيخ الفيلسوف المعروف .

(٢) الجاحظ ، النبلاء (ط . الحاجري) ص ٨٥ .

(٣) الجاحظ ، النبلاء (ط . الحاجري) ص ٦٧ .

لاتشير إليها كتب اللغة المطولة ؛ فهي من مصطلحات العامة كما هي الحال في كل زمان ومكان ، فللعامية اصطلاحاتهم الخاصة .

ولا بد أن نجتزئ من هذا الاستقراء المعجمي بشيء من الأمثلة لما ورد من العامية في « الكتاب » .

ورد في الصفحة الثالثة من الجزء الأول ^(١) ما يأتي :

« ولم يزالوا في بوس وعناق » وكلمة البوس من الألفاظ العامية وقد عدها الخفاجي ^(٢) من الدخيل الفارسي ، وقد شاعت الكلمة في العصر العباسي . مرادفة للتقبيل . وهي مستعملة كثيراً في نصوص الحكايات . ولنا أن نقول في إسناد الفعل « يزال » إلى ضمير الجمع المذكور شيء من التأثير بالأسلوب العامي الذي يعوض من ضمير الثني ، فلا يفهم من ذلك أن صاحب الحكاية التجأ إلى الجمع أخذاً بأساليب التبجيل والاحترام .

وقد جاء في الصفحة نفسها : « فلما رأى الملك شهربار ذلك طار عقله من رأسه » . وطيران العقل من الرأس على هذا النحو أسلوب عامي لم يعرف في الفصحى المشهور في العربية ، وربما سمعت هذا الاستعمال في أحاديث الناس في لغتنا العامية البغدادية . ولا يعني هذا أن الاستعمال مختص ببغداد دون سائر الأقاليم الأخرى ، فقد تجد شيئاً من ذلك مما يدخل في المشترك من الاستعمالات بين الأقاليم المختلفة .

وأنت تقرأ في الصفحة الخامسة ما يأتي :

« فتوجه إلى منزله وهو غضبان مقهور خائف على نفسه من الملك » .
هذا في الكلام على رجل من عامة الناس فهو غضبان وهو فوق الغضب

(١) اعتمدت على طبعة البابي الحلبي لأنها أتم الطباعات .

(٢) الخفاجي ، شفاء الغليل مادة (بوس) .

« مقهور » و « القهر » في هذا المكان لفظ عامي له دلالاته المعروفة ، والمراد به « متألم » وما زالت هذه الدلالة معروفة في هذه الكلمة في عاميتنا العراقية بصورة عامة والعامية البغدادية على وجه الخصوص . ثم إنه « خائف » وهذا الوصف جاء على « فاعل » بإثبات الياء دون الهمزة كما هو معروف في الأساليب العامية ، فالعامية لا تلجأ إلى الهمزة في هذه المواطن ، وربما ابتعدت العامية عن الهمزة في كثير من الألفاظ فهي تلجأ لتسهيل الهمزة كما هو الحال في العامية البغدادية أو قل العراقية عامة . فكلمة « الألف » بكسر الهمزة تصبح « ألوف » بكسر الواو ، والفعل « يأكل » بالهمزة يصبح « يا كل » بالتسهيل وهكذا جاءت « خائف » بدلا من « خائف » . والذي نستدله من ذلك أن عامية « ألف ليلة وليلة » تجري على السليقة الدارجة في هروبها من الهمزة الثقيلة ، وقديماً هربت لغة قريش من هذه الهمزة لولا أن القرآن قد ألزم بالهمز فثبتت في العربية الفصيحة .

ثم يقول : « وحكى لها ماجرى من الاول إلى الآخر مع الملك » وهذا الاستعمال يشعر أن صاحب الحكاية يريد أن يثبت أسلوباً دارجاً باستعماله « من الأول إلى الآخر » يؤيد هذا المذهب الذي أراده قاصداً .

ثم تقرأ في الصفحة السادسة : (وحرك ذنبه وضبط وبرطع) والكلمات والأسلوب من العامي الأدنى . وتحريك الذنب كناية من شيء معروف ، والضراط معروف أيضاً ؛ ولم يكتب الكاتب بذلك فقد جاء بكلمة (برطع ولا تعرف كتب اللغة المطولة هذه الكلمة ، وأكبر الظن أنها من مولدات العامة في الكلام على (السخيف) من الموضوعات .

ويدخل في باب (السخف) ألفاظ البذاءة ؛ وللعامة غرام في التوليد والاختراع في هذا الموضوع ؛ ولا سيما في التمليح عما يتصل بالأعضاء الجنسية والأعمال الجنسية ولا تأنف العقلية العامية من ذكر المستكره من الألفاظ مما يتعلق ببراز الإنسان على وجه الخصوص (Scatalogie) . والتوليد في باب (السخف) بين

العامة مشهور في كل زمان ، وإلى هذا ينبغي النظر في قوله (برطع) .

وأنت تقرأ في الصفحة نفسها : « فسمع التاجر الكلب وهو ينادى الديك ويسبه ويقول له : أنت فرحان وصاحبنا رايح يموت » .

وأريد أن أقف على قوله : « رايح يموت » فاستعماله « رايح » يريد به القرب والوشك ، فكأنه أراد أن يقول : « يوشك أن يموت » أو « يكاد يموت » ، ولكنه أثر الأسلوب العامي بالاعتماد على مادة « راح » في معناها الدراج المعروف الذي ما زلنا نستعمله حتى يومنا هذا في أغلب الأقاليم .

وتقرأ في الصفحة الثامنة ما يأتي :

« فجلس تحت شجرة وحط يده في خرجه » .

وأنا أريد أن أقول لك : إن ورود الفعل « حط » من الاستعمالات العامية وأن جاء في كتب اللغة ، فاستعماله للوضع بهذه الصورة من العامية ، ذلك أن استعماله في الفصحى في غير هذا . ففي حديث عمر : « إذا حططتم الرجال فشدوا السروج »^(١) .

على أن هذا الفعل قد ورد كثيراً في حكايات « ألف ليلة ليلة » مما يدل على عناية صاحب الحكايات بنقل المادة الدارجة .

ثم يقول : « فرجع إلى بلده وقضى جميع تعلقاته » . والتعلقات بهذا المعنى لابد أن تكون مستعارة من العامي الدارج .

ثم تقرأ في الصفحة نفسها : « وأقيم عليه العياط والصراخ » والعياط بهذا المعنى استعمال عامي مازال حياً معروفاً في عاميتنا البغدادية خاصة والعراقية على وجه العموم . وليس في معاني السكامة في كتب اللغة ما يشير إلى هذا الاستعمال في العامية الدارجة ، فالمراد بالعياط الصراخ على الميت ، فهو صراخ يطلق في مقام خاص .

(١) انظر مادة « حطط » في لسان العرب .

وقد جاء في كتب اللغة التعميط وهو الجلبة ينادى بها الأشرع عند السكر بقوله : (عيط)
وليس بين الاستعمالين فائدة لغوية كثيرة .

وتقرأ الصفحة العاشرة : (أنت خلصتيه) وإسناد الفعل (خلص) للمخاطبة
يقتضى حذف الياء فنقول (خلصته) بكسر التاء في اللغة الفصيحة ، أما العامية
فسبيلها إثبات الياء كما هي الحال في عاميتنا الحديثة في الأقاليم المختلفة ، وعلى هذا
جرى صاحب الحكايات .

ويريد على عادته أن ينقل هذه العامية الدارجة دون أن يحرف منها كثيراً
فيقول في الصفحة نفسها : (فنى ثانى يوم) وما ظنك تكتب هذه العبارة الآن
وأنت تكتب قصة مثلاً بالأسلوب الفصيح على طريقة أهل هذا العصر ؛ بل تعدل
عنه إلى قولك : (فنى اليوم الثانى) أما صاحب الحكاية فقد قصد من ذلك تسجيل
كلام أهل تلك القرون في محادثاتهم الدارجة اليومية .

وفي الصفحة الحادية عشرة نقرأ : (ففتحت أنا دكاناً أبيع فيه وأشتري)
والدكان^(١) فارسى معرب . أما دلالاته في العربية فالدكة المبنية للجلوس عليها ؛ كما في
حديث أبي هريرة : (فبنينا له دكاناً من طين يجلس عليه) . ونعود للجملة فنقرأ
(ففتحت دكاناً) فيخيل إلينا أن قائلها من أهل هذا العصر ؛ ففتح الدكان يعنى
مباشرة العمل التجارى ؛ وهو استعمال عامى مازلنا نسمعه كل يوم . ثم إن هذا
الدكان (يبيع فيه ويشترى) واختصاص (الدكان) بالبيع والشراء على هذه الصورة
نقل للأسلوب العامى الذى مازلنا نباشره حتى يومنا هذا .

وينطلق صاحب هذا الدكان متحدثاً فيقول :

(وأرادوا أن أسافر معهم فلم أرضى) (٠٠٠)

(١) الجوهري ، الصحاح مادة (دكن) .

ويأخذ كل واحد منا ألف دينار وتنسب بها) و (والتسبب) استعمال ما زال شائماً في العامية البغدادية ؛ وهو يعني التكسب ، وليس هذا الاستعمال معروفاً في فصيح العربية . ذلك أن (التسبب) في الفصيح ما زال متصلاً بمادة (سبب) .

ثم نقرأ في الصفحة نفسها : (فجاءوني وأنا نايم بجانب زوجتي) ونمود فترى الوصف (نايم) بالياء دون الهمزة على الطريقة الدارجة التي تهرب من قياسات الصرفين كما أشرنا إلى ذلك .

والزوجة بإثبات علامة التأنيث تمحضر كثيراً في نصوص هذه (الحكايات) ومعنى ذلك أن الكاتب يهجر كلمة (زوج) جرياً على التعارف المشهور في عامية المعصور المتأخرة . فإن الفصيح هو (زوج) كما ورد في القرآن : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة)^(١) ولكن لغة الشعر قد تتجاهل المشهور المتعارف فتلجأ مضطرة إلى غير المشهور المعروف كما فعل الشاعر ذو الرمة .

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة .

أراك لها في البصرة اليوم ثاوياً

وكان الأصمعي ينكر كلمة (زوجة) ويقول : (زوج) ويحتج بقوله تعالى : (أمسك عليك زوجك)^(٢) . والأصمعي لا يعد ذا الرمة حجة (إذ طالما أكل البقل والمالح في حوائث البقالين)^(٣) . وفي هذا الخبر فائدة تاريخية لقوية ، ذلك أن الأصمعي يشير في ذلك إلى لغة العامة من أصحاب الحرف ، وأنهم يلتزمون لغة تبتعد عن لغة الخاصة المهذبة .

(١) سورة الأعراف ١٩ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٣ .

(٣) السيوطي ، المزهر ٤/١ .

وهكذا فالزوج هي « زوجة » دائماً في نصوص هذه الحكايات جريا على الدارج المتعارف . ثم إن « الكتاب يخلط الحقيقة بالأسطورة وهذا واضح جلي . فأنت ترى كثيراً أن المرأة تنقلب مخلوقاً آخر من الجن ، وهي هنا « عفريتة » بعلامة التأنيث ، وعالم العفاريت يحضر في أخيلة العامة ، والعفريت في خيال العامي شيء غيف يشتمل على الجنس ففيه الذكر والأنثى وفيه الصغير والكبير . ومازلنا نعرف هذا اللون من الخيال والتجسيد في عاميتنا الحديثة . وقد ورد العفريت في لغة القرآن في قوله تعالى : « قال عفريت من الجن أنا آتيتك به » (١) .

وفي الصفحة نفسها تقرأ هي « فحبك قلبي » (٢) « وفعل الحب لا يكون ثلاثياً إلا في العامية الدارجة ، والفصيح هو الرباعي (أحب) ، ومازلنا نستعمل في عاميتنا العراقية بصورة العامة الفعل في صيغته الثلاثية ، كما هي الحال في عامية الأقاليم العربية الأخرى .

وفي الصفحة الثالثة عشرة تقرأ :

« وهما في كلام وغنج وضحك وتقيل وهراش .

وتستوقنا كلمة « هراش » واستعمالها في هذه الجملة معروف من القرينة المكانية ، فالمراد منها الحركة الكثيرة العالية . وهي بهذا المعنى قريبة من استعمالها الحديث في اللغة البغدادية أو العراقية على وجه العموم في أيامنا هذه . ولكن هذا المعنى أو قل هذا الاستعمال غير وارد في كتب اللغة ، فقد ذكر الجوهري : الهراش والاهتراش تقاتل الكلاب (٣) . وهو تحريش بمضها على بمض . والتهريش :

(١) سورة النحل ٣٩ .

(٢) استعمال الفعل الثلاثي « حب » من الاستعمالات العامية الشائعة في أيامنا . وإن كنا لا نعدم أن نجد في الشعر شيئاً من ذلك نحو قول المتنبي :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غداراً فكأن أنت وافيأً
(٣) صحاح الجوهري ، مادة (هراش) .

التحريش ، وفي الحديث : يتهارشون تهارش الكلاب أى يتقاتلون ويتواثبون .
ونقرأ فى الصفحة الخامسة عشرة :

« فلما رأى الصياد ذلك العفريت ارتعدت فرائضه وتشبكت أسنانه ونشف ريقه وعمى عن طريقه » . ولم نعرف أن الأسنان « تشبك » إلا فى هذه النصوص ، وأكبر الظن أنها مستعارة من الاستعمال العلمى الدارج ، وعاميتنا الخاضرة لاتعرف هذا الاستعمال . والتشبك والشبك للأصابع كما هو معروف فى كتب اللغة والذى يؤيد عامية هذا الاستعمال ما عطف عليها فقد جاء : « ونشف ريقه وعمى عن طريقه » وهاتان الجملتان تجعل هذا المجموع أقرب للأسلوب الدارج السائر منه إلى الفصح .

كما نقرأ : « يا بعيد لأى شئ تقتلنى » واستعمال « البعيد » على هذه الصورة مستعارة من اللغة العامية الدارجة . ألا ترى أن عاميتنا البغدادية المعاصرة تستعمل هذه الكلمة فى لون من ألوان النبز والشم كأنت يقال : « البعيد ما يستحى ما ينجل » . وما أظن أن هذا الاستعمال معروف فى غير البغدادية أو العراقية بوجه عام .

وفى الصفحة السادسة عشرة نقرأ :

« فوالله إن أبرأتنى أغنيتك لولد الولد » .

واستعماله « لولد الولد » يريد به أغنيتك وأغنيت أحفادك من بعدك . وما زلنا نستعمل هذا الأسلوب فى لغتنا العامية المعاصرة .

وفى هذه الصفحة نقرأ أيضا . « كان ملك ملوك الفرس يحب الفرجة والتزوم والصيد » . واستعمال الفرجة على هذه الصورة مأخوذة من العامية ، والكلمة مازالت مستعملة فى عاميتنا البغدادية حتى هذا العصر ودلالة الفرجة (بضم الفاء) معروفة فى الفصحى ، فهى كفرجة الحائط ونحوه . غير أن تطورات اللغة تشير

إلى أن « الفرجة » (بفتح الفاء) تعني التقصى من الهم^(١) ، وهي الراحة من حزن أو مرض كقول أمية بن أبي الصلت .

ربما تكره النفوس من الأم ر له فرجة كحل العقال
وهذا المعنى ربما كان قريباً من مدلول « الفرجة » في الحكاية ، ولكنها مع ذلك مأخوذة من العامية . وأحسب أن « الفرجة » في الحكاية (بضم الفاء) كما هو مستعمل في أيامنا . ومما يقوى عاميتها عندي أنها متبوعة « بالتنزه والصيد » فليس في هذا المجموع علاقة بترويح النفس من الهم والأسى ، وهي بذلك بمعنى « التفرج » في العامية العراقية التي تعني « التطلع » و « الاستمتاع » .
وفي الصفحة التاسعة عشرة تقرأ :

« وإذا بالغزاة أقبلت على الملك وشبت على رجلها وحطت يديها على صدرها . فقال الملك : وحياة رأسى لأتبعنها وصادر البازي يلطشها على عينيها إلى أن أعماها ودوخها » .

فهذه « الغزاة تشب على رجلها » ثم « تحط بديها على صدرها » واستعمل الفعل « حط » يؤيد ما أشرنا إليه من عامية هذه الكلمة في هذه الصورة المقصودة والكلمة ما زالت مستعملة في عاميتنا الدارجة . ثم إن صاحب الحكاية يجعل الملك يقسم « بحياة رأسه » وهو هنا يستمير هذا القسم من العامية الدارجة ولا يجد ضيراً أن يقوله على لسان ملك . وهذا القسم من المؤلف في اللغة العامية في لغة عصرنا الحاضر

ثم إن « البازي يلطشها على عينيها » واللطش يفيد الضرب في هذا الاستعمال ولم تشر كتب اللغة إلى « اللطش » فهو عامي دارج ، وما زلنا نستعمله في عاميتنا البغدادية على وجه الخصوص وفي العامية العراقية بوجه عام . و « اللطش » بالشين

المعجمة هو « اللطس » الذى تذكر معجمات اللغة ، ومعنى هذا أن إبدالاً قد حصل بين الشين والسين وهذا يحصل كثيراً . والعامية تلجأ إلى هذا النوع من الإبدال فى مواد كثيرة . والبازى « يلطشها » على عينيها إلى أن أعماها و « دوحها » . والتدويخ فى كتب اللغة له معان كثيرة منها قولهم : « دوح الوجع رأسه » أى أداره والكلمة وإن أشارت إليها كتب اللغة ، فهى من المفردات العامية المستعملة كثيراً ، وهى مازالت معروفة فى عاميتنا الحديثة فى كثير من الأقاليم .

وفى الصفحة الثالثة والعشرين نقرأ : « وأيقن بالهلاك وبال فى ثيابه » نقرأ هذه الفقرة فلا نرى فيها كلمة عامية ، ولكننا مع ذلك نحكم بعاميتها جملة ذلك أنها تحكى أسلوب العامة فى الاستعمالات والتشبيهات ، فالجملة تشير إلى أنه قد خاف خوفاً شديداً حتى ارتعدت فرائصه « فبال فى ثيابه » .

وفى الصفحة الرابعة والعشرين نقرأ :

« ففرجيننا اليوم على طهيك وحسن طبخك » . وتمعود إلينا « الفرجة والتفريخ » وهى بالاستعمال الدارج الذى مازلنا نزاوله . ومعناه كما أشرنا « أطلعينا » وليس فى « التطلع » و « الاطلاع » ما يشير إلى استعماله الفصيح .

وفى الصفحة عينيها نقرأ : « فإن السلطان جاء إليه واحد بهدية » . وإطلاق السلطان على الملك قد حدث فى عصور متأخرة . والأصل فى السلطان الحجة كما فى قوله تعالى : « هلك عنى سلطانية » أى حجته . وإنما سمى الوالى سلطاناً لأنه صاحب الحكم والحجة وهو صاحب السلطة . ولفظة السلطان ترد كثيراً فى نصوص « الحكايات » .

وهذا « السلطان جاء إليه واحد بهدية » نقرأ هذه العبارة فنلمح أنها نقل

للمألف من الكلام الدارج . فالقصد بـ (واحد) أحد الناس ، وإطلاق هذه الكلمة على هذه الصورة لون من ألوان العامية الدارجة . وما زلنا نستعمل (واحد) هذا الاستعمال في عاميتنا البغدادية الحديثة .

في هذه الصفحة أيضاً : فقالت تلك الجارية : (من أول غزوته حصل كسر عصيانه) . وعامية هذه العبارة بادية واضحة وهي ما زالت مستعملة في الأمثال العامية في لغتنا البغدادية وفي غيرها من اللهجات المحلية .
وتقرأ في الصفحة السادسة والعشرين ما يأتي :

ثم التفت الملك إلى الوزير وقال له : « سوأنت السمك ههنا قدامى » ، وأنت لابد أن تحكم على استعمال الفعل (سوّى) المضعف بأنه استعمال عامي فالمراد بالتسوية في هذه الفقرة مطلق العمل ، في حين أن المراد بالتسوية في نصوص الكلام الفصيح جعل الشيء مستوياً . واستعمال الفعل على هذه الطريقة العامية ما زال حياً في عاميتنا البغدادية .

وجاء في الصفحة نفسها : (وقل للأمرء والوزراء والحجاب إن السلطان متشوش) .

ووصف السلطان بالتشويش من الاستعمال العامي الدارج ، والكلمة مستعملة كثيراً في جميع الألسنة العربية الدارجة . وقد أنكر أهل اللغة هذه ونصوا على أنها من كلام المولدين ، وقالوا : وأصل التشويش التهويش وهو التخليط .

وجاء في الصفحة السابعة والعشرين ما يأتي :

(وشامة على كرسي خده كترس من عنبر) فأنت لا تجد في هذه الفقرة لفظة

عامية مرذولة ، ولكنك مع ذلك تحكم على عامية هذه الفقرة لما تدرك من استعارتها وتشبيهها .

ثم إنك تجد في الصفحة نفسها : « ثم توفي والدي وتسلطت بعده » ، واشتقاق الفعل (تسلطن) على طريقة قاعدة توهم الأصالة في اللغة ولم يعرف في نصوص اللغة الفصيحة هذا الاشتقاق ، وهو مأخوذ من العامية الدارجة .

وفي الصفحة نفسها تجد : « أوهى تخليه باختياره »

واستعمال الفعل « خلى » المضمف استعمال عامي ، فلا تؤدي التخلية هذا المدلول في اللغة الفصيحة . ومازلنا نستعمل هذا الفعل على ماورد في حكايات « ألف ليلة وليلة » .

وفي الصفحة نفسها يأتي ذكر « البنج » في قولها « فتضع البنج في شرابه فينام » .

والبنج من الفارسي^١ الدخيل الذي استعير في الطب وشاع بين العامة . وما زال مستعملاً في العامية العراقية .

ونقرأ في الصفحة الثامنة والعشرين : « فناولتني الكأس فزاوغت عنه وجعلت أني أشربه مثل عادتي ، ودلقتني في عبي ورقدت في الوقت والساعة » . وعامية هذه العبارة واضحة من مخالفتها لمدلول الكلمات المستعملة فيها . فالتزاوغ يعني الميل والانحراف واستعماله في هذه الجملة يشير إل التأثير بالعامية ، ثم أن العامية تظهر في جعل الكأس مذكراً وذلك ضمير المذكر عليها . والكأس في اللغة الفصيحة مؤنث كقوله تعالى : « بكأس من معين بيضاء »^(١) . وجعل « الكأس » مذكراً من تأثر الاستعمال بالعامي الدارج . ثم نجدده يقول : وجعلت

(١) سورة الصافات ٤٥ .

أنى أشربه مثل عادنى « وعامية هذه العبارة واضحة فحشو « أن » على هذه الصورة لا تلتئم والأسلوب الرشيق الخفيف . وفى قوله : « مثل عادنى » أسلوب عامى لا تعرفه اللغة الفصيحة .

وفى قوله : « ودلقت فى عبي ورقدت فى الوقت والساعة » عامية ظاهرة . فلا نعرف للفعل « دلق » هذا الاستعمال . والكلمة « عِب » مستعارة من الألفاظ العامية التى مازلنا نستعملها فى المراق عامة ، وفى قوله : « فى الوقت والساعة » طريقة فى الاستعمال العامى الدارج أيضاً . وحشد هذه الألفاظ فى هذا المركب المجموع برسم العامية التى أشرنا إليها فى المقدمة التى تعتمد على الدلالات الخاصة بها والتى تبتعد عن فصيح العربية .

وفى الصفحة نفسها نقراً : « ولولا أنى أخشى على خاطرك » فالخشية « على الخاطر » يراد الخشية من أجلك ، وهذا أسلوب لا تعرفه العربية الفصيحة ، بل تحفل به اللهجات العامية الدارجة .
ثم نقراً فى هذه الصفحة :

« وصارت بنت عمى واقفة تبكى وتقول ما أحد غيرك بقى لى فإن طردتنى ياويلى يا حبيبى يا نور عيني » .

وهذا الكلام من المؤلف فى اللغة العامية وإن الفصيح يأبى هذا الرصف وهذا النظام ، ذلك أن ألفاظ هذا النص فصيحة ، ولكن طريقة جمعها وانتظامها على هذه الصورة من العامى الدارج . فهو يريد بقوله « وصارت بنت عمى واقفة تبكى » وظلت بنت عمى واقفة تبكى . واستعمال « ما » للنفى فى قوله : « ما أحد غيرك » غير وارد كثيراً فى الفصيح واستعمال لا فى هذا المقام أجدر وأكثر . ثم إن هذه الاستغاثة والندبة فى قوله : « ياويلى يا حبيبى يا نور عيني » ذات تأثير بالأسلوب العامى .

وفي الصفحة التاسعة والعشرين نقرأ :

« وأنا أطول بالي عليها واستعمال « تطويل البال » عامى واضح وما زلنا نستعمله في اللهجة البغدادية بصفة خاصة وفي اللهجات العراقية عامة .

وقد أشرت إلى أن الحوار يميل إلى العامية في نصوص « الكتاب » وهذا شيء واضح جداً وهكذا نقرأ في الصفحة الثالثة والثلاثين :

فقلن للجمال : اجلس على الرأس والعين .

فالاستعمال « على الرأس والعين » يشير إلى العامية وما زلنا نستعمل هذا الأسلوب في عاميتنا البغدادية .

وفي الصفحة نفسها نقرأ : « ولو كان غيره ما طول روحه علينا » وأنت من غير شك تبين أن صاحب الحكاية يريد أن ينقل كلام العامة في فترة تاريخية معينة . فليس « تطويل الروح » على هذا النحو من الكلام العامى الذى نلمح بقاياه الآن في لغتنا البغدادية وفي الصفحة الأربعين نقرأ : « ثم قال لي فر بعمرك » . والاستعمال « فر بعمرك » عامى بعيد عن اللغة الفصيحة . والمتتبع للغة البغدادية واجد شيئاً يقرب من ذلك فربما يقال في أيامنا « خلص بعمره » أو « طار بعمره » .

وفي هذه الصفحة أيضاً يجد القارئ العبارة الآتية : « وهان على تلف عيني » وما أشك أنه لا يلمح في مسألة « تلف العين » نقلاً للمتداول العامى الدارج الذى ما زلنا نستعمله في عاميتنا البغدادية خاصة ، والعامية العراقية على وجه العموم . والباحث في مادة « تلف » يعرف أنها مادة فصيحة وردت في معجمات اللغة وقد وردت في استعمال الفصحاء المتقدمين قال الفرزدق :

وقوم كرام قد نقلنا إليهم قراهم فأتلفنا المنايا وأتلفوا^(١)
وكون الكلمة فصيحة لا ينفي عنها صفة العامية . فلا تستعمل دقات وخصوصيات
تبعد الكلمة بها عن نطاق الفصح المشهور .

وتقرأ في الصفحة السابعة والأربعين ما يأتي : « نحن على الرئيس » ومعلوم
أن المراد « بالرئيس » « الرئيس » وما زالت هذه الكلمة مستعملة في لغتنا
العامية البغدادية .

وفي الصفحة التاسعة والأربعين نقرأ العبارة الآتية : « وصار عندنا في
الليوان » والليوان من أجزاء الدار العراقية قبل أن يجد فن العمارة الحديثة
المتأثرة بالنمط الأوربي . وهو حيز بسعة الحجر المتوسطة مشتملة على جدر ثلاثة
أي أنه مفتوح من جهته . و (الليوان) تحريف للمكلمة الفصيحة وهو (الإيوان)
وقد أشرنا إلى أن سبيل العامية أنها تحرف اللفظ الفصح باستخدام الإبدال أو
القلب المكافئ أو زيادة حرف أو نقص حرف .

و (الإيوان) أو (الإوان) الصفة العظيمة ، وفي المحكم : شبه أزج غير
مسدود الوجه ، وهو أعجمي ، ومنه إيوان كسرى قال الشاعر :

إيوان كسرى ذى القرى والريحان

وجمع (الإوان) (أون) مثل (إخوان) و (خُون) ، وجمع (الإيوان)
(أوأوين) (وإيوانات)

وفي الصفحة الثانية والستين نقرأ : إن هذا شيخ كبير خرفان لا يدري ما
يقول : والخرفان بزنة (فعلان) من الخرف (بفتحтин) وهو فساد العقل ، والصفة

(١) انظر اللسان (مادة أون)

من هذا المصدر لا تأتي في اللغة الفصيحة على (فعلان) وإنما تأتي على (فعل)
بكسر العين نحو (خرف) أما (خرقان) فهو من الاستعمال العامي الدارج
الذى ما زلنا نستعمله في لغتنا العامية البغدادية .

قال أبو النجم العجلي :

أقبلت من عند زياد كالخرف تخط رجلاى بخط مختلف^(١)

وفي الصفحة نفسها نقرأ : (يا ولدى أنت صغير تشهى الدنيا ، وأنا كبير
شبت من الدنيا) .

و (اشتهاء الدنيا) يعنى (محبة الدنيا) والاشتهاء فصيح وانصرافه للدنيا
باق في حيز الاستعمالات الفصيحة ولكن العبارة المعطوفة عليها وهى (أنا
كبير شبت من الدنيا) يبدو عليها اللون العامي ، فحديث (الشبع) على
هذا النحو لم يشع إلا في اللغة العامية ، وإن كنت واجداً في الفصحى شيئاً من
من ذلك ، فقد ينصرف الاستعمال الفصحى إلى العامية بالقرائن التى يتم
عنها الاستعمال .

ونقرأ في الصفحة الثالثة والستين : (ونحرتها بالسكين وقطعت رأسها
وأعضاءها وحطيتها في القفة بسرعة وغطيتها بالأزرار وحطيت عليها
شقة بساط) .

وهذه العبارة من أولها إلى آخرها تشعر القارئ أن صاحب الحكاية أراد
أن ينقل كلام الناس على صورته . فالفعل (حط) مسند إلى التكلم وبنية الفعل
في هذا الإسناد على الطريقة العامية التى نستعملها الآن ، ذلك أن الفعل الماضى
الثلاثى المضعف يفك أدغامه عند الإسناد في اللغة الفصيحة فتقول في (مد)

(١) انظر اللسان (مادة خرف)

(مددت) مثلاً ، في حين أن العامية لا تلجأ إلى فك الأدغام ، وإنما
تضيف ياء حشواً كما نقول الآن (استمررت) بدلا من (استمرت) وكأن
صيغة الفعل قبل الأسناد مختومة بالألف نحو (حطى) و (ومدى) وليس
الأمر كذلك . ولنرجع إلى هذه العبارة (وحطيتها في القفة) فنجد أن صيغة
الفعل المسندة على الطريقة العامية تنسجم و (القفة) ذلك أن هذا التركيب بما
ينصرف إليه لا يخرج عن الجو العامي . ثم تحتم العبارة بقوله :

(وحطيت عليها شقة بساط) والمراد (بثقة بساط) بساط صغير ،
و (شقة البساط) على هذه الطريقة مما نستعمله في لغتنا البغدادية الدارجة
حتى يومنا هذا .

وفي الصفحة الرابعة والستين نقرأ : (ودخلا الوزارة وكل منهما يتولاهما
جمعة . فاتفق في ليلة من الليالي أن السلطان كان عازما على السفر في الصباح .
وكانت النوبة للكبير) .

أما قول صاحب الحكاية . (وكل منهما يتولاهما جمعة) فالمراد بـ (الجمعة)
أسبوع كامل ويسمى الأسبوع باسم أشهر أيامه وهو الجمعة على الطريقة العامية ،
وهذه الطريقة العامية غير مستعملة الآن في بغداد ، ولكنها معروفة في
بلدان الشمال الأفريقي ولا سيما في (تونس) ومعلوم أن لغة تونس تعتمد على
اللغة العراقية في الحدود التاريخية التي مصرت فيها (القيروان) حاضرة الشمال
الإفريقي في القرون المتقدمة من التاريخ الإسلامي . ولا يبعد أن يكون هذا
الاستعمال مما كان معروفا في اللغة البغدادية العامية القديمة .

وقول صاحب الحكاية : (وكانت النوبة للكبير) داخل في الاستعمال
العامي الذي مازلنا نزاوله وهو استعمال (النوبة) على هذا النحو .

وفي الصفحة الثامنة والستين نقرأ : (وما زال نور الدين يوصى ولده حسن
بدر الدين حتى طلعت روحه) .

و (طلوع الروح) يعنى الموت ، وهو من الاستعمالات العامية الدارجة وما زلنا نرده في اللغة البغدادية العامية على سبيل الحقيقة أو المجاز . والمراد بالمعنى المجازى في عبارة (طلوع الروح) التمثيل والمشقة . ولغتنا العامية البغدادية تميل إلى صيغة أخرى من مصدر (طلع) وهو (طلعا الروح) بكسر الطاء .

وفي الصفحة التاسعة والستين نقرأ : (فقامت وأنا مرعوب وخفت أن يفوت النهار) .

وعبارة (يفوت النهار) تشعر بالعامية ، ونحن مازلنا تستعمل في عاميتنا هذه العبارة .

وأنت نقرأ في الصفحة السبعين : (وحياة رأسى لا أزوجها إلا لأقل منى برغم أنفك) .

فيستوقفك (عبارة رأسى) وهي أسلوب من أساليب القسم في الأدب العامي الشعبي . ولقد أسلفت أن العامة تلتزم بالقسم وتكثر منه ، ولهم في القسم أساليب خاصة ، ومن ذلك هذه العبارة التي لا أشك في أنك تسميها كل يوم على السنة العامة في بغداد في أيامنا هذه . وفي الصفحة الحادية والسبعين نقرأ : — (فبالله خذنى عندك وضمنى إلى حضنك ، وكانت بلا لباس) ونعيد قراءة (بلا لباس) نرى هل ينصرف اللباس إلى عامة الثياب ، ولكننا نتبين أن المراد (باللباس) هو السروال الداخلى الذى يباشر الجسد ويستر العورة . وإطلاق (اللباس) على هذا النوع من الملابس لغة عامية مازلنا نطلقها في لغتنا العامية البغدادية .

وفي الصفحة الثالثة والسبعين نقرأ : (ياليتيه صبر حتى لبس حوائجه) . والمراد بـ (الحوائج) الألبسة المختلفة . وانصراف (الحوائج) إلى هذه المسائل لا يكون إلا في اللغة العامية الدارجة ، ومازلنا نسمع هذه اللفظة بهذا المعنى على السنة البغداديين المتقدمين في السن . وأريد أن أقول إن الاستعمال قد يشيع في

عصر ثم يموت في فترة لاحقة ، وهذا أمر طبيعي في اللغات كافة .

وفي الصفحة التاسعة والسبعين نقرأ : (فلما وصل إلى منزلها سمع حسها) .
والمراد بـ (الحس) (الصوت) ومعنى (الحس) معروف في اللغة الفصيحة .
أما هذا المعنى فهو استعمال عامي دارج مازال موجوداً في كثير من أقاليم العربية .
فإذا قرأت في الصفحة الثالثة والثمانين : (فضحك وقال : كم عام لي غائب
عنك فقالت له : سلامتك ، اسم الله حواليك ، أنت إنما خرجت إلى الكنيف
لتقضى حاجة) .

وجدت هذه العبارات التي تشير إلى أنها تقل للأسلوب العامي الدارج . وقد
أسلفت أن الحوار في هذه (الليالي) يميل إلى تقل الكلام بالأسلوب العامي
الدارجي . وما أظنك لا تلمح العامية في قوله : (سلامتك) أو في قوله (اسم الله
حواليك) ، ثم إن استعمال (الكنيف) بمعنى (المستراح) مما هو مشهور عند
العوام ، فعاني (الكنيف) لا تنصرف إلى هذا دون غيره في اللغة الفصيحة .

وفي الصفحة الخامسة والثمانين نقرأ : (ومرادنا نوديه إلى الطبيب ليداويه) .
وقوله (نودى) من اللغة العامية الدارجة ومازلنا نستعمل هذه المادة في عاميتنا
المراقية ، كما هي موجودة في العامية لكثير من أقطار العربية . وهذا الفعل
العامي من الفصيح (نؤدى) وهو مشتق من الأداة ، واستعمال الفعل الفصيح
يختلف عنه في الفعل العامي .

وفي الصفحة نفسها نقرأ : (فحملة وطلع به من حوش البيت إلى زوجته) .
والطالع بمعنى الخروج مقابل للدخول استعمال عامي لا نجده في الفصيح وما زال
(الطلوع) بهذا المعنى في عاميتنا المراقية . و (حوش البيت) يعني ساحة الدار
في النمط العتيق للمهارة المراقية الشرقية . والحوش بهذا الاستعمال عامي شائع في
مختلف الجهات المراقية . وربما كان الأصل الفصيح لهذه الكلمة (الحش) أو

(الحش) بفتح الحاء أو ضمها مع تضعيف الشين ومعنى هذه الكلمة جماعة النخل، وقال ابن دريد: هما النخل المجتمع. والحش أيضاً البستان، وربما كان هذا البستان محاطاً بنوع من السياج، ثم توسع بهذا الاسم حتى صار يطلق على ساحة الدار في العامية العراقية، ثم إن هذه العامية لم تحتفظ بصيغة الاسم بل انتقلت بالمضغف إلى الأجوف، وهذا الانتقال كثير في العامية العراقية كما أن العكس حاصل أيضاً ألا تراهم يقولون (لاف) ويريدون به (لف) المضغف بتحميله معنى الاستدارة. كما أن صيغة الأجوف ثابتة في اللغة الفصيحة وهي تشير إلى شيء من هذا المعنى وهو (الإحاطة) فقد جاء في كتب اللغة (الحائش) وهو جماعة كل شجر من الطرفاء والنخل وغيرهما، وقال الشاعر:

فوجد الحائش فيما أحداً تقرأ من الرامين إذا تودماً

فالحائش في بيت الراجز (مصدق) بشيء وهو مجتمع الشجر وهذا هو المعنى الذي أشرنا إليه نفسه. ومثل هذا المعنى قولهم: (احتوش القوم فلاناً، وتحاشوه بينهم) أي جماعه وسطهم، ومثله (احتوش القوم عل فلان) أي جماعه وسطهم^(١).

وفي الصفحة نفسها تقرأ. (فقال أما يكفى أنك أهدب حتى تكون حرامياً وتسرق اللحم والدهن ياستار استرنى بستر ك الجليل).

وقوله (ياستار استرنى) من ألفاظ الدعاء التي ترد كثيراً على ألسنة العامة في العراق عامة. وللعامية ألفاظ يستعملونها في الدعاء خاصة بهم لا ترد كثيراً في الفصح المشهور. وقوله (بستر ك الجليل) داخل في حيز هذه الألفاظ التي يقصد بها الدعاء على طريقة العامة. وفي الصفحة الحادية والتسعين نقرأ: (وقعدت أتحديث معها فأوصيت إليها بالإشارة ففهمت أنى أريد وصلها). والفعل (قعد) في هذه الجملة

(١) انظر اللسان مادة (حشش) ومادة (حوش).

يؤدى معنى (أفعال الشروع) مثل (قام) و (أخذ) و (وشرع) ولكن هذا الفعل (قد) لا يكون فى عدة هذه الأفعال التى تعنى (البدء) . ولكنه مستعمل بهذا المعنى على الطريقة العامية ، وما زلنا نستعمل هذا الفعل بهذا المعنى فى عاميتنا البغدادية .

وقوله : (فأوحيت إليها بالإشارة) يعنى (أشرت إليها) وهو أسلوب فيه حكاية للدارج العامى .

وفى الصفحة نفسها نقرأ : (ثم رخت القناع وأخذت التفصيلة) .

وفى هذه العبارة الفعل (رخت) فى صيغة الثلاثى بمعنى (أسدلت) والصحيح استخدام الرباعى أرخت فى هذا المكان . أما استعمال الثلاثى فإنه شائع فى العامية وما زلنا نستعمله فى عاميتنا العراقية . وهذا وجه من وجوه العامية أى أنها تعدل عن الصيغة الفصيحة إلى أخرى ولا ضابط فى هذا العدول ، فقد تعدل عن الثلاثى إلى الرباعى أو غيره ، أو بالعكس من ذلك . أما (التفصيلة) فلم أهتد إلى المراد منها فربما كانت دالة على نوع خاص من الثياب ، ومثل هذا يجد فى كل عصر من العصور .

وفى الصفحة الثانية والتسمين نقرأ . (فقالت يا حييى أجى عندك . فقلت لها . أنا رجل غريب ومالى مكان يأوينى إلا الخان) .

نقرأ هذا اللون من الكلام الذى هو الصق بالحكايات ، فنتبين أن الحكاية حين يعرض لها الحوار تلتجىء إلى لون من الكلام ، وهو حكاية للمتداول الدارج بين العامة . فاستعمال الفعل « أجى » بمعنى (أجى *) تأثر بالعامية العراقية كما أن ذلك حاصل فى العاميات الأخرى .

ذلك أن العامية تبتمد عن الهمز فتميل إلى التسهيل فيها بحيث أصبح تسهيل الهمزة صفة لازمة للغات العامية ، على أن لغة قريش لم تكن تلتزم بالهمز .

وفي هذه العبارة نقرأ كلمة (الخان) والخان من الدخيل الفارسي ، وقد
عرب في لفظ (الخان) فقد ذكر أبو حنيفة في (الخانة) . أنها فارسية
وأن أصلها (خانة) ومنه (الخان) و (الخانوت) وقيل (الخان) للتجار .
وورود (الخان) في لغة الحكايات يدل دلالة تاريخية على أن عامية طائفة من
هذه الحكايات متأخرة ، ذلك أن (الخان) بلفظها الفارسي متأخرة ، أي أن
المتأخرين عدلوا عن العرب إلى الفارسي الأصل^(١) .

وفي الصفحة نفسها نقرأ :

« فمشى حتى أوصلى إلى المنزل فقلت له في غد تبجني هنا وتوديني ، فقال الحمار :
بسم الله » .

وهذا الكلام حكاية للغة عامية دارجة لا سبيل إلى نكرانها ، وهي تؤكد
ما أشرنا إليه من أن الحوار يأتي غالباً بلغة هي لغة العامة في تجوزها
وتساهلها .

ففي هذه العبارة جاء النعل (تجي) بصيغة العامية فهو غير مهموز ، ثم نعود
فترى الفعل (توديني) بمعنى (تأخذني) وقد سبق الكلام على هذا الفعل .

وقول الحمار : (بسم الله) عود إلى لون من ألوان العامية التي تشكك في كثير
من الأحيان على الكلام الفصيح وتأخذه بشكل خاص .

وفي الصفحة الثالثة والتسعين نقرأ : (وقلت له : تمال في وقت الغروب ،
قال : على الرأس) . واستعمال صاحب الحكاية (على الرأس) للدلالة على
الجواب الإيجابي أي أن ذلك بمعنى (سمعاً وطاعة) ، أسلوب عامي مازلنا
نباشره في عاميتنا البغدادية .

(١) انظر اللسان مادة (حون) ومادة (خون) .

وفي الصفحة الرابعة والتسمين نقرأ العبارة الآتية : (وانصرفت أنا ولفيت
يدى فى خرقة) . واستعمال الفعل (لف) على الطريقة العامية بدلا من (لففت)
على طريقة فك التضعيف فى اللغة الفصيحة ، وقد سبق الكلام على هذا عند
بحث الفعل (حط) . وأوقد حدث شىء من هذا فى فصيح المربية ، فقد جاء فى
كتب اللغة أن أباعبيده قال : (تظنيت) من (ظننت وأصله) (تظننت) فكثرت
النونات فقلبت إحداها ياء . كما قالوا : (قصيت أظفارى) والأصل (قصمت)
أظفارى^(١) ولكن لا أرى وجها لليلة التى أتى بها أبوعبيدة ، وهى (كثرة النونات
فقلبت إحداها ياء) ذلك أن هذه الطريقة تكون فى كل فعل عند من ألزم بها
والوجه فيها أنها ربما كانت لونا من ألوان اللغات المحلية الخاصة ، والذى يؤيد
هذا الوجه وجودها الآن فى كثير من اللغات العامية ، وفى هذه الصفحة نفسها
نجد : (فجهرتها ، وواريتها فى التراب ، وعملت لها ختمات) . ويراد بـ (عمل
الختمات) قراءة كاملة للقرآن الكريم مرات عدة احتسابا والتماسا للأجر
والثواب على روح المتوفاة « كما هى عادة المسلمين فى كل العصور . ولكن قوله :
(عملت لها ختمات) استعمال عامى ما زلنا نسمعه على ألسنة العامة فى العراق .
وفى هذه الصفحة أيضا نقرأ أيضا : (فقالت : لا بد أن تسافر معى . فقلت :
نعم وواعدته على رأس الشهر) .

فقوله : (نعم وواعدته على رأس) استعمال عامى متداول وما أشك فى
أنك تسمعه على ألسنة العامة فى بغداد . « قالواعدة » و (رأس الشهر) مألوف
فى العامية البغدادية .

وتقرأ فى الصفحة السادسة والتسمين : (وصار يأكل وهو متغضب) .
فقوله : (متغضب) استعارة لكلمة عامية ما أظن أن غير العراقي على علم بها ،
أو أنه يفهمها كما ينبغى . وهى لا تستعمل فى العامية إلا فى مواطن خاصة كأن

(١) انظر اللسان مادة (ظنن).

تقال في حال الإقبال على طعام أو شراب لا يستساغ ، أو ما يناسب هذا المقام وفي هذه الصفحة نجد : (ووجدت عليه ديونا كثيرة ، فصبرت أصحاب الديون ، وطيبت خواطرهم ، وصرت أبيع وأشتري وأعطى من الجمعة إلى الجمعة أصحاب الديون . فتقع أعيننا على كلام عامي دارج وإن كان معربا ، فتصير أصحاب الديون (، و تطيب الخواطر) . وقوله : (وصرت أبيع وأشتري) و (أعطى من الجمعة إلى الجمعة أصحاب الديون) استعمالات لا ترقى في مجموعها ورفضها إلى مستوى الفصح المقبول .

وفي الصفحة المائة والثانية عشرة نقرأ : (وجعل يقول إن هذا الثور بطال ، مع أن القمح كثير وأصحاب الطحين يطلبونه . فأننا أعلقة في الطاحون حتى يخلص طحين القمح . فعلقه في الطاحون إلى قريب الصبح) وما نشك أن هذا الكلام يخرج عن حيز العامي الدارج برفضه ومجموعه ولحنه الواضح . وفي الصفحة المائة والثالثة عشرة نقرأ : (قال لها : وكيف قصدتني بهذا الأمر دون الخلق أجمعين) .

وأنت لا ينبغي عنك اللجوء إلى الصيغة العامية في (قصدتني) فالفصح يقال : (قصدتني) بكسر التاء وليس من حاجة إلى إثبات الياء . وفي الصفحة المائة والسابعة عشرة نقرأ : (ولا أخلى مغنية بالمدينة إلا وأحى بها إلى بيتي) . واستعمال الفعل (خلى على هذا النحو عامي دارج ما زال حياً في عاميتنا البغدادية .

وفي الصفحة المائة والثامنة عشرة نقرأ : ياسيدى انظر جاريتك فإنها تشهى قربك فاجبر خاطرها بكلمة) . وهذا الكلام بنأى عن الفصح ويقرب من العامية الدارجة في مجموعة ولا سيما مسألة (جبر الخاطر بالكلمة » .

ثم نقرأ في الصفحة نفسها شيئا يقرب من ذلك وهو (فإذا رأيت منك الاتقباض انكسر خاطرها)

و (انكسار الخاطر) مقابل (لجبر الخواطر) وهو مساو له في كونه مما يستعمله العامة في درج كلامهم . ونحن مازلنا نستعمل ذلك في عاميتنا البيغدادية وفي الصفحة المائة والعشرين نقرأ : (وأعطاء الله عز وجل الستر ومشى في الظلام وقوله : (وأعطاء الله الستر) يذكرنا بما يستعمله العامة في أيامنا من أقوال الدعاء ، فهم يقولون في هذا المعنى « الله يستر عليك) أو (الله يمطيك الستر) .

وفي الصفحة المائة والحادية والعشرين نجد : (ويقول لأخى كل ولا تستحى) والفعل (تستحى) واقع في حيز النهى ، ومعنى ذلك ينبغي أن يحزم والجزم يقتضى حذف الياء الأخيرة ، ولكن صاحب الحكاية لم يبال بهذه الضوابط النحوية جريا على اللغة العامية التي تتنكر لأشكال الإعراب كافة .

وفي هذه الصفحة أيضا نقرأ : (فقال له . ياسيدى عمرى ماأيت . . .) . وقد جاءت كلمة (عمرى) ظرفا للزمان ، واستخدام العمر ظرفا شائع في العامية ذلك أن سبيل العامية التخفف والإيجاز ، فلو أريدت الظرفية في الكلام الفصيح للزم أن يقال (طول عمرى) .

وفي الصفحة المائة والرابعة والعشرين نقرأ . (فقلت ، أنت طول النهار في حظك وأنا قاعدة في البيت حزينة) . وليس من شك أن عبارة (وأنا قاعدة في البيت حزينة) مأخوذة من عامية دارجة مازلنا نباشرها في أيامنا هذه . وأكبر الظن أن صاحب الحكاية نقل هذه العبارة مما هو مألوف على ألسنة العامة وهو من غير شك ينأى عن الإعراب فالكلمة (قاعدة) لا بد أن تكون بالهاء على الطريقة العامية ومثلها (حزينة) واستعمال القعود على هذا النحو هو عامى دارج .

وفي الصفحة المائة والخامسة والعشرين نجد . (فلما أخرجها رآها الناس بميونهم) . فلو قال . (فلما أخرجها رآها الناس) وسكت اظلل في حيز الفصاحة ، أو قل لكان كلامه بعيداً عن العامية . غير أنه لما زاد قوله (بميونهم)

انصرف هذا المجموع إلى العامية . وهذا الاستعمال من الاستعمالات التي نباشرها في عاميتنا البغدادية .

وفي الصفحة المائة والثانية والعشرين نقرأ . (فقبلت يدها فقالت لها . نعم يا أنيس الجليس كيف حالك في هذا الحمام) . وتلتزم اللغة العامية بألفاظ خاصة تقال في مناسبات معروفة كألفاظ التحية ، وألفاظ الدعاء ، وألفاظ التمزية ، وألفاظ التهنتة ، ومن هذه ما يقال الآن في مجاملاتنا الدارجة لمن حلق شعر رأسه ، أو لمن استحجم في الحمام .

والكلمة التي تقال في هاتين المناسبتين هي (نيميا) والكلمة منصوبة دائماً على تقدير فعل مناسب كما نصب (أهلاً وسهلاً) . وقد استخدمت هذه الكلمة في عبارة الحكاية التي أشرنا إليها ، وما أظن أن غير العراقيين يستخدمون هذه الكلمة في لغاتهم الدارجة .

وفي الصفحة المائة والتاسعة والعشرين نقرأ : (فقالت أمه لأبيه . ياسيدي هل تعدم الجارية وتعدم الولد ، فإن طال الأمر على الولد هج) . وأكبر الظن أن المقصود (بالعدم) في هذا النص هو المعنى العامي . فالمراد بـ (تعدم الجارية) أو (تعدم الولد) هو التلف والخسارة كما هي الحال على ألسنة العامة . البغدادية ومما يدل على انصراف هذه الكلمة إلى هذا المعنى العامي أن مجموع النص كله يدل على العامية الدارجة . فأنت تجد الفعل (هج) بالتضعيف وهو خاص بالعامية العراقية ، والمراد به (وخرج هائماً على وجهه) وهو استعمال عامي شائع حتى يومنا هذا . وطريقة هذا الفعل أنه تحويل للأجوف الفصح (هاج) إلى (هج) على طريقة الموام .

ونمود في الصفحة نفسها فرى العامية تظني في أسلوب الحكاية الحوارى ، وهذا مصداق ما ذهبنا إليه في المقدمة ، من أن صاحب الحكاية يحرص على أن ينقل في الحكاية ما يدور على ألسنة العامة ، والنص كما يأتي .

(قالت له اسهر هذه الليلة فإذا جاء فأمسكه واصطلم أنت وياه وأعطه الجارية ..) والنص كما هو واضح عامى دارج فكلمة (وياه) تعنى (وإياه) أو « معه » وهذا مما نستعمله فى أيامنا فى لغتنا العامية البغدادية .

وفى هذه الصفحة أيضاً نقرأ : (فلما مضت السنة دخل الوزير فضل الدين بن خاقان الحمام وخرج وهو عرقان فأصابه الهواء فلزم الوساد) .

وفى هذا النص ترد مادة (عرق) والعرق معروف والصفة من هذه السادة غير واردة فى كتب اللغة إلا وزن واحد قليل الاستعمال هو (عرقة) للدلالة على المبالغة . أما عرقان فلم يرد ولم يسمع إلا على السنة العامة . وسبيل العامية أنها تختص بوزن دون آخر ، وفى كثير من الأحيان أن الوزن الذى تختاره العامية لا يكون فى أوزان اللغة الفصيحة . وهذه الصيغة مازالت مستعملة حتى يومنا هذا فى جهات عدة .

وفى الصفحة المائة والحادية والثلاثين نجد (أريد اليوم أن أحضر عند أخى فإنه يطهر ولده) . والمراد بالتطهير فى هذه العبارة (الختان) واستمارة التطهير لعملية الختان ذات وجه مقبول ذلك أن الختان نوع من الطهارة .

ولكن اختيار هذه الكلمة للختان لم يقع إلا فى اللسان الدارج . وهذه الكلمة مازالت حية فى العامية العراقية ، أو قل إن العامة لا تعرف الختان مطلقاً وإنما تستعمل (الطهور) . وقد نجد فى نصوص الحكايات خليطاً من مواد فصيحة وأخرى غير فصيحة ولكن هذا المجموع بهذا الشكل من الخليط يصبح عامياً بعيداً عن الفصح ، ولا سيما إذا كان الكلام على لسان السوق من الناس كما أشرنا إلى ذلك فى المقدمة . فأنت تقرأ فى الصفحة المائة والثانية والثلاثين ما يأتى (فلما نظر الدلال إلى ازدحام السوق نهض قائماً وقال : يا تجار : يا أبواب الأموال ، ما كل مدور جوزة ، ولا كل مستطيلة موزة ، ولا كل حمراء لحة ، ولا كل بيضاء شحمة ، ولا كل صهباء خرة ، ولا كل

سمراء تمر ، ياتجار ، هذه الدرة اليتمية التي لانتى الأموال لها بقيمة ، بكم تفتحون باب الثمن ، فقال واحد . . .) .

تقرأ هذا الكلام فتعرف أن (الدلال) خاطب به جماعة التجار ، والدلال من ينادى على البضاعة عند البيع وهو من المصطلحات المتأخرة التي جرت على ألسنة العامة ومازالت الكلمة مستعملة في العراق للدلالة على حرفة (المناداة) . ثم إن هذا النص يشتمل على أمثال عامية وفصيحة وحشر هذين الضربين في كلام واحد يهيء من المجموع نطقاً عامياً صرفاً ، فالمثل (ماكل مدور جوزة) والمثل (ماكل مستطيلة موزة) من الأمثال العامية ومازلنا نستعمل في العامية البغدادية شيئاً يشبه ذلك فنقول : (موكل مدعبل جوز) و (المدعبل) سر المدور في العامية العراقية . ولكن صاحب الحكاية لم يكتف بضرب هذين الثلين بل عطف عليها شيئاً من الأمثال الفصيحة التي تضرب في المقام نفسه وهي : (ماكل بيضاء شحمة) ^(١) و (ماكل سمراء لحمة) .

وفي الصفحة المائة والرابعة والثلاثين نقرأ : (وتكونون مبغوضين) وصيغة (مبغوض) من الثلاثي (بغض) وليس الثلاثي بمشهور . وأكبر الظن أن صاحب الحكاية نقل ذلك من اللغة العامية . والكلمة مازالت حية في العامية البغدادية . وإذا رجعنا إلى كتب اللغة وجدنا أن الرباعي من هذا الفعل هو الفصح المشهور ، ولم يقل بالثلاثي إلا أبو العباس ثعلب من علماء اللغة والنحو الأقدمين ، وسبيله في هذا القول أنه عرض لقوله تعالى : (إني لعملكم من القالين) ^(٢) وفسر (القالين) بالباغضين ، فدل بهذا على أن بغض عنده لغة . قال : ولولا أنها لغة عنده لقال من المبغضين ^(٣) . وفي هذه الصفحة نفسها نقرأ أيضاً : (فلما نظر السلطان حالته وسمع مقالته قام عرق الغضب بين عينيه) .

(١) انظر الميداني ، مجمع الأمثال «فصل الميم» .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ١٦٨ .

(٣) انظر اللسان مادة (بغض) .

وقد أشرنا إلى أن (السلطان) للدلالة على الملك أو الأمير هو صاحب السلطان أى صاحب الحكم ، وهو مما شاع في الأزمنة المتأخرة مثل سلاطين آل عثمان . وفي إثبات هذا المصطلح دليل تاريخي على أن لغة (الحكايات) قد تأثرت بالعاميات المتأخرة .

ثم ذكره (لقيام عرق الغضب بين عينيه) تأكيد لهذا التأثير بالعامية الدارجة . واستعارة العرق للغضب وقيامه بين العينين مما نسمعه في أيامنا على ألسنة المتحدثين على طريقتهم السهلة الدارجة .

ونقرأ في الصفحة المائة والخامسة والثلاثين : (والريس واقف في وسط المركب يقول : (من بقى له حاجة من وداع أوزوادة أونسى حاجة فليأت بها) . وهذا نص لا تخفى عاميته ، (فالريس) هو (الرئيس) وقد أشرنا إلى ذلك . والكلمة كما قلنا مازالت حية على ألسنة المتكلمين في لغتهم الدارجة . وهذا (الريس) ينادى : (من بقى له حاجة من وداع) وكلامه هذا لا ينأى عن حيز الفصاحة لولا ما أضاف إليه من كلام عامي واضح فأضفى على المجموع صورة الكلام السائر الدارج ، وذلك أنه قال : (أو زوادة) و (الزوادة) ما يزداد على الشيء فهي كالطفاقة ووزنها (فُعالة) بضم الفاء . و (فمالة) تدل على بقاء الأشياء . ولكننا إذا رجعنا إلى مادة هذه الكلمة وجدناها ثلاثية جوفاء فهي (زيد) ، أما المدول عن الياء إلى الواو فأمر ذلك راجع إلى أن العامية تسلك هذا السبيل في اللغات المراقية عامة . ألا تراهم أنهم لا يصغرون (العين) على (عينية) جرياً على الفصيح المعروف فيقولون (عويئة) ومن ذلك أنك تقرأ على واجهات المحلات التي تبيع النظارات (العوينات) بالجمع جرياً على هذه العامية التي تميل إلى الواو دون الياء في هذه (الكلمة) وأمثالها . وفي الصفحة المائة والسادسة والثلاثين نقرأ : (فقات له : ياسيدى نحن غرباء وفرت الدمعة من عينيه) . و (فرار الدمعة) من العين استعارة للأسلوب الدارج العامي . ومازلنا نستعمل في عاميتنا البغدادية شيئاً يقرب من هذا ، كأن نقول : (طفرت الدمعة من عينيه) .

وفي الصفحة المائة والسابعة والثلاثين نجد : فقال له نور الدين : (نحن محسوبين عليك) . وما أظنك لا تلمح العامية في قوله : (محسوبين عليك) وهذا الاستعمال ما يزال مسموعاً في كلام العراقيين عامة .

ونقرأ في الصفحة المائة والحادية والأربعين ما يأتي : « ثم قال الصياد : روح أنت إلى شغلك » . وانصراف « الروح » إلى الذهاب لا يكون إلا في العامية ، وما زال هذا المعنى في كثير من اللغات العامية الدارجة .

ونقرأ في الصفحة المائة والثانية والأربعين : « أريد أن تغني لنا شيئاً من شأن خاطر هذا الصياد » . فنشعر أن العامية تغلب على هذا الكلام . وهو قوله صاحب الحكاية . « من شأن خاطر » معناها معروف . وما زالت هذه العبارة مستعملة في العامية البصرية . وهذه اللغة التي نجدتها في الحكايات لا تأنف من الدخيل الأجنبي الذي استعملته العامة فصار في لغتها . فأنت تقرأ في الصفحة المائة والسادسة والأربعين ما يأتي : (ثم أخذ بقجة فيها عشرة تفاصيل) . و (البقجة) هي الصرة المعروفة . وما أظن أن غير العراقيين يهتدون إلى معرفة هذه الكلمة متى قرءوا هذه الحكايات . ثم إن هذه (البقجة) فيها عشرة (تفاصيل) والتفاصيل لون من ألوان الثياب أي أنها مفصلة على طراز معين جرياً على أسلوب ذلك العصر في التفصيل والخياطة : « وربما كانت لوناً من ألوان ما نسميه اليوم بـ La Mode .

وفي الصفحة المائة والثامنة والأربعين تقرأ : (ليلة الدخلة) والمراد بـ (ليلة الدخلة) ليلة دخول الرجل على عروسه ، وهي ليلة (البناء) وهذه الكلمة من الكلمات التي استعملتها العامة ، وهي ما زالت معروفة عند العراقيين عامة . وفي الصفحة المائة والحادية والخمسين نجد :

(قال لهم : يا أولاد عمي كل ما حكى هذا بطلال) . والمراد بـ (بطلال) بتشديد الطاء الباطل والكذب والبهتان . وهذه الكلمة بمعناها واستعمالها وصيغتها للدلالة

على هذا المعنى ، عامية وما زالت مستعملة في كلام العراقيين أو البغداديين بصورة خاصة .

ونقرأ في الصفحة المائة والرابعة والخمسين ما يأتي : فسد يده على جسدها وملس والمراد بالفعل (ملس) المس الرفيق وهو لون من ألوان العشب مع النساء . وهذه الكلمة عامية في هذا المكان وإن كانت ذات أصل فصيح . وهي مستعملة في أيامنا هذه تطلق في مثل هذا المقام . وفي هذه الصفحة أيضاً نقرأ : « قال أريد أن أنام معك وأتصافى أنا وأنت » . والتصافى في كتب اللغة التخالص ، وتصافيا تخالصاً^(١) . ولكننا إذا رجعنا إلى هذه العبارة وجدنا الكلمة تحمل اللون العامي فالمراد بالتصافى في العامية العراقية التخلص إلى حال من الأحوال ، وهذا هو المعنى المراد في هذه العبارة . وفي الصفحة المائة والسابعة والخمسين نجد : (أن السيدة زبيدة أرسلت مع جارية بنجاً وبنجتها) . ونمود إلى (البنج) وهو المادة المخدرة باصطلاح عصرنا . ولكن البنج وهو دخيل فارسي مازال معروفاً . والعامية على طريقتهما تشق الأفعال من أى مادة كانت ولهذا جاء الفعل (بنج) كما هو مستعمل الآن في العامية العراقية حقيقة ومجازاً . والمراد بالاستعمال المجازي حالة الغيبوبة مطلقاً .

وفي الصفحة المائة والتاسعة والخمسين نقرأ : (وكان يظن أنه رجل مسكين مديون . .) وأريد أن أقف على كلمة (مديون) لأشير إلى أنها صيغة عامية ، والفصحى أن يقال (مدين) . واللغات العامية لا تعرف (المدين) وهي كلها تستعمل (مديون) على مفعول فلا تميل إلى هذا التخفيف في الصيغة التي أسماها الصرفيون (الإعلال) .

وفي الصفحة المائة نقرأ ما يأتي : (إنه ابن ناس وعليه أثر النعمة) . وهذه

(١) انظر اللسان مادة (صفو).

العبارة تشتمل على قول صاحب الحكاية (ابن ناس) والمراد بهذه (ابن أمجاد) أو أنه من أسرة طيبة . وهذه العبارة عامية واضحة ما زالت مستعملة حتى يومنا هذا في عاميتنا البغدادية . وربما سمعنا شيئاً آخر يقرب من هذه العبارة هو (ابن أوادم) والأوادم في هذا الاستعمال العامي جمع لآدمي ، والآدمي عندهم هو المختير الماجد .

وفي الصفحة المائة والتاسعة والستين نقرأ : « فقات له : وحق ديني » . وهذا الضرب من عبارات القسم مستعار من العامية الدارجة ، وهو ما زال مستعملاً في العامية البغدادية . وقد أشرت غير مرة أن العامية تلزم بالقسم . وللقسم عندهم أساليب خاصة بهم عرضت لطرف منها .

ونقرأ في الصفحة المائة والسبعين ما يأتي : « وقالت له : طب نفساً وقر عيناً فإنك ضيفي وصار بيننا خبز وملح » . وقد أشرت إلى أن الحكايات تعتمد إلى نقل الكلام العامي على صورته ، والكلام العامي له خصائص . ومن ذلك اشتماله على أجزاء كثيرة فصيحة ، وأنه يجمع بين الفصيح وغيره . ولكن هذا الفصيح يفقد صفة الفصاحة إذا ما صُفِّ إلى جنب غيره من ألفاظ السوق . وقد عرض لهذا علماء البلاغة وضربوا الأمثال . وفي هذه العبارة نجد شيئاً من هذا فقوله : « طب نفساً وقر عيناً » من الفصيح العالي ، ولكن العبارة الأخيرة وهي « وصار بيننا خبز وملح » هي من العامية بمكان ، وإنك تسممها كثيراً في كلام العامة في أيامنا . وربما قالوا شيئاً مثل هذا وهو : « صار بيننا زاد وملح » والزاد هو الطعام عامة . ومعنى العبارة معروف فالمراد منها « أنه صارت بينهما علاقة قوية لا يمكن أن يتخطاها أحد منهما » .

وفي الصفحة المائة والثانية والسبعين نجد : « وقالت إن كان لعبك هكذا فأنت لا تعرف شيئاً . فقال هذا أول دست ولا تحسبينه » . وهنا أريد أن أعود إلى الألفاظ الفارسية التي استعيرت في العامية ، ومن ذلك كلمة « دست » التي

ما زلنا نستخدمها في المكان نفسه في صيغة « داس » وهي من كلمات الأطفال التي يستخدمونها في المحال البغدادية العتيقة في ضروب لمبهم ولهموم .

وفي الصفحة المائة والسادسة والسبعين نقرأ العبارة الآتية :

(وأرسل أبوها إلى والدي مكتوباً فيه كلام لا ينبغي ذكره) .

و (المكتوب) في هذا النص يعنى الرسالة ، وإطلاق (المكتوب) على الرسالة من الأمور المتأخرة وهو من الكلمات الشائعة في العراق في عصرنا ، وربما كانت أكثر شيوعاً من كلمة رسالة .

ونقرأ في الصفحة المائة والسابعة والسبعين ما يأتى : (فلما سمع شركان ذلك الكلام لاجت عيناها واحمرت وجنتاه) . والكلمة التي تستوقف الباحث في هذا النص هو الفعل (لاج) وهو فعل عامى ومعناه في العامية الحركة والاضطراب . على أن معناه في اللغة الفصيحة غير هذا فيقال مثلاً : (لاج الطعام في فيه) أى أداره^(١) . على أن استعماله العامى من الأمور المعروفة في عاميتنا العراقية على وجه العموم .

وفي الصفحة المائة والحادية والثمانين نجد ما يأتى : (فقلت ما يكون إلا الخير) والمعنى واضح والنص مأخوذ من حوار تقتضيه الحكاية . ومن أجل ذلك قصد صاحب الحكاية أن يضع على ألسنة شخوصه ما يشيع من المتداول السائد من الكلام . وهذه العبارة ما زلنا نستعملها كثيراً في الفرض نفسه .

وفي الصفحة المائة والسادسة والثمانين نقرأ (طول روحك واصبر) . وهذه العبارة واضحة المعنى كما أن اللون العامى واضح فيها فإن قوله : « طول روحك »

(١) انظر اللسان مادة «لوج» . والفعل «لاج» من الأفعال العامية ، وهو مقلوب (جال) الفصيحة ، والعامية تخرج إلى هذا القلب المكاني في كثير من المواد .

أى كن رحب الصدر واسع البال . وهو كلام عامى نستعمله الآن كثيراً . وربما قلنا ما فى معناه وهو « طول بالك » وقد مرت هذه العبارة الأخيرة فى نصوص الحكايات وأشرنا إليها فى مكانها .

وفى الصفحة المائة والثامنة والثمانين نجد ما يأتى : فقالت له أخته : « والله يا أخى إنى مالى وجه للسؤال » . والمراد بعبارة « مالى وجه للسؤال » أى إنى لأملك الشجاعة لأسأل هذا السؤال . وهذه العبارة مازالت مسموعة فى العامية البغدادية .

ونقرأ فى الصفحة المائة والتاسعة والثمانين ما يأتى : « فقلت لاحول ولا قوة إلا بالله إنى دخلت فى خطيئة هذا الصبي » . والعبارة الأخيرة فى هذا النص تشير إلى العامية التى بقيت إلى هذه الأيام ، وهى « إنى دخلت فى خطيئة هذا الصبي » فالدخول فى الخطيئة تعبير عامى ومعناه أى إنى تحملت خطيئة بسبب هذا الصبي .

وفى الصفحة المائة والسابعة والتسعين نقرأ : « وأخذ لها مصاغاً ووضعها فى بقجة من الأطلس » . وبهذه العبارة نقرأ كلمة « المصاغ » والمراد بها الحلى عامة وفى صوغ هذه الكلمة مخالفة للقياس المشهور فالصحيح الفصيح أن يقال « مصوغ » وهو اسم مفعول من الثلاثى « صاغ » ولكن للعامية سننّها وسبيلها فلا تكثر بقوانين الصرفين والنحاة وتجربى على سليقة خاصة تخترعها لنفسها .

ثم إن « المصاغ » وضعه فى (بقجة من الأطلس) وقد أشرنا إلى البقجة ودلالاتها فى العامية العراقية ، ونضيف الآن أن هذه (البقجة) من (الأطلس) (١) والمراد بالأطلس الحرير كما هو معروف الآن عند العراقيين . فالأطلس عندهم لون خاص من الحزير . وهذا المعنى لا تثبته كتب اللغة فكلمة (أطلس) ذات معان

(١) انظر اللسان مادة (طلس) .

عدة منها الوسخ الثياب ومنها صفة من صفات الذئب وشيء كثير آخر لا حاجة بنا أن نعرض له الآن . غير أننا لا نجد معنى الحرير في هذه المادة اللغوية .

وفي الصفحة المائتين والخامسة عشرة نقرأ ما يأتي : « فأختلي بأخي ونستريح مع بعضنا ونشبع من بعضنا » . والعامية واضحة كل الوضوح في هذا النص ولا سيما في قول صاحب الحكاية : ونشبع من بعضنا » فالشبع على هذا النحو غير وارد في اللغة الفصحى . ومازلنا نستعمل هذه العبارة في كلامنا الدارج .

ونقرأ في الصفحة المائتين والثانية والأربعين ما يأتي : « وعندما جارية تغني بالعربي » وعبارة تغني بالعربي » عبارة عامية نستعملها الآن في كلامنا الدارج كأن نقول « المغنية فلانة » تغني بالفارسي مثلاً .

وفي الصفحة المائتين والخمسين نجد : « لقد ضاع تمبنا » والمراد من العبارة معروف وهي من اللون الدارج الذي نستعمله كثيراً .

ونجد في الصفحة المائتين والستين العبارة الآتية : لأنني لم يكن لي شغل في حياة المرحوم والدك إلا بالحكايات) . وهذا من غير شك كلام عامي لا يختلف عن العامية الدارجة التي نباشرها الآن .

وفي الصفحة المائتين والرابعة والستين نقرأ ما يأتي : (وعبوا القماش في الصناديق) . وفي هذه العبارة الفعل (عبي) وهو الصيغة العامية للفعل الفصح (عبأ) . وقد قلت إن سبيل العامية العدول عن الهمز إلى التسهيل ، وتسهيل الهمزة في هذا الفعل يؤدي إلى الألف الأخيرة . وهذا الفعل العامي هو المعروف الآن في عاميتنا المراقية على وجه العموم .

وفي الصفحة المائتين والثانية والسبعين نجد : (واستمرت جالساً إلى وقت العشاء) . وفي هذه العبارة الفعل (واستمر) وهو مضعف مسند إلى ضمير الفاعل على الطريقة العامية الشائعة في أيامنا . وهذا الإسناد العامي لا يقتضي

فك التضميف ، إنما تضاف الياء حشواً . وقد شرحنا ذلك في أفعال سبق الكلام عليها .

وفي الصفحة المائتين والثلاثة والثمانين نقرأ ما يأتي : (وقالت : يامولاي الله تعالى يهنيك بشبابك ولا يفضحك) . وقد أثرت أن العامة تلتزم بأساليب خاصة في الدعاء تختلف عما ألف في اللغة الفصيحة . وهذا النوع من الدعاء وهو أن يهناً المدعو له بالشباب ، مما هو شائع في عاميتنا اليوم . فأنت تسمع هذه العبارة على ألسنة العامة في كثير من مدن العراق . وفي هذه الصفحة أيضاً نقرأ ما يأتي : (أترجاك أن تمشي معي خطوات إلى ذلك الباب) . والعامة تعدل عن صيغة إلى صيغة فصيحة أخرى فتكثر في كلامها حتى يخليل إليك أنها عامية . ومن ذلك الفعل (أترجي) وهو فعل مزيد ، فلا يقولون (أرجوك) . ومن سنن الفصاحة ذلك اللجوء إلى المجرد دون المزيد إذا تم المعنى في الائتين .

وفي الصفحة المائتين والتاسعة والتسعين نقرأ ما يأتي : (فقالت : كل الذي جرى لي من تحت رأس هذه العجوز) وقول صاحب الحكاية (من تحت رأس) عامي واضح ما زلنا نستعمله في لغتنا .

ونحنم في استقرائنا الجزء الأول من الكتاب ونبدأ الجزء الثاني فرى أن هذا النمط العامي الذي عرضنا للنماذج كثيرة منه يستمر في نصوص الكتاب في الجزء الثاني أيضاً . ومن أجل ذلك فليس بنا حاجة أن نكرر ما كنا قد عرضنا له ، ولكننا نسجل من هذه النماذج العامية ما لم يمر بنا في استقرائنا لنصوص الجزء الأول .

ففي الصفحة الخامسة عشرة نقرأ ما يأتي (خلقت له ألفاً وخمسمائة عيين لا أخونه) . وهذا الأسلوب عامي واضح ، وهو اللجوء إلى العدد الكبير لإثبات حقيقة من الحقائق . وهذه الطريقة حاصلة في عاميتنا البغدادية ، كأن يقال : (قلت له خمسين مرة لا تعمل هذا العمل) ، وربما بولغ في هذا الأسلوب

على ظن لغة هذه الحكاية (فيقال : (قلت ألف مرة لا تعمل هذا العمل) -

ونقرأ في الصفحة الرابعة والعشرين ما يأتي : (ويبيّن للفرايل والمناخلى ويسلى شحمى) وفي هذه العبارة يرد الفرايل لصانع الفرايل أو بائعها ، وكذلك (المناخلى) ولا أريد أن أعلق على هاتين الكلمتين إنما اقتصرنا على الفعل (سلى) وهو فعل عامى ، (و (سلى الشحم) طبخة وأصل هذا الفعل (سلاً) بالهمز ولكن العامية لا تحتل الهمز كما أشرنا غير مرة فتعدل عنه إلى التسهيل . وفي كتب اللغة سلاه يسلوّه سلاً طبخة وعالجه فأذاب زبده ، والاسم : السّلاء بكسر السين وهو السمن قال الفرزدق :

كانوا كسائلة حمقاء إذ حقنت سلاءها في أديم غير مربوب (١)

وفي هذه الصفحة أيضاً نقرأ : « ولا أقدر أن أكسر بخاطرك » وهذا التعبير عامى ما زلنا نسمعه على السنة العامة في كثير من نواحي العراق .

وفي الصفحة السابعة والأربعين نقرأ ما يأتي : (استدعى بماء فحضروا له الماء) وأريد أن أقف على الفعل المضعف (حضر) والمراد منه في هذا النص (أحضر) أى الرباعى المهموز وهو الفصيح المستعمل ، أما هذا الفعل المضعف فهو الشائع في العامية كما هي الحال في عاميتنا الحديثة .

ولابد من ملاحظة شيء واحد هو أن النصوص الفصيحة القديمة يكثر فيها المهموز الرباعى الذى زيد فيه الهمزة لغرض التعمية ، وهذه الصيغة التى تؤدى هذا الغرض أكثر من صيغة الرباعى فى الغرض نفسه ، وأنت إذا استقرت هاتين الصيغتين فى كتاب الله الكريم وجدت هذه الملاحظة صحيحة . ودليلنا أيضاً أن عاميتنا الحديثة البغدادية لا تعرف صيغة الرباعى المهموز فى غرض التعمية . فنحن نستعمل الفعل (حضر) المضعف فى المعنى الذى استعمل فيه فى

(١) انظر اللسان مادة (سلاً)

نصوص هذه الحكايات ومعناه (هيتاً) . على أن حاجة العصر تقتضى مواد لغوية جديدة . فالحضارة تقيض البداوة ولدت لنا الفعل (حضّر) المضعف باصطلاح أهل هذا العصر ، أو قل إنهم اشتقوا منها هذا الفعل .

وفي الصفحة الثانية والستين نقرأ ما يأتى : وأتحمل الصعوبة لأجل خاطرك وقوله (لأجل خاطرك) تعبير عامى واضح مازال متداولاً بين العامة فى العراق .

ونقرأ فى الصفحة المائة والسابعة والسبعين العبارة الآتية : (وعملت أنها ميتة وبعد ما دفنتموها شقت القبر) . واللون العامى واضح فى هذا النص فقوله : (وعملت أنها ميتة) ثم قوله (وبعد ما دفنتموها) من الكلام العامى .

وفى الصفحة المائة والتاسعة والسبعين نجد ما يأتى : (فقال لها : يابنتى أنا عندى اليوم قبض زائد فاقعدى حتى أسكر معك) . والعامية فى هذا النص تتضح فى قوله : (عندى اليوم قبض زائد) . والمراد بالقبض الإمساك فى المدة وهو احتباس وتصلب فى المدة فلا يبرز الإنسان وهذه الكلمات الشائعة فى العامية البغدادية أو قل العراقية بصفة عامة .

وفى الصفحة المائة والتسعين نقرأ ما يأتى : (فا برح يتخضع لها حتى صالحها) . وفى هذا النص يرد الفعل (يتخضع) بتضعيف الضاد ومعناه فى النص (يتوسل بصورة ذليلة) وهذا الفعل فى معناه هذا عامى دارج مازلنا نسمعه فى العراق عامة ومادة هذا الفعل هى (اخضع) وكتب اللغة لاتشير فى مفردات هذه المادة إلى هذه الصيغة أو هذا المعنى . فهو عامى منصرف إلى العامية ليس غير . وهكذا نكمل فى استقراءنا نصوص الجزء الثانى فنستمر فى الجزء الثالث لنسجل من هذه الألوان العامية مما يجد ولا نأبه لما يتكرر من نماذج سبق أن تكلمنا عليها .

وفى الصفحة الحادية عشرة نقرأ (وينطق عن قلب حنين) وكلمة (الحنين)

في هذه العبارة وصف للقلب وهي على « فعيل » وأكثر أوزان فعيل يأتي نعتاً .
غير أن « الحنين » مصدر للفعل (حن) المضعف وهو بهذا الشكل في اللغة
الفصيحة ، ولكن العامية قد فهمت فيه الوصفية جرياً على الوزن (فعيل)
وانصرافه إلى النعوت في الأغلب الأعم . وما زالت هذه الكلمة مستعملة على
الوصفية في العامية البغدادية .

ونجد في الصفحة التاسعة عشرة النص الآتي :

« فأخرجته من المكتب وحطته في الصنعة فلم يتعلم شيئاً ولم يطلع من يده
شيء من الشغل ، ونكبت أمه من أجل ذلك ، فقال لها الناس : زوجيه لعله يحمل
هم زوجته ويتخذ له صنعة ، فقامت وخطبت له بنتاً « وليس من شك أن القارئ
يكشف في هذا النص لغة عامية كأنها قيلت في يومنا هذا . « فالمكتب » هو
« المدرسة » أو « الكتاب » والفعل « حط » وقد تكلمنا عليه كثيراً ، ثم إن
« الصنعة » هي المهنة ، وهي من الكلمات الشائعة في العامية العراقية .. وفي قوله :
« ولم يطلع من يده شيء من الشغل » كلام منقطع للعامية ، أي أنه لا يقوى على
شيء ولا يفهم أي عمل . والنص في مجموعه من العامية الشائعة .

وفي الصفحة الثالثة والثمانين نقرأ ما يأتي :

« فقامت واشترت لي متاعاً وبضاعة وأسباباً وشيئاً من أغراض السفر » .
وفي هذا النص ترد كلمة « الأسباب » والأسباب بهذا الشكل عامية فهي تعني
الحاجات وما لا بد منه للمسافر من ضرورات مثلاً . وهي كلمة شائعة في العامية ،
وليس الاستعمال الفصيح لهذه الكلمة مشابهاً لهذا الاستعمال المتداول العامي . ومثل
هذه الكلمة وردت كلمة « الأغراض » وهي الحاجات وما يتزود به المسافر من
زاد ومتاع ، وهذا الاستعمال عامي أيضاً مازال متداولاً في كثير من جهات
العراق .

ثم إن استخدام الفعل « قام » بهذا الشكل مأخوذ من الطريقة العامية .
وفي الصفحة التسعين نقرأ ما يأتي :

« وأنا مثل السكران دأخ من شدة السهر » . والدأخ وزن فاعل من « داخ »
وهي كلمة عامية شائعة جداً .

وفي الصفحة المائة والحادية والسبعين نقرأ ما يأتي :

« ما أخاف عليها إلا من القهر من جهة زوجها » . وهذا النص يشتمل على
ألفاظ منصرفة إلى العامية فمن ذلك القهر ومعنى القهر في اللغة الفصيحة معروف ،
ولكن معناه في هذا النص هو الهم والحزن وهذا المعنى لا يرد مطلقاً . ثم إن قوله
« من جهة زوجها » تعني « من أجل » وهذا التعبير عامي أيضاً نستعمله الآن في
لغتنا العامية السائرة .

وفي الصفحة المائتين والتاسعة عشرة نقرأ :

« وتنزل يشبط معها الولد » . والفعل « يشبط » بمعنى يتحرك « وهو ربما
أخذ من « الشبوط » من أنواع السمك ، والفعل عامي دارج .

وفي الصفحة المائتين والعشرين نجد النص الآتي :

« فأت لنا بزوجين خلاخل وزوج أساور ذهباً وحلق لؤلؤ وحياسة »

وفي هذا النص ذكر لنماذج من الحلي ولكن صاحب الحكاية ذكر في جملة
ذلك « حياسة » والحياسة نوع من النطاق أو الزنار يرصع بالذهب أو الفضة يشد
على الخزم . والكلمة من الألفاظ العراقية ، وما أظن غير المراقين يهتدون إلى
معرفتها . والكلمة من « حاص » بمعنى « أحاط » وهي من أصل آرامي
سرياني .

وفي الصفحة المائتين والثالثة والعشرين نقرأ ما يأتي :

« وهو يقول لنفسه : الزلاية أكلها زين » . وفي هذا النص ترد الكلمة « زين » وهي كلمة فصيحة ولكن العامية البغدادية قد استعارت هذه الكلمة واستعملتها بكثرة محتفظة بمعناها تارة ، ومحرقة هذا المعنى تارة أخرى . فانت كثيراً ما سمعت هذه الكلمة تكون دالة على الإيجاب ، فكأنها أريد بها (نعم) من أحرف الجواب ، كأن تأمر أحداً يهيم لك طعاماً ؛ فيقول هذا الرجل (زين) والمراد بهذا (نعم) أو سمعاً وطاعة أو شيء مثل هذا .

وفي الصفحة المائتين والسابعة والثلاثين نقرأ :

(وراح لزريق السماك فقال له : (أى شيء تطلب يا أسطا) . وفي هذا النص ترد كلمة (أسطا) ويراد بها الأستاذ في مهنة من المهن وهي من الألفاظ الشائعة في العراق في اللغة العامية .

وقد تجدد في نصوص هذه الحكايات كلاماً لا يخلو من العبث وهو مفتقر للأعراب . ومن ذلك ما ورد في الصفحة المائتين والثامنة والأربعين : (ثم قام الملك وأزال بكارتها فوجدها بنت بكر) . والفعل (قام) مستخدم على الطريقة العامية . ثم إنه (أزال البكارة فوجدها بنت بكر) (والبنت البكر) كأنها أثبتت ساكنة غير منصوبة جرياً على العامية المتأخرة .

وفي الصفحة المائتين والتاسعة والتسعين نقرأ ما يأتي :

(ما حاجتك حتى أقضيها على عيني ورأسي) وفي قول صاحب الحكاية (على عيني ورأسي) تأكيد لعامية متداولة متأخرة ، فهذه العبارة من الكلام الذي نقوله الآن في لغتنا البغدادية .

وهكذا نستمر في الاستقراء لهذه النصوص الممتعة فنقرأ الجزء الرابع فلا نرى شيئاً جديداً يستحق الذكر ، فالألوان العامية التي سجلناها في الأجزاء الثلاثة ترد في هذا الجزء فلا حاجة أن نكرر ما أسلفنا الكلام عليه .

خاتمة :

وبعد فهذا عرض سريع لمواد هذا الكتاب الضخم لم أرد به التمتع وإزجاء الوقت ولكنني قصدت أن يكون دراسة لغوية تاريخية .

وقد تبينت أن عاميتنا البغدادية ، أو قل الألوان العامية العراقية ليست بعيدة مما سجلناه في هذا الاستقراء .

ولست أدعي أن هذا الاستقراء قد أصاب الشمول والعموم ، أو أنه أتى على كل الألوان العامية في هذا الكتاب . ولكنه على كل حال يهيء للباحثين في هذا السفر مادة لا بد من الوقوف عليها والنظر فيها .

الفصل الثالث عشر

العربية التونسية

ربما انصرف ذهن القارىء إلى أنى سأتكلم على اللغة العامية الدارجة في تونس ، ولكنى لم أقصد إلى هذا ، وإن كانت هذه الألوان العامية حرية بالدرس والبحث عملا بالنهج العلمى فى درس اللغات دراسة تاريخية تعين على فهم شىء من تاريخ فصيح العربية .

وقد تهيأ لى أن أقضى فى تونس مايقرب من سنة كاملة ، فكان لى أن أملت بشىء يتصل بأدب القوم وطسرف آخر من مآرفهم ، وأسلوبهم فى الكتابة ، ولم أقتصر على النظر فى هذه الأمور ، فقد استوقفتنى لغة الصحيفة اليومية بما فيها من خبر سياسى ، وآخر يتعلق بما يجرى بين الناس فى معاملاتهم وشئونهم الخاصة ومايمرض من أمور . ولم أقتصر كذلك على النظر فى هذه الأبواب فى هذه الفترة التى نباشرها من تاريخنا المعاصر بل تخطيتها إلى النظر فى الصحف والمجلات التى ظهرت فى عهد ما قبل الاستقلال .

وهذه الفترة الأخيرة مفيدة لنا نحن المشاركة الذين ضرب المستعمر بيننا وبين إخواننا فى الشمال الإفريقى .

وقد قلت لى وقفت على أشياء كثيرة تتصل بلغة التونسيين فرأيت أن أسجلها وأشير إليها خدمة للتاريخ اللغوى . ولم أرد أن أسلك فى هذا البحث مسلك التخطئة فأدل على مكان التجاوز للفصيح فى هذه الاستعمالات التونسية ، ذلك أن هذه الاستعمالات التونسية فصيحة وإن عرض لها شىء ييمدها عن الفصيح المشهور ، فقد اتصفت بلون من الإقليمية أو قل المحلية ولهذا أسباب سأعرض لها عند الكلام على هذه الاستعمالات . ولا أريد أن أنهى هذه المقدمة القصيرة دون

أن أشير إلى أن هذه العربية التونسية قد حفلت بشيء من الفصيحة القديم الذي ندر استعماله في بلاد المشرق .

يشيع في هذه اللغة صيغ عربية لم تجر على نحو ما نصت عليه كتب اللغة ، أو على نحو ما جرى الاستعمال به في غير هذه الديار فمن ذلك :

الفعل « حجر » فالمعروف في استعماله أن يجيء ثلاثياً مجرداً ، والقاعدة اللغوية تجري على أنه إذا سمع المجرد فلا يلجأ إلى المزيد إلا لفائدة مقتضاة ^(١) ولكن التونسيين يستعملون هذا الفعل بصيغة التضعيف فيقولون مثلاً . « حجّرت الحكومة الإفطار العلني في خلال شهر الصوم » . أو أنك تقرأ على لافتة في الطريق « وقوف السيارات محجّرت هنا » ومعنى هذا أن صيغة المضعف من هذا الفعل هو الفصيحة الجاري عندهم فهم يستعملونه كما يستعملون سائر الصيغ التي تأتي منه كاسم المفعول مثلاً

هذا هو الاستعمال التونسي أما الفصيحة المشهور فإن الفعل « حجر » الثلاثي المجرد يعنى « منع » الحجر هو المنع وفي لغة التنزيل : « ويقولون حجّراً محجوراً » ^(٢)

(١) هذه القاعدة أخذت بها العربية وجرى عليها الاستعمال ، وفي لغة التنزيل ما يؤيد ذلك فقد قال تعالى : « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » ، (سورة النمل ١٨) . ألا ترى أن الفعل « حطم » جاء بصيغة المجرد ولم يأت مضعفاً كما هو شائع في استعمالنا الحديث ، ولكن الاستعمال يعدل عن المجرد إلى المزيد لفائدة يقتضيها المعنى ، ومن ذلك جاء قوله تعالى : « يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » (سورة القصص ٤) فالقعل « يذبح » جاء مضعفاً والتضعيف في هذا المقام فائدة خاصة للدلالة على التهويل والاستفظاع . ومن هذه الفوائد ما ورد في قوله تعالى : « وغلقت الأبواب » (سورة يوسف ٢٢) فالتضعيف في الفعل يفيد الكثرة .

(٢) اللسان مادة « حجر » سورة الفرقان ٢٢ .

أى حراماً مُحَرَّمَاً فقد استعمل الثلاثى المجرد فى صيغة اسم المفعول ، ومنه قولهم « حَجَرَ عليه القاضى يحجر حجراً » إذا منعه من التصرف فى ماله . وفى حديث عائشة وابن الزبير : « لقد هممت أن أحجر عليها » هو من الحجر المنع ، ومنه حَجَرَ القاضى على الصغير والسفيه إذا منعهما من التصرف فى مالهما .

وينبنى من هذا الفعل وزن « تفعل » فيقال تحجر على ماوسعه الله ^(١) أى حرمة وضيقه . وفى الحديث لقد تحجرت واسعاً ، أى ضيقت ماوسعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك وقد حجره وحجره .

وينصرف المضعف من هذا الفعل إلى معان وأخرى فيقال : حَجَّرَ القمر إذا استدار بخط دقيق من غير أن يغلط ، وكذلك إذا صارت حوله دائرة فى النيم . والتحجير أيضاً أن تَسِمَ حول عين البعير بميسم مستدير ^(٢) .

ومن هذه الاستعمالات التونسية الفعل « تحصّل » على وزن تفعل وهى تدخل فى الباب المتقدم ذكره ، فالتونسيون يستعملون هذه الصيغة ولا يفتنون إلى أن المجرد ينفى عنه ويسد مسده ، وليس من ضرورة تستدعى اللجوء إلى هذه الصيغة ، فهم يقولون مثلاً : « تحصّلت الحكومة على النتائج الباهرة فى مقاومة التخلف الاقتصادى » فيعدون الفعل بـ « على » كما يتعدى الفعل المجرد « حصل » بهذا الحرف نفسه . وهذه الصيغة غير معروفة على هذا النحو فى الفصحى المشهور ذلك أنهم يقولون « تحصّل الشيء » بمعنى تجمع وثبت ^(٣) . وهذه الزيادة فى هذا الفعل قد نقلت الفعل إلى معنى آخر .

ومن هذه الأفعال التى ترد فى الاستعمال التونسى على نحو خاص الفعل « وَقَعَ »

(١) اللسان مادة «حجر» .

(٢) الصحاح مادة «حجر» .

(٣) اللسان مادة «حصل» .

ولابد من النظر في هذا الفعل فقد كثر استعماله بشكل يدعو إلى التأمل ، كأن يقال (المسألة التي وَقَعَ بحثها) ولا يقال المسألة التي بحثت . ويقولون : (المشكل الذي وقع النقاش فيه) وأنت واجد مثل هذا الاستعمال في الصحف والمجلات والكتب العلمية وهو من الكثرة بحيث يجب الوقوف عليه . وأظن أن هذا الاستعمال قد حصل في العربية التونسية بسبب التأثير بالاستعمالات الفرنسية ، واللغة الفرنسية ذات أثر في الاستعمال التونسي كما سنتبين .

ومن هذه الأفعال أيضاً الفعل (أطرد) والتونسيون لا يستعملون المجرّد الفصيح المشهور والذي يغني عن هذه الصيغة الزيدة فيقولون مثلاً : (أطرد العامل من عمله) وفي الفصيح المشهور الطرد الإبعاد ، والرجل مطرود وطريد ، أما الفعل « أطرد » فلها استعمال خاص فيقال : أطردت الإبل أي أمرت بطردها ، وفلان أطرده السلطان إذا أمر بإخراجه عن بلده^(١) .

قال ابن السكيت : أطردته إذا صيرته طريداً ، وطردته إذا نقيته عنك وقلت له : اذهب عنا . وابن شميل يقول : أطردت الرجل أي جعلته طريداً لا يأمن . فأنت ترى أن صيغة « أطرد » تفيد فائدة ، وهي تؤدي خصوصية معنوية لا تأتي من المجرّد « طرد » .

ومن هذه الاستعمالات التونسية قولهم : « اقتبل نخامة الرئيس الوفد التجاري على الساعة العاشرة صباحاً » وفي هذه الجملة نجد الفعل « اقتبل » فثبير استغرابنا ذلك أننا لم نألف هذه الزيادة في الفعل « قبل » ، والمراد منها (استقبل) المشهور الشائع . وفي كتب اللغة : (اقتبل أمره) إذا استأنقه^(٢) ومن هنا فالاستعمال التونسي استعمال خاص لم تذكره معجمات العربية وكتب اللغة الأخرى .

(١) اللسان مادة «طرد» .

(٢) اللسان مادة «قبل» .

ثم إنك تلمح في هذه الجملة شيئاً آخر ، ذلك هو استعمال حرف الجر « على » للدلالة على الظرفية . والمشهور المعروف أن الحرف « في » هو الذى يؤدي هذه الظروف الزمانية ، وليس لنا أن نلجأ إلى التأويل فنقول إن الحرف « على » تضمن معنى « في » فنقول بالتضمن الذى يشيع في حروف الجر ، ذلك أن هذا الخروج التضمني لم يؤيده السماع .

ومن هذه الأفعال التى يتجاوزون في استعمالها الفصح المشهور الفعل « أبهر » ويريدون به الثلاثى « بهر » فيقولون مثلاً « أبهرت بما شاهدته من التقدم العلمى » وكان الأصوب والأرشد أن يقال « بهرت » .

وزيادة الهمزة في هذا الفعل تنقل الفعل إلى معان أخرى كما تنص على ذلك كتب اللغة ، فالفعل « أبهر » استغنى بعد فقر ، وأبهر تزوج سيدة وهى البهيرة ، وأبهر الرجل إذا تلون في أخلاقه دماً مرة وخبثاً أخرى^(١) .

وقد تقرأ في الصحف التونسية ولا سيما ما ظهر منها قبل الاستقلال قولهم « ذكرت الرصيفة الثريا خبر استقالة الوزارة » . وفى هذه الجملة بنوا من الفعل « رصف » على فعيلة للدلالة على ما نستعمل في عريقتنا السائرة في أيامنا هذه لفظة « الزميلة » وهو استعمال خاص بهم لا يدرك إلا بهذا التوسع في دلالة الفعل « رصف »^(٢) .

ومن ألفاظهم الاصطلاحية كلمة (التصبير) وهى كلمة تدل على لون من ألوان الصناعة الحديثة . وهو اصطلاح لا نعرفه في المشرق وإنما نستعمل « التعليب » ؛ ومعناه خزن الفواكه واللحوم والخضر في الصنائج المعدنية . واستخدامهم هذا

(١) اللسان مادة « بهر » .

(٢) جاء في (المعجم الوسيط) : هو رصيف فلان أي يحاكيه في عمله ويألفه ولا يفارقه . وهى رصيفة وراجعنا اللسان والتاج والصحاح فلم نجد فيها معنى المحاكاة في العمل . ومع هذا فالمعنى المذكور معروف في الشام .

الاصطلاح لا يخلو من أساس لغوي معروف ، فأصل الصبر الحبس ^(١) ، وكل من حبس شيئاً فقد صبره ، ومنه الحديث : نهى عن المصبورة ، ونهى عن صبر ذى الروح ، والمصبورة التى نهى عنها : هى المحبوسة على الموت . وفى حديث آخر فى رجل أمسك رجلاً وقتله آخر فقال : اقتلوا القاتل واصبروا الصابر يعنى احبسوا الذى حبسه للموت حتى يموت كفعله به قال عنتره :

فصبرت عارفة لذلك حرّة رسوا إذا نفس الجبان تطلّع
يقول : حبست نفساً صابرة .

فأنت ترى أنهم بنوا مصطلحهم من فكرة الحبس الذى يؤدى بالفعل « صبر » كما أن « التعليب » فى استعمال المشاركة جاء من « علبه » والعلبة فى اللغة قدح ضخم من جلود الإبل . وقيل العلبة من خشب كالقدح الضخم يحلب فيها ^(٢) . ومازال العراقيون يستعملون العلبة للأناء الذى يضعون فيه اللبن الخار ، وهى من خشب .

وأنت تقرأ فى كتبهم الفقهية مثلاً : « يجوز لتسوغى أراضى الدولة أن يتمتعوا بالفوائد التى تضمنها فصول القانون » والمتسوغ من مصطلحاتهم القانونية فهو المستأجر ، ويبدو أن هذا الاستعمال قديم فى لغتهم :

و « الفصول » عندهم تقابل « المواد » القانونية فى اصطلاحنا .

وتأخذ الصحيفة اليومية فتقرأ فى الصفحة الأولى . « خطاب الممثل القار للجمهورية التونسية فى ندوة الأمم المتحدة » . وتعيد قراءة هذه الفقرة فتقف على كلمة « القار » ، فتلمح فيها شيئاً لم تألفه ، ثم تعرف أن التونسيين يريدون بالقارة كلمة « الدائم » أى الممثل الدائم . فقد بنوا من الفعل « قر » على وزن فاعل للتعبير

(١) اللسان مادة « صبر » .

(٢) اللسان مادة « علب » .

عن هذا المعنى ، وما أظن أن هذا الفعل يوصلهم إلى ما يريدون يسر . وهذا لون من ألوان التوسع في الاستعمال .

وربما يدفعك حب التطلع فتقرأ الأخبار القضائية فتقرأ فيها « القرار المخدوش فيه » ، ويريدون بالخدش على سبيل المجاز الطعن كما في استعمالنا مثلاً « القرار المطعون فيه » .

وللقوم أساليب خاصة في التعبير عن شئونهم وما يضطربون فيه ، وهذه التماير وإن كانت عربية فهي موسومة بإقليمية محلية ، فأنت تقرأ في الصحيفة التونسية :

« ازدان فراش السيد فلان وعقيلته بمولود ذكر أسمياه محمداً » فهذا اللون من التعبير لا نجده إلا في الصحف التونسية .

وقد تجد في هذه العربية التونسية شيئاً آخر هو أن المادة العربية الفصيحة استعملت في دلالة جديدة لا تمت إلى الأصل بسبب ، أو قل إن المادة الفصيحة قد أحالها الاستعمال إلى مادة عامية دارجة . ومن ذلك مادة (شيخ) فيبنون منها الفعل (شاح) واسم الفاعل (شايح) لتدل على الجفاف واليبس ، فإذا قالوا : لحم شايح فيريدون به (جاف) وشاحت الفاكهة أى جفت وييست .

وإذا رجعنا إلى كتب اللغة نرى مادة (شيخ) ^(١) ودلالاتها على الحذر والجد ، والشائح والشيخ والشيخ هو الحذر الجاد . ولا نعلم وجهاً للتقريب بين الفصيح والمستعمل الدارج .

وقد تقرأ من استعمالاتهم ما يبنى على أصول قديمة ولكنهم استخدموه بشيء من التوسع لأغراض جديدة ، ومن ذلك ما تجد أحياناً في الصحف من استعمالهم (الوسق) بمعنى التصدير للبضائع . والوسق بفتح الواو وكسرها هو حمل بعير ، وهو ستون صاعاً ، والوسق وقر النخلة ، ووسقت الشيء أسقه وسقاً إذا حملته ^(٢)

(١) اللسان مادة «شيخ» .

(٢) اللسان مادة «وسق» .

وفي لغتنا التجارية التصدير للبضاعة . ويقابله الاستيراد . ولكن التونسيين يعدلون عن الاستيراد إلى التوريد . قال ابن سيده تورّده واستورده كورده (١) .

وتقرأ في هذا الباب قولهم : « وردت الحكومة البضائع التي ثبتت صلاحيتها (للاستهلاك) ويريدون بالصلوحية الصلاح ، والمصدر من « صلح » صلاح وصلاح . وليس من حاجة إلى المصدر الصناعي « صلوحية » لأن هذا المصدر أكثر ما يلجأ إليه في المصطلح الفني .

وهناك ألفاظ ذات مدلولات تونسية اصطلاحية غير معروفة عند المشاركة مثلاً ومنها : « التربص » ويراد به ما يراد بالكلمة الفرنسية Stage وما نصلح عليه « بالدورة التدريبية » لاكتساب الخبرة والتجربة في فن من الفنون . وليس من سبيل إلى استعارة « التربص » في هذا المعنى إلا بالتوسع البعيد . ومثل هذا المصطلح « المناظرة » بمعنى الاختبار والامتحان للحصول على السابق في النتيجة ، وفي هذا مجاوزة وابتناء عن الامتحان والاختبار اللذين يراد بهما النجاح ليس غير . على أن في أخبار الأدب القديم ما يشبه استعمال : تضمين لهذه الكلمة ، كالمناظرة بين الكسائي وسيبويه مثلاً .

وتقرأ في الصحف التونسية « السلم العالمية » و « استتبت السلم » وهو خلاف المشهور من تذكير السلم في لغة المشاركة . وكتب اللغة تشير إلى فصاحة هذا الاستعمال فقد جاء في لسان العرب : السلم بفتح السين وكسرهما الصلح يذكر ويؤنث (٢) .

وقد وردت هذه الكلمة في لغة التنزيل . فجاءت بكسر السين في سورة البقرة (٣) كما جاءت بفتح السين في قوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » (٤) وقد جاء

(١) اللسان مادة «ورد» .

(٢) اللسان مادة «سلم»

(٣) سورة البقرة ٢٨ .

(٤) سورة الأنفال ٦١ .

ضمير الغيبة الذى يعود للسلم مؤثماً فى هذه الآية ، كما جاءت بفتح السين واللام فى أربع آيات أخرى فى سور مختلفة .

وترى التونسيين يستعملون ألفاظاً لا نجدوها فى استعمالنا الشرقى ، ولكنها فصيحة تثبتها معجمات العربية ، فأنت تقرأ فى صحيفة من صحفهم : أن التاجر الفلانى يزف البشرى إلى « حرفائه » و« الحرفاء » جمع « حريف » وحريف الرجل معاملته فى حرفة ^(١) . والحريف يقابل « الزبون » فى لغة المشاركة وجمعت على « زبائن » كما هو الدارج المألوف ، واستعارة الزبون لهذا المعنى شئء مولد ، وكتب اللغة لا تثبت هذه الدلالة ، فالناقة الزبون هى التى تدفع حاملها .

والفصيح القديم كثير فى اللغة التونسية فهو يطلقون (الشارع) على الطريق العريض الواسع ، و (النهج) على الطريق الذى دونه ، (الزنقة) على الطريق الضيق الذى لا ينفذ (Impasse) . وأكبر الظن أن هذه الكلمة الأخيرة تقابل (الزقاق) فى استعمالنا ، وهى قرية منها فى الاشتقاق . والزقاق بضم الزاى السكة يذكرو ويؤنث وقيل : الزقاق الطريق الضيق دون السكة .

على أن (الزنقة) قد وردت فى فصيح العربية وهى ميل فى جدار فى سكة أو عرقوب واد . والزنقة السكة الضيقة . وفى حديث عثمان (من يشتري هذه الزنقة فيزيدها فى المسجد) :

ويستعملون (الأحواز) جمع (حوز) للدلالة على الجهات القريبة من المدينة الكبيرة كما نستعمل (الضواحي) أو (الأرباض) أو ما شابه ذلك ، فيقولون مثلاً (تونس والأحواز) يريدون العاصمة وماجاورها . والحوز فى كتب اللغة ما انضم إلى الدار من المرافق والمنافع . وفى الحديث : (فحمت حوزة الإسلام) أى حدوده ونواحيه . وهكذا استعملت الكلمة التونسية بشئء من التوسع للاستفادة منها فى هذه الدلالة الجديدة .

(١) اللسان مادة «حرف» .

وفي التنظيمات الإدارية نجد أن المدينة الكبيرة يطلق عليها « الولاية » ،
وصاحب الولاية هو « الوالى » ، والولاية والوالى من الكلمات التى استعملت
قديماً ، وظلت مستعملة إلى العهد القريب الماضى وكان على الولاية قبل فترة
الاستقلال « القائد » .

ويأتى بعد الولاية فى التنظيم الإدارى « المعتمدية » وهى أصغر من الولاية .
ومعنى ذلك أن الولاية يتبعها « معتمديات » عدة ، وصاحب المعتمدية هو
« المعتمد » وهذا من المصطلح الجديد الذى لا نراه فى غير تونس . وكان على
هذه الشعبة من التنظيم الإدارى فى عهد الحماية الفرنسية « الكاهية » ^(١) . ثم
تأتى « المشيخة » للقصبه الصغيرة وصاحبها هو (الشيخ) .

وقد تسمع فى تونس وغيرها من الشمال الإفريقى ألفاظاً فى هذا الباب
لا نعرف لها أصلاً ومن ذلك : (الدشرة) للجماعة الصغيرة المستوطنة فى مكان
معين ، وهى لا تدخل فى التنظيمات الإدارية الرسمية ، ومثلها (المداشر) فى المعنى
نفسه للمجتمعات الصغيرة .

ومن المناسب أن نعرض للألفاظ المتعلقة (بالوظائف الحكومى) ، ونقول
الوظائف الحكومى وليس الوظائف الحكومية كما هو السموغ عادة . وفى هذا
الباب مادة كثيرة لم نعرفها فى غير أقطار الشمال الإفريقى بصورة خاصة . ولا بد
أن نأتى على هذا الجانب من هذه المادة اللغوية وهو :

(١) مدير المراسيم لرئيس الجمهورية ، وهو الموظف الكبير الذى يكلف
أموراً معينة كاستقبال ضيف كبير أو ما أشبه ذلك ، وهى تقابل عندنا (مدير
التشريفات) أو شيئاً يشبه ذلك .

(٢) كاتب الدولة ، وهو منصب معروف فى تونس ، و(كاتب الدولة) عندهم

(١) من الألفاظ التركية .

هو (الوزير) عندنا . كأنهم عدلوا عن الوزير وهو كلمة واحدة إلى هذا التركيب الإضافي تقليداً وترجمة للكلمة الفرنسية في هذا الباب (Secrétaire d'Etat) وعلى هذا الأساس أيضاً لم تكن لفظة (الوزارة) في جدول مناصبهم الرسمية ، فهي (كتابة الدولة للتربية القومية) . وأود أن أنبه إلى أن الوصف بكلمة (القومية) أو (القومى) يرد كثيراً في أسماء الإدارات الرسمية وشبه الرسمية نحو (صندوق الضمان القومى) ، و (الجامعة القومية لاتحاد النقابات) . وهذا الوصف لا يرمز إلى شئ من معناه المتعارف عندنا في الديار الشرقية ، فهو مقابل للكلمة الفرنسية «National»^(١)

(٣) كتابة الدولة للفلاحة ، والفلاحة عندهم هي (الزراعة) في الميادين الرسمية وفي اللغة العامة ، و (الفلاح) عند التونسيين هو غير المشتغل بالأرض كما هي الحال عندنا ، فهو المالك للأرض والمنتفع منها والمستثمر لها فلا يقولون : (زارع) أو (زراع) أو كما نقول في استعمالنا الشائع اليوم (مزارع) . وهكذا جاءت (الفلاحة) في كثير من مصادرهم التاريخية القديمة ، وقد استعمل ابن خلدون في المقدمة (الفلاحة) ولم يستعمل (الزراعة) مثلاً^(١) .

(٤) (مصلحة الاستخلاص) نجد لفظة (الاستخلاص) مستعملة كثيراً لفرض فنى فالمراد بها (الاستحصال) للرسوم والضرائب مثلاً كأن تقرأ (استخلاص الأدوات القارة) .

وقد تقرأ (قباضات الأدوات القارة) و (القباضة) تعنى المكان الذى تسلم فيه (الأدوات) والأدوات هي (الضرائب) التى يجب أداؤها ، أما .

(١) ترجمة الفرنسية بكلمة قومية ، صحيحة وهي المستعملة في مصر والشام (لجنة المجلة) .

(٢) لم يستعمل القدماء في الشرق والغرب إلا كلمة «الفلاحة» بمعنى «Agriculture» فقالوا كتاب الفلاحة الرومية ، وكتاب الفلاحة النبطية ، وكتاب الفلاحة الأندلسية وهكذا .

(القارة) فقد مرت بنا وأسلمنا الكلام عليها . وقد تكون القباضة الإدارة التي يتسلم منها الموظفون مرتباتهم الشهرية .

(٥) (المكتب الجمهورى لجراية التقاعد) والمراد (بالمكتب الجمهورى) المكتب الذى ترجع إليه شئون الجهات والأقاليم غير العاصمة ، وقد يطلق على هذه (الجهات) (الآفاق) كأن يقال : (فلان من محامى الآفاق) أى مختلف الجهات ما خلا العاصمة .

و (الجمهورى) نسبة فى (جهة) . وهذه النسبة غير معروفة فى الفصحى المشهور ، فكأنهم ردوا إلى الكلمة ما حذف منها ، والفصحى فيها عدم رد المحذوف إذا كان المحذوف لاء لا ما ، فالنسبة إلى (عدة) (عدى) ، ومثل هذا التجاوز ما نرى من النسبة إلى (وحدة) فى أيامنا هذه فيقولون : (فلان وحدوى أى من أنصار (الوحدة)) ، للوحدة بين الدول العربية ، وزيادة الواو قبل ياء النسب لم تجر على سنن صحيح ، والفصحى هو (وحدى) أما (الجراية) فهى من المصطلح الذى لم يشع فى عصرنا هذا فهو المعين الرسوم من نقد أو عين .

(٦) (القيم العام) وهو ما يقابله فى الفرنسية Surveillant général وهو مسئول فى المدارس الثانوية عن النظام وعن أمور أخرى وهو يساعد ناظر المدرسة فى ذلك .

(٧) (المتفقد) هو ما يقابل عندنا (المفقش) وعندهم متفقد للتعليم الثانوى ومثله للتعليم الابتدائى وغير ذلك مما يمس دائرة التفقيس فى مجالات عدة .

(٨) (الحجرة التجارية للحاضرة) ، وقد عدلوا عن (الغرفة) التى يستعملها أهل المشرق فى هذا الأمر ، وما أظنهم أرادوا التمييز بين الحجرة والغرفة من حيث الاصطلاح اللغوى . و (الحاضرة) عندهم هى مدينة تونس دون سائر

المدن الأخرى فإذا أطلقت فهم المراد من لفظة (الحاضرة) ولم يختلط الأمر بالحواضر الأخرى .

(٩) (الرائد الرسمي) وهو الجريدة الرسمية سميت بهذا الاسم تمييزاً من كونها تختلف عن الجرائد الأخرى .

(١٠) (الصبايحي) وهو من أعوان (الوالي) يقوم بشئون الوالي نحو سجن الموقفين أو غير ذلك .

(١١) (المطلب) ويقابل لفظ (العريضة) عند أهل الشرق ، وربما كان من أثر الترجمة عن الفرنسية فهو فيها (Demande) . وهم يقولون مثلاً :
(على المترشحين للمدارس الثانوية أن يمتروا المطلب الضرورية) ولفظ (التعمير) يقابل (التحرير) عندنا ، وهذا شيء لا نعرفه عن معنى التعمير .

الألقاب العسكرية :

ما زالت هذه الألقاب تحفل بالدخيل الأجنبي من تركي قديم إلى فرنسي جاء به الحكم الاستعماري . ومن ذلك مثلاً : (الشاوش) و (الباش شاوش) و (الأمير ألي) . (واليوزباشي) و (القائم مقام)^(١) و (الكوميسار) وغير ذلك .

مصطلحات الجامع الأعظم :

هو (جامع الزيتونة) الشهير في التاريخ التونسي وهو صفحة من الصفحات المشرقة ، والمعهد الأول لتونس ، ولهذا المعهد مصطلحاته وألقابه فعندهم :

- ١ — (الشيخ) ويطلق على خريج الجامع الأعظم وعلى من يباشر التدريس فيه
- ٢ — (الأهلية) وهي شهادة الدراسة الابتدائية في المعهد .
- (التحصيل) وهي شهادة الدراسة الثانوية وتقابل البكالوريا .
- ٤ — (العالمية) وهي شهادة الدراسة العالمية وتقابل الليسانس في الأنظمة الحديثة .

(١) «القائم مقام» من الألفاظ التي استعملها الترك بالإفادة من المادة العربية .

المصطلحات القضائية :

للتونسيين مصطلحات خاصة بهم في هذا الباب لا بد من تسجيلها ، ومن ذلك :

١ — (محكمة التعقيب) التي يطلق عليها في جهات عدة من الشرق (محكمة التمييز) أو (محكمة النقض والإبرام) كما في مصر .

٢ — (المحكمة الزجرية) وهي تقابل في الفرنسية Le Tribunal Correctionnel .

٣ — (سابقة الإضمار) من الألفاظ الاصطلاحية في القضاء التونسي ويقابله (سبق الإصرار) في اللغة القضائية في المشرق العربي .

٤ — (تهمة التمعش بالحنما) ويراد بالتمعش الاحتراف أى العيش بالحنما . وفي صوغ هذا المصدر توهم بأصالة الميم مع حذف الياء ، وقد جاءت الميم من المصدر (معيشة) ، ولا نعرف لهذا التوهم وجها ، ولم يستعمل إلا في هذه القرارات القضائية التونسية ، والعربية في غنى عن الوقوع في هذا الدرك .

٥ — (التدليس) وهذا من الألفاظ التي ترد في الأحكام التونسية كأن يقال : (حكم على فلان بجريمة (التدليس) في الشهادة ، أو (التدليس) في الحساب مثلا والمراد بالتدليس هنا (الزور) الذي يشيع في اللغة القضائية في المشرق ، واستعمال التدليس فصيح قديم في هذا الباب ، والذي نعرفه أن من كتب ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ رسالة في (طبقات المدلسين المسمى تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس) .

٦ — ويقولون مثلا : (تركبت الهيئة العليا للمحكمة من ستة أعضاء) واستخدام التركيب في هذه الجملة غريب لم نألفه نحن المشاركة ذلك أننا نقول (تألفت الهيئة العليا) .

٧ — ومن هذه المادة ما نقرؤه في الصحف من الإعلانات ومن ذلك (يعلن السيد . . أن بنة كراء مخزنين على ملك أحد المعمرين ستم يوم الجمعة ٢٠ فيفري) .

وفي هذه الفقرة نعرف أن (مناقصة) باصطلاحنا المشرق لإيجار مخزنين ستنتهى في التاريخ المذكور ، ثم أن المخزنين (على ملك أحد العمرين) أى أن المالك لها أحد العمرين ، والمعمرون هم الـ (Colons) في الفرنسية أى الفرنسيون الذين استوطنوا تونس فعمروا لأنفسهم المزارع الكبيرة والتاجر الضخمة .

الأسلوب المترجم في اللغة التونسية :

تأثرت العربية التونسية الحديثة بالأساليب الفرنسية في التعبير . ولم تكن العربية التونسية بدعاً في هذا التأثير ، ذلك أن العربية الحديثة بصورة عامة قد اكتسبت شيئاً نتيجة هذا الأسلوب المترجم .

وهذه الترجمة تبدو بوضوح في لغة الخبر السياسي الذى نسمعه من المذيع ، وفى كثير من الأساليب الصحفية .

فإذا أصغيت إلى المذيع التونسى وحن وقت إذاعة الأخبار سمعت المذيع يقول: والآن تستمعون إلى الجريدة الناطقة ؛ ويريد بالجريدة الناطقة (نشرة الأخبار) ، والجريدة الناطقة نقل للتعبير الفرنسى Le Journal parle .

ثم نسمع في هذه الأخبار أن (الجند الفرنسى قد اعتدى على التراب التونسى) ويراد (بالتراب) الأرض التونسية ، أى أن الاعتداء قد حدث في الأرض التونسية . واستعمال (التراب) مقابل للتعبير الفرنسى Ter-toire .

وفي هذه الأخبار أيضاً : (أن الرئيس قد قام بمسعى لفائدة السلم في الجزائر) واستعمالها (لفائدة السلم) يريدون به (من أجل السلم) . وعجىء الفائدة جاء في ترجمة للفرنسية au Profit .

ثم نسمع المذيع يقول : (اتصل الرئيس بـيرقيات من طرف تعااضديات للفلاحين والصنائعية ..) . واستعمال الفعل (اتصل) على هذا النحو شائع في اللغة التونسية ، وربما كان نتيجة لترجمة عن الفرنسية . ثم إن استعمالهم (من طرف)

ويريدون به (من لدن) أو (من قبل) كان أيضاً نقلاً للتعبير الفرنسي
«De la patt»

و (التعاضدية) استعمال تونسي مقابل لـ «Coopérative» وهي التعاونية)
في اصطلاحنا . أما الصنائعية فهي جمع يريدون به الصناعات وهذا الجمع لم نسمعه
في غير تونس من أقطار العربية .

ثم تسمع أيضاً أن (الوزير قد قابل طائفة من الإطارات الحزبية) ، فستغرب
كلمة (الإطارات) وراها جديدة على سمك ، ولم تدر أنها ترجمة للتعبير الفرنسي
«Cadres» ، ولفظة «Cadre» تعني الإطار في معناه الحسي وهو الأداة
المروفة ، ولكن الفرنسيين يتوسعون في دلالة فينقلونه مجازاً إلى معنى آخر ،
ويريدون به الأفراد المتعلمين الفنيين الذين يؤلفون العناصر الضرورية في التنظيمات
الاجتماعية بصورة عامة . وهكذا فإن التونسي ينقل اللفظة الفرنسية فيجد اللفظة
المقابلة لها في العربية في معناها الحسي ، ولا يكتفى بذلك فيتوسع في هذه العربية
على طريقة المجاز كما توسع الفرنسيون في لفظهم . وهذا شيء لا تسيغه العربية
كثيراً فلعل أمة مجازاتها وطرقها الخاصة في التعبير ^(١) .

ومن هذا الأسلوب المترجم جاء في العربية قولهم (كونغولي) و (طوغولي)
في النسبة إلى (الكونغو) وإلى (الطوغو) من الأقطار الإفريقية . واللام في
هاتين النسبتين ليست جارية على قواعد النسب العربية فهي زائدة ، وهي غريبة ،
وهي من الفرنسية ومثل هذه النسبة استعملهم (ألكترونيكية) في قولهم :

(١) تستعمل كلمة Cadre الفرنسية بمعنى «إطار» في بعض الآلات والأدوات،
وتستعمل بمعنى «الملاك» في الحكومة والجيش. فيقال مثلاً ملاك الضباط، وملاك
المدرسين، وملاك المحترفين، والملاك الدائم، الخ. أما في بعض الآلات
والأدوات فيقال مثلاً. إطار التوجيه وإطار المروحة، والإطار الحامل الخ. وفي
المعجم العسكري ٢٧ مصطلحاً لأشكال الكادر. وفي مصر يعربون الفرنسية.

(آلات إلكترونية) فالكاف الثانية فى الكلمة من الفرنسية (Electronic) والصحيح أن تكون الكلمة فى العربية من دون الكاف الأخيرة التى جىء بها فى الفرنسية للوصف هو مثل النسب فى إفادته للوصفية فىقال (آلات إلكترونية) .

ومن هذا الأسلوب المترجم استعمالهم للظروف (أين) فى غير الاستفهام فىقولون مثلاً : (سيقام الاحتفال فى بطحاء الحكومة أين يخطب الرئيس) ، والصحيح أن يستعمل الظرف (حيث) ، ولكنهم تأثروا بالظرف المستعمل فى الفرنسية فى مثل هذه الحال وهو (ou)

ما يتعلق بالزراعة والنباتات من الألفاظ :

نلمح فى هذا المجال مادة لغوية خاصة جديرة بالتسجيل والنظر ، ذلك أن تونس بلد زراعى يعتمد على الزراعة الاعتماد الكلى .

ومن هذه المادة اللغوية ما يتعلق بالأرض المزروعة ، فالأرض الكبيرة المعدة للزراع يسمونها (هنشير) . ولا نعرف فى مواد العربية شيئاً من هذا ، وربما كانت هذه الكلمة من المخلفات اللغوية القديمة ، فقد حفل التاريخ التونسى بلغات عدة كالرومانية والفينيقية واللهجات البربرية ، وقد حدثنى العالم الجليل السيد حسن حسنى عبد الوهاب أن الكلمة كانت تطلق على المواقع التى هى مظان للماديات والنفائس العتيقة ثم استعملت الاستعمال الأخير الشائع .

ويسمون الأرض المعدة للزراع والتى تسقى من بئر تنصب عليها واسطة لإيصال الماء (السانية) وهذه الكلمة ذات أصل فصيح ، فالسانية فى معجمات اللغة الغرب وأداته ، والسانية الناضجة وهى الناقة التى يستقى عليها . وفى المثل : سير السوانى سفر لا ينقطع . وعن الليث : السانية وجمعها السوانى ما يستقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره . وقد سنت السانية تسنو سنوياً إذا استقت . وهانحن نرى أن السانية الغرب وأداته ثم

توسع فيها في فصيح العربية فصارت تطلق على الحيوان الذي يستقى به ،
ثم توسع التونسيون فيها فصاروا يطلقونها على الأرض التي بهذه الطريقة .

ومن هذه لفظة (الكرد) في العراق وهي مادة غير عربية ومعناها الأداة
التي تنصب على بئر أو حفرة يجتمع فيها الماء الذي مصدره النهر ثم يستعان
بالحيوان على إدارة عجلة هذه الأداة فيؤتى بالماء في أوعية مربوطة بالعجلة . أقول توسع في
مدلول هذه الكلمة فأطلق (الكرد) و (الكروود) بصيغة الجمع على الأرض التي
تسقى بهذه الطريقة ثم صار المشتغلون بهذه الأرض (كروادة) على صيغة المبالغة^(١) .

ويزرع التونسيون (الزيتون) وقد اشتهرت تونس بزيتونها منذ أقدم العصور .
وفي تونس من أصول الزيتون ما يرجع إلى عدة قرون ، وهم يسمون ما يظهر
منه من دون أن يتمهده الإنسان بالزرع (الجالي) . والمادة عربية فصيحة
ولكننا لا نعرف هذا الاستعمال في مدلولات الكلمة الفصيحة .

ويسمون حاصل الزيتون (الصابة) وربما كانت مما يصيبه الفلاح من
هذا الثمر المبارك .

واشتهرت تونس في كونها تنتج الفواكه الحمضية كالليمون والبرتقال وغيره .
وهذه الثمار تدعى (الحوامض) في الديار الشامية والعراقية ، ويدعوها المصريون
(الموالح) ، أما التونسيون فيسمونها (القوارص) وهي المصطلح العلمي والتجاري
عندهم على أن لفظ (القارص) يطلقونه على الليمون الحامض Citron
دون غيره ، أما الليمون الحلو فيسمونه (الليم) .

(١) الكرد في كتب اللغة الدبيرة . أي المزرعة الصغيرة أو جزء من المزرعة ، والجمع
كروود . وللدبيرة معنى آخر وهو الساقية بين المزارع . أما الساقية فهي تطلق
حديثاً على الناعورة التي تديرها الدواب أو المحركات . وهي غير الناعورة التي
تدور بقوة جريان الماء .

ومن فاكهتهم (العَوينة) لما يدعى بالفرنسية « Prunnes » .

على أن التونسيين قلما يستعملون لفظ (الفاكهة) أو الفواكه (وإنما يمدلون عنها إلى (الغلة) أو (الغلال) بصيغة الجمع ، فإذا قيل عصير الغلال فالمراد به عصير الفاكهة . وانصراف (الغلّة) إلى هذا المعنى استعمال تونسيّ وتخصيص للكلمة بشيء دون غيره . وحقيقة (الغلة) في كتب اللغة : الدخل الذى يحصل من الزرع والثر واللبن والإجارة والنتاج ونحو ذلك ، وجمعها (غَلَات) ، وفلان يُغِلّ على عياله أى يأتهم بالغلة) ^(١) .

ومن الملاحظ أن « الفاكهة » عندهم قد تنصرف إلى ما يجفف من أصناف الفاكهة . ومن أسماء « التين » عندهم « الكرموس » و « الشريحة » ولا نعرف لذلك وجهاً ^(٢) .

ومن أصناف الفاكهة ما يدعونه « بوصاع » لما يسميه الشاميون « إيكي دنيا » و « ويني دنيا » ^(٣) .

أما الخضروات « Legumes » ففيها شيء آخر خاص بهم ومن ذلك : القنّارية لما يدعى بالفرنسية « Artichant » ولم يثبت P.J. Belot هذه الكلمة في معجمه الصغير الفرنسى العربى واكتفى بذكر « شوكى أو أرضى » ولا أدري من أين جاء بهذين الاسمين ولعله أخذهما مما هو مستعمل فى لبنان ، وقد فاته أن الخفاجى فى « شفاء الليل » قد ذكره وعده من الدخيل ولم ينص على أصله الذى جاء منه . قال الشهاب الخفاجى : القنارية هو بالمغرب نوع

(١) اللسان مادة « غلّل »

(٢) شريحة التين فى الشام من مصنوعاته اللذيذة (لجنة المجلة)

(٣) ويسمى بشملة فى مصر . وهو زعرور اليابان Neflier du Japan وليس له اسم غربي قديم .

من الخس ومنه نوع يسمى (الخرشف) وخس الكلب والكنكر قال ابن المعز
وقد بدت فيها ثمار الكنكر كأنها جاجم من عنبر^(١)

على أن التونسيين لا يلفظونها بالقاف بل بالكاف الشديدة على نحو ما ينطق
المصريون بالجيم^(٢) .

ومن خضرواتهم (السفينارية) ويريدون بها الجزر .

ومنها (الجلبانة) بكسر الجيم ، وهي ما ندعوه (بالزاليا) أو ما يدعى بالفرنسية
« Petit-Pois »^(٣) .

والكلمة ذات أصل فصيح وإن تغيرت صورتها . فالجلبان بضم الجيم واللام
مع تشديد اللام نوع من القطاني . قال أبو حنيفة لم أسمع من الأعراب إلا
بالتشديد ، وما أكثر من يخففه : قال . ولعل التخفيف لغة^(٤) .

ويسمون القثاء أو الخيار « فقوساً » و « الفقوس » من أسمائهم المحلية الشائمة
في كثير من أقاليم الشمال الإفريقي^(٥) .

-
- (١) الخفاجي ، شفاء الغليل (نشره محمد المنعم خفاجي) ص ٢٢١ .
(٢) الكنكر من الفارسية وردت في مفردات ابن البيطار وغيرها : وقنارية من قنارة
اليونانية . ومدلولها الفرنسي Artichaut من خرشف العربية وهي اسم هذه
البقلة . وفي معجم الألفاظ الزراعية تفصيل ذلك . (لجنة المجلة) .
(٣) العامة « البزليا » هو البسلة والبسلى Petit - pois . أما الجلبان فهو بالفرنسية
Gesse . وفي معجم الألفاظ الزراعية أوجه التلفظ بكلمة جلبان . (لجنة المجلة) .

- (٤) اللسان مادة « جلب » .
(٥) الفقوس في القاموس المحيط البطيخ الشامي أي ما يسمى اليوم البطيخ
الأخضر في الشام Pasreque . أما في الاستعمال الحديث فالفقوس ضرب
من القثاء . وفي مادة Concombre chate ou d'Eayate من معجم الألفاظ
الزراعية تفصيلات بصدد هذه الكلمة وأشباهها .

أما (الباميه) المعروفة في المشرق فلها اسم غريب عند التونسيين لا يعرفون غيره ، هو (القنّاوية) بتشديد النون .

ويطلق التونسيون على بعض (الحيوان) أسماء لم أهتمد إلى أصولها اللغوية ، فالخروف الصغير يدعونه (علوش) بتشديد اللام وهم ينطقون بالواو كما ينطق الحرف اللاتيني (o) .

ومن ذلك (المتروس) للعنز ، و (السرودك) للديك ، و (الحلّوف) للخنزير .

الفصل الرابع عشر

الجديد في اللغة والمعجم العربي الحديث

شارك العرب الأقدمون في العلم اللغوى كما شارك غيرهم من الأمم القديمة كالليونان والهنود والصينيين . ولعله من غير المجدى في عصرنا الحاضر أن نبحث في أصل اللغة ، والذي يعيننا من اللغة أنها مظهر ونشاط للطبيعة البشرية الإنسانية وينبئ على ذلك أنها مظهر من مظاهر علم الاجتماع الذى يعنى بالنشاط الإنسانى فى مختلف أحواله .

واتصف « علم اللغة » فى العصر الحاضر بالصفة العلمية الخالصة أنه لم يعد ذلك مادة يستعان على إدراكها بالتأمل . بل هو مادة موضوعية يتبع فى معالجتها المنهج الوصفى ومن هنا يدخل « التطور اللغوى » فى هذا المنهج .

إن علم اللغة بهذه الحدود الجديدة من العلوم الغربية الحديثة التى بحثها الغربيون وتشعبوا فيها ، وقد كان ذلك إثر الاهتمام البالغ بمادعاه كريم Grimm بالقوانين الصوتية فقد كان سائداً أنها قوانين عامة شاملة تنطبق على جميع اللغات ، وهى كالقوانين الطبيعية الأخرى .

وقد عرضوا لأسباب هذا التطور فى الأصوات فردوا ذلك إلى الاختلاف الذى يحصل فى أعضاء النطق ، وقد عرضوا فى ذلك لجملة من الملاحظات والتجارب لإثبات ما يمتور الأصوات من تغير إذا ما حدث أى تشويه فى أعضاء النطق .

ومنهم من رد هذا التطور اللغوى إلى ما يطرأ على المجتمعات من اختلاف الظروف الجغرافية والمناخية . وهم يبنون هذا على جملة وقائع عرضت لشعوب مختلفة فى تطورها التاريخى . على أنهم يذهبون مذاهب عدة فى تفسير هذا التطور الصوتى

خير أن هذه التفاسير المختلفة لاتسلم من الطعن فيها فهي وإن كانت وجيبة فإنها تفتقر دائماً إلى الأصالة والشمول . بحيث يمكن الأخذ بها على أنها نظريات ثابتة .

وقد حلا لبعضهم أن يفسر التطور الصوتي بقوانين « مندل » في الوراثة ، والرد على هذا من الأمور الهينة ، وقد استعاروا طريقة تشارلز دارون العالم الإنكليزي في التطور وهو ما يدعى بالمذهب الطبيعي ، قال دارون في كتابه « أصل الأنواع The Origin of Species » بمسألة تنازع البقاء وظهور صفات خاصة في بعض الأفراد وانتقال هذه الصفات الخاصة بالوراثة إلى النسل وشيوع هذه الصفات وكثرتها بحيث يمكن اعتبار من يرثها من النسل نوعاً مختلفاً عما لم يرثها . وقد طبق العالم الجيولوجي « ليل » النظريات على اللغة فقرر : « أن الأنواع في الطبيعة ، واللغات في التاريخ تتغير تبعا لنواميس متشابهة .. والاملان الجوهريان في اللغات هما كما في الأنواع الطبيعية التغير والانتخاب . وكما يحصل في الأنواع يحصل كذلك في اللغات أيضاً نتائج عظيمة لتجمع أسباب عديدة صغيرة لاقيمة لها في حد ذاتها كإدخال عبارات أجنبية وكثرة الخطباء والكتابة والاختراعات والاكتشافات وتعلم علوم جديدة وتنازع الألفاظ إلى غير ذلك مما يغير اللغة » .

ثم جاء بعد « ليل » العالم اللغوي شليخر فنشر كتابه بعنوان « دارون وعلم اللغات » وقد قرر فيه « أن مبادئ دارون تنطبق جميعها على كيفية نمو اللغات فإن جميع لغات أوربا يكاد يكون لها أصل واحد هو اللغة الهندية الجرمانية ، وتفرعت عدة فروع أولاً ثم تفرع من هذه الفروع أخرى ، على أن تفسير التطور اللغوي بهذه المحاولات لم يكن إلا مجرد آراء أخذ بها اللغويون في مطلع هذا القرن وهي من غير شك محاولات لاتسلم من النقد الذي وجه إليها .

غير أنه من الثابت أن التطور اللغوي يحدث في مادة اللغة التي تؤلف بنيتها وكيانها وأعني بذلك الألفاظ التي تبني منها اللغة . هذه الألفاظ يخضعها الاستعمال فتجد فيها خصوصيات معنوية ذات ظلال دلالية *Sémantique* جديدة يستدعيها الزمان

والمكان وليست العربية بدعاً بين اللغات ذلك أن اللغات كافة تخضع لسنة التطور وأن الكلمة في كثير من اللغات مادة حية يعمل فيها الزمان ويؤثر فيها وتجد فيها الحياة فتتطور وتتبدل وربما اكتسبت خصوصيات معنوية أبعدها الاستعمال عن أصلها بعداً قليلاً أو كثيراً . وليست العربية بنجوة من الذى يطرأ على غيرها من اللغات .

وعلى هذا يتحتم على الباحثين والدارسين أن يأخذوا أنفسهم بالتمهيج الوصفي . فإن كثيراً من الألفاظ انتقلت انتقالات عدة بحيث أن « المصطلح الفني » يؤلف مثلاً مرحلة معنوية من الدلالات التى انتهت إليها لفظة من الألفاظ أو تركيب من التراكيب .

فلا بد أن يعنى المعجم الحديث بهذه الناحية ويثبت هذه الألفاظ التى جدت فى العربية واقتضتها ظروف المجتمعات الجديدة .

ومن العجب أن المعجم العربى الحديث لم يول هذه الناحية ما تستحقه من عناية كافية . وربما تنكر أصحاب المعجمات الحديثة إلى هذا النوع من المولد الجديد . وليس عجباً أن يكون نفر من هؤلاء يعتبر الجديد المولد غير فصيح وإن اقتضاه عصرنا وجرى عليه الاستعمال ، وشاع وقيد فى النصوص والوثائق . وهذا النظر وإن تمسك به جماعة من اللغويين فى عصرنا فإن المعريين كافة أخذوا أنفسهم باستعمال الجديد ، وقد بحث الأوربيون فى هذه الناحية وألفوا فيها مصنفات عدة ما زالت تدرس حتى يومنا هذا .

وإذا عدنا إلى عريقتنا الحديثة وجدناها ترخر بمئات الألفاظ الجديدة المولدة والعربية وقد أخذت طريقها إلى الاستعمال وصارت مخصصة مقيدة بنوع خاص من المعنى . غير أن اللغويين مع ذلك مازالوا مترددين فى عدّ هذا الجديد من الفصيح .

أقول من الواجب علينا أن نقسح لهذا الجديد الذى قذف به المستعملون

مكاناً في كتبنا اللغوية لأنه صار من مادة هذه اللغة وسأعرض لجملة من هذه الألفاظ ولم أرد من ذكرها إلا أن تكون أمثلة على النهج الذي أشرت إليه من ذي قبل . وهذه أشتات جمعها من هنا وهناك ولم أتبع في جمعي هذا منهجاً خاصاً فمها ماشاع في لغة الصحافة اليومية : ومنها ماهو جار على السنة المذيعين ، ومنها ماهو مستعمل في لغة الكتابة غير الأدبية كالألفاظ الاقتصادية والسياسية نحو ذلك :

لعل أحداً يقول : إن هذه الألفاظ ينبغي أن تصنف في مجموعات حسب الاختصاص الذي تنسب إليه كأن يكون لألفاظ السياسة مجموعة خاصة ينتظمها سفر خاص ، وهكذا في سائر الاختصاصات . وهذا صحيح غير أن العربية ما زالت مفتقرة إليه .

على أن هذا لا يعنى إغفال هذه الألفاظ الجديدة في المعجم اللغوى ، ذلك أنها معان جديدة ينبغي أن يشار إليها بإيجاز في معجم لغوى حدث .

ودونك شيئاً من هذه المولدات والمربات :

(١) الأمبريالية لفظة أعجمية الأصل عربت على هيئة المصدر الصناعى ، والمصدر الصناعى مادة مهمة في العربية أفيد منها كثيراً في التوصل إلى كثير من المصطلحات العلمية . والكلمة تعريب Imperialis وهى تعنى فيما تعنيه الاتجاه السياسى المتصف بالسيطرة والتوسع . وعلى هذا فالأمبريالية درجة عليا من درجات الاستعمار . والوصف منها « أمبريالى » هذا مقابل لـ (Impérial) . والأصل الأعجمى القديم الذى بنيت منه الكلمة الغربية هو الكلمة اللاتينية التى ترجع إلى العصور المتأخرة Imperial أو هو من « Imperium » ، وهذه الأخيرة تعنى empire وهى التى عربوها « الإمبراطورية » أو « الإنبراطورية » :

والأمبريالية كلمة يستعملها صنف كبير من الكتاب السياسيين والاقتصاديين وتظهر في كتاباتهم للتعبير عن مصطلح أعجمى لا بد من توفيره في العربية . وهى كسابقتها « الإمبراطورية » من الشيوع والاستعمال .

وبعد فليس من الحق ألا يذكر المعجم شيئاً يسيراً عن هذه المعربات :

ومن الناحية التاريخية إن الوصف بـ « الإمبريالى » Imperialiste كان قد عرف في سنة ١٥٤٦م بمعنى المتعصب والناحز للإمبراطورية الألمانية . وفي القرن التاسع عشر كان الوصف يعنى من يتعصب للأسرة النابوليونية . ثم صار يعنى من يتعصب ويميل للإمبراطورية البريطانية التوسعية .

٢ — الإنتاجية : مصطلح جديد قذف به كتاب الاقتصاد ويريدون به (قابلية الإنتاج) « Penductivite » وقد بنى هذا المصطلح على المصدر الصناعى . وعندى أن المصطلح من كلمة واحدة خير منه إن كان مركباً من كلمتين أو أكثر .

٣ — الانتهازية : كلمة تشيع في كتابات المعاصرين للتعبير عن نمط في الأخلاق غير مستحب ، فالانتهازى عندهم هو النهاز للفرص بغية الحصول على منفعة . وعلى هذا فالانتهازى من لا يؤمن والكلمة من غير شك ترجمة Oppertunism . وهى معروفة عند الكتاب السياسيين مستعملة في كتاباتهم . الانتهازى من الساسة من يحسن الاستفادة من الظروف خدمة لمصاحته .

فاذا كانت الكلمة بهذه الحدود الواضحة وبهذه الكثرة من الاستعمال فن الغريب أن لا تحصر في معجم لغوى حديث للعربية .

(٤) الانهزامية : كلمة أخرى تشيع في كتابات المعاصرين ممن يتناولون المسائل السياسية . وهى نموذج من الخلق خاص ، فالانهزامى هو الذى لا يتحمل مواجهة الأمور الصعبة والظروف الدقيقة وإنما يفضل الاعتماد عن هذه المواطن . والكلمة ترجمة للكلمة الأعجمية « Defaitisme » .

وأظن من المناسب أن يشار إلى مثل هذه المولدات الجديدة في معجم جديد للعربية .

البرجوازية . مصطلح جديد بنى على المصدر الصناعى للتعبير عن طبقة اجتماعية

خاصة ، وهى الطبقة الوسطى كما يذهب أصحاب علم الاجتماع . على أن الكلمة قد تكون وصفاً فيقال : المفاهيم البرجوازية أى مفاهيم هذه الطبقة وأعطى تفكيرها

والكلمة تعريب للكلمة الفرنسية Bompeolsie

والأصل فيها كلمة . Bourg وتعنى المدينة فكأن « البرجوازي » فى الأصل ساكن المدينة Bourgeois ثم تطورت فى الاستعمال عبر العصور فصار البرجوازي يعنى المتمتع بحقوق خاصة تعلوها عليه سكنى المدن ، ثم صارت تعنى الرجل المرفه المترف ، ثم هى عند المال تعنى رب العمل أو السيد المطاع . وربما أخذت الكلمة من هنا المعنى السلبي الذى اتصفت به فى بعض الأحيان ذلك أن البورجوازي عند هؤلاء المال فى بداية عصر التحول الصناعى ، إنسان غير محبوب ، وإذا كان غير محبوب فالكلمة تشير إلى النبز من هذه الناحية .

وهى فى كتابات علماء الاجتماع والسياسيين صارت تعنى طبقة من الناس لها أفكارها ولها أخلاقها ، ثم اندست معربة فى العربية بهذه الخصوصية المعنوية . وعلى هذا فن المفيد أن يشار إليها فى معجمنا الحديث .

(٦) التقدمية ، مصطلح جديد يفيد طريقة فى التفكير وأسلوباً فى العمل وفلسفة تبنى إلى التقدم والعزوف عن الجود وهى كلمة جديدة شاعت فى كتابات السياسيين وعلماء الاجتماع ، فى مطلع هذا القرن ولاسيما فى كتابات الاشتراكيين وأنصار مذاهب « اليسار » والتقدمى هو القائل بالتقدمية والسالك فى نهجها والآخذ بفلسفتها .

وهى من غير شك ترجمة لـ Progressisme والتقدمى هو Progressiste

ومن المفيد أن نشير أن الكلمة حين استعملت فى العربية أوشكت أن تكون مرادفة للاشتراكية حيناً أو للشيوعية حيناً آخر فى نظر طائفة من الناس . ثم توسع فى استخدامها حتى استقرت فى مكانها الصحيح .

ومن المفيد أن يشار إلى هذه في معجمنا اللغوى ولو كان ذلك بإيجاز لا يخل بالفائدة المطلوبة .

(٧) الثورة مصطلح جديد يفيد النزعة إلى الثورة والاندفاع إليها .
و « الثورى » هو المتصف بهذه النزعة وهذا الاندفاع .

(٨) الجمهورية . نظام معروف فى الحكم . ولا ترى حاجة للقول إن الكلمة لا بد أن يشار إليها فى معجم لغوى العربية لشيوعها واستعمالها .

(٩) الديمقراطية ولا أرى حاجة للاسهاب فى شرح هذا المصطلح الذى صار من الشيوع بحيث صار مفهوماً لدى المختص وغيره . وقد عرب الكتاب العرب هذه الكلمة وأجروها على المصدر الصناعى للتعبير عن الممانى التى تنطوى عليها كما أخذتها أمم كثيرة للتعبير عن الممانى نفسها فلا بد أن نشير إليها فى معجمنا إشارة كافية .

(١٠) الديما كوجية وهذه كلمة جديدة أخذت سبيلها فى كتابات المعاصرين من أصحاب علم الاجتماع والسياسة . وهى معربة على هذا النحو والأصل هو «Demagogie» وهذه تعنى فى السياسة الطريقة التى يتعمق بها الجمهور العامة .

والكلمة من مادة إنغريقية هى «Demagogia» . والتمذهب بهذا المذهب «Demagogue» أى الديما كوجى ، ومن المفيد أن أشير إلى أن هذه الكلمة قد استعملها الكتبة اللبنازيون المعاصرون على هذا النحو من التعريب .

غير أنه لا بد من إشارة إلى أن آخرين قد استعملوا هذه الكلمة بعد ترجمتها « بالفوغائية » نسبة إلى (الفوغاء) . للتعبير عن المعنى نفسه .

ولا بد أن يشار فى معجمنا العربى الحديث إلى هذه الكلمات عملاً بالنهج

العلمى الذى يؤرخ الألفاظ فى علم المعجمية الحديثة (Loxicographie) .

(١١) الرأسمالية مصطلح جديد من مصطلحات علم الاقتصاد الحديث .
والكلمة مركبة منحوتة ، فإن (رأسمال) بالهمز أو (رأسمال) بالتسهيل كلمة
جديدة وكأن تركيبها قد أغفل فصارت تجمع جمع تكسير على (رساميل) . على
أن تركيبها مازال معروفاً فى جمعها على « رءوس أموال » . والعامية قد صنعت
فعللاً من هذه الكلمة هو « رسمل » واستعملها يفيد أن البضاعة المبيعة أحرزت
« رأسمالها » فلم تخسر ولم تربح .

(١٢) الرائد وهى كلمة معجمية قديمة . والرائد الذى يرسل فى التماس النجعة
وطلب الكلاء ، وفى حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) فى صفة
أصحابه : يدخلون رواداً ويخرجون أدلة أى يدخلون طالبين للعلم ملتجئين للحلم
ويخرجون هداة للناس . وأصل الرائد الذى يقدم القوم يبصر الكلاء
ومساقط الغيث .

هذا هو استعمالها المأثور عن العرب الأقدمين أما الاستعمال الحديث لهذه
الكلمة ففيه شىء من الجدة ينبغى أن يشار إليه لا يكتفى بتخطئه فيقال
« الزعيم الرائد » فى الكلام على الرئيس جمال عبد الناصر مثلاً ، أو يقال : الصحيفة
الرائدة . وهذا نوع من الاستعمال جديد يوصل إليه بشىء من اللطف فى
التشبيه والمجاز .

(١٣) الرجعية مصدر جديد مبنى على طريقة المصدر الصناعى للتعبير عن
معنى جديد هو الميل للأفكار القديمة وعدم الإقبال على الجديد من الفكر والعمل .
ووصف نقر من الناس بالرجعية نبز لهم ولا يصنفهم بذلك إلا أهل أنصار الجديد
وأصحاب التقدمية .

والكلمة ترجمة للكلمة الأعجمية « Reaction » . وصاحب هذه الصفات

(رجمى) « Reactionnaire » وقد تلصق هذه النعوت بشيء كثير من التساهل والتجوز .

وعلى هذا فهذه معان جديدة استقيدت من هذه الكلمة المترجمة لا ينبغي أن تغفل في عربيتنا الحديثة . ذلك أنها تؤولف هي وغيرها مادة مهمة في لغة الصحافة والوثائق وغير ذلك .

(١٤) العملاء وهي من كلمات النبز والشم الجديدة . والكلمة جمع مفرد لها « عميل » والمراد منه أنه العامل لجهة أجنبية ضد مصلحة وطنه ولا يوجد في العربية صفة على « فاعل » من هذه المادة فالكلمة في صورتها الاشتقاقية جديدة ومعناها جديد أيضاً . وهي تقابل (Agent) الأعجمية ، والكلمة من الشيوع بحيث يجب أن ينص عليها إذا أريد تسجيل العربية تسجيلاً تاريخياً .

(١٥) الفوضوية وهو اصطلاح جديد يريدون به سيطرة الدماء والغوغاء . وهو مذهب له أنصار في المجتمعات الغربية الحديثة وهؤلاء الأنصار تفرّج بحلوه أن يفكر تفكيراً غريباً مثل القول بالفوضوية والكلمة ترجمة لـ Anarchisme وقد بنيت الكلمة الجديدة على كلمة (فوضى) المعروفة وينبغي أن نعرض لهذه الكلمة التي تقلبت في الاستعمال ، فالمعروف أن (فوضى) جمع على (فَعْل) وهي من غير شك (فُضِيَ) جمع فضيض ثم عرض لها الإبدال ، وكثيراً ما يعرض هذا النوع من الإبدال ، ثم إن المعنى يدل على هذا الأصل ، فكلمة (فوضى) تعني المفرقين وإلى هذا ذهب الشاعر القديم :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جها لهم سادوا

أقول : إن هذه الكلمة أصابها التحول والتبدل بسبب الاستعمال الكثير ، فقد انتقلت من الجمع إلى المصدرية إذ المعروف أن فوضى في لغتنا الحديثة تعني (عدم النظام) وما أبعد هذا عن المعنى القديم . وفي هذا عرض للتطور الذي يمتور اللغة .

(١٦) الكولونيالية وهذا مصطلح جديد معرب على هذه الطريقة قذف به العربون في كتاباتهم السياسية ولاسيا الكتاب اللبنانيون في عصرنا . والمراد به « الاستعمار » وكأن هؤلاء عدلوا عن الاستعمار لمعومه وشموله وعدم تحديده المراحل السياسية والحدود التي يجرى عليها استعمار الشعوب ، وعند هؤلاء أن « الكولونيالية » ألصق بنوع خاص من السيطرة لا تؤديه كلمة « استعمار » وهو من « Colonisme » ولاندرى أيكذب لهذه الكلمة المعربة الشيوع والبقاء أم يطويها الزمن كغيرها مما يقذف به الكتاب لحاجة طارئة تقتضيهم ذلك) .

(٧) مؤتمر : هذه كلمة اصطلاحية جديدة يراد منها أن تكون مقابلا لـ Congres وهو الندوة التي يجتمع فيها تقرر من الناس يتشاورون في أمر ما والائتصار والاستئثار المشاورة وكذلك التآمر وكذلك المؤامرة . وعلى هذا فإن التآمر والمؤامرة بمعناها الحديث وهما المكيدة والغدر والخديعة لم يكن معروفاً ، ولم يرد شيء من هذا المعنى إلا في « الائتصار » في التنزيل : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » قال أبو عبيدة : أي يتشاورون عليك ليقتلوك . وعلى هذا فإن هذه الكلمات : « مؤامرة » و « تآمر » من الكلمات المعروفة التي شاعت وكثر استعمالها في المعنى المشار إليه في أعلاه وهي تعد من باب المولد الجديد الذي ينبغي أن ينص عليه .

(١٨) المحسوبية : كلمة معروفة يكثر استعمالها في لغة الدواوين ويراد منها أن يكون لبعضهم من أصحاب الأمر جماعة يحسبون له فهو يقدمهم ويسألهم ويؤثرهم على غيرهم وليس في ذلك مراعاة للحق والمصلحة العامة . وهذه الخصوصيات المنوية شيء جديد اكتسبته الكلمة في الاستعمال الذي صير منها مصطلحاً خاصاً .

(١٩) المسؤولية : مصدر جديد يراد به الاضطلاع بالأمر وتحمل المواقب والتهيؤ للعمل الجاد بحيث أن صاحب المسؤولية مسئول عما يقوم به . وهذا مما ينبغي أن ينبه عليه في كتب اللغة التي تعنى بالجديد من المعاني .

(٢٠) النضالية وهو كلمة جديدة مبنية على طريقة المصدر الصناعي للدلالة

على الاستعداد الطبيعى للعمل الشاق فى سبيل تحقيق هدف سام كالأعمال الوطنية عامة والنضال ضد المستعمر مثلا . وعجىء الكلمة كما قلت على طريقة المصدر إشعار أن هذه الكلمة أصبحت مصطلحاً يفيد « القابلية على النضال » .

(٢١) الوصولية من المصطلحات الجديدة التى يراد منها صفة من هو « وصولى » أى من لا يقف دون حاجته ومصلحته أى شىء فهو يرتكب ما يرتكب فى سبيل هذه الحاجة .

هذا خلق ردىء وعليه فالوصولية نزوشتم وهى تمحضر فى كتابات السياسيين فى عصرنا ولا يد من الإشارة إلى هذا النوع من التوليد الجديد .

وهى من غير شك تقابل Arrivisme

(٢٢) السطحية : : والسطحى من الرجال الذى لا يتعمق فى معالجة الأمور وهذه كلمة تترجم بها الكلمة الفرنسية Superpiciel . ولما شاع هذا الوصف فى هذا المعنى المجازى صاغوا منه المصدر الصناعى « السطحية » للدلالة على عدم التفكير العميق فى النظر إلى الأمور .

(٢٣) المواطنة : والصفة منها « مواطن » اسم فاعل من « واطن » أى ساكن وعائش وهو صيغة جديدة مولدة ، ذلك أن مادة « وطن » لم تنصرف إلى هذه الصيغة فى الأساليب القديمة .

وكأنهم أرادوا بتوليد هذه الصيغة من هذا الفعل الجديد أن يوجدوا ما يقابل الكلمة الفرنسية Compatriote .

(٢٤) الرتبة والوصف منه رتيب يقال : حياة رتيبة ، والمراد حياة سائرة على وتيرة واحدة لا تبدل فيها ولا تغيىر . وهم يريدون بـ « الرتبة » الداعية إلى الملل والسأم وهذا استعمال جديد لم يرد قبل هذا العصر . وقد ورد فى استعمالهم القديم « عيش راتب » أى ثابت دائم .

(٢٥) الصفاقة : والوصف منه صفيق وهو من « صفق » بمعنى ضرب .
وكأن الصفيق هو المضروب ثم تطور به الاستعمال فصار يبنى من لا يستحي .
وهذا شيء جديد في لغة هذا العصر .

(٢٦) التأميم : مصطلح جديد من مصطلحات أهل الاقتصاد في عصرنا وهم يريدون به ترجمة الكلمات الأعجمية Nationalisation . والمصطلحات الاقتصادية الحديثة ولدت جميعها لتؤدي معاني الألفاظ الأعجمية مثل الاشتراكية والشيوعية والاستعمار وغيرها وقد اقتضاهم الأمر إلى أن يعربوا ولا يسلكوا طريق ، الترجمة ، فتدقلوا : « الأمبريالية » كما مر بنا حين وجدوا أن « الاستعمار » لا يقابلها تمام المقابلة .

(٢٧) التخطيط : من مصطلحات الاقتصاديين الحديثة وهو يقابل Planification ودلالته معروفة . ومن المفيد أن نشير أنه ما زالت مسألة المصطلحات العلمية الحديثة متأثرة بالإقليمية فقد نستعمل التخطيط في إقليم من أقاليم العربية في حين أن الإقليم الآخر يستعمل « التصميم » لأداء المعنى نفسه ومثل هذا كثير فقد تطلع علينا صحيفه بعنوان كبير عن نشوب (مظاهرة) كبيرة في بلدا ، في حين أن صحيفة أخرى تعدل عن المظاهرة إلى التظاهر .

وفي الوقت الذي استطاعت فيه العربية أن تؤدي الكثير مما جاء به الحديث ، فما زلنا نستعمل في صحفنا « المانشات » Manchette ، والمراكات المسجلة Marque ؛ « والكليشات » Cliché ; و « المناورات » Manceuvre مع العلم أن هذه ليست مما لا يمكن إيجاد ما يقابلها من أبنية العربية .

(٢٨) المعطيات : مادة جديدة شاعت في كتابات الكتاب في عصرنا هذا في السنوات الأخيرة ، وهي تقابل Donnée الفرنسية أو قل ترجمة لها . والكلمة الفرنسية وإن كانت تتصل بمادة « العطاء » من حيث الأصل ولكنها بعيدة عن مدلول العطاء . إن الكلمة تمنى الماومات أو الأفكار الثابتة التي تنجم عن قضية

من القضايا . والقارىء العربى الذى لا معرفة له بالفرنسية أو أية لغة غربية أخرى لا يدرك معنى « المعطيات » بوضوح ، وذلك لأن الفعل « أعطى » فى العربية لا يمرض لها المجاز والتوسع على هذا النحو . ونجم عن ذلك أننا قدفنا باستعمال جديد لم نجر عليه العربية . ثم إن « المعطيات » ليست من المواد الصعبة والتي تدخل فى حيز المصطلحات العلمية التى لا بد منها . ومن الممكن نقل الكلمة الفرنسية Donnée إلى غير « المعطيات » مما يدركه القارىء العام .

ومن المفيد أن نذكر عبارة معجم لاروس الصغير الفرنسى فى شرح هذه الكلمة :

Point incontestable ou admis comme tel.
Idée fondamentale d'un ouvrage d'esprit.

(٢٩) التقنى والتقنية : وهما تمريب للكلمة الفرنسية Technique اسماً ونعتاً فكان (التقنى) تقابل الاسم والتقنية صفة لموصوف مؤنث متخصص بها وقد ترجموا Terme technique بالمصطلح العلمى أو الفنى . والذى ألاحظه على العرب الجديد (التقنى) عدم الوضوح فى كون هذه المادة تشبه مادة (قنى) العربية من حيث بناء أصواتها ، أو أنها تشبه مادة (تقن) وعلى هذا فقد كان أكثر ملاءمة أن يعدل عن القاف فى (التقنى) و (التقنية) إلى الكاف فى الأصل الأعجمى .

وبعد فهذا عرض لجملة من الألفاظ والمصطلحات الجديدة التى اقتضاها التطور اللغوى الذى تمليه حاجة من الحاجات ولذا فإن من الجدير باللغوى أن يشير إليها وينبه على استعمالها .

المحتويات

صفحة

١١	تمهيد
١٣	الفصل الأول: في الفكر اللغوي
٢٧	الفصل الثاني: في التطور اللغوي
٤١	الفصل الثالث: الدلالة والمعنى
٤٩	الفصل الرابع: الألفاظ الإسلامية
٥١	الفصل الخامس: في المشكلة اللغوية
٦٥	الفصل السادس: في تاريخ المشكلة اللغوية
٨١	الفصل السابع: من أوهام النحويين الأقدمين
٩٥	الفصل الثامن: الأضداد
١٠٩	الفصل التاسع: الإبدال والقلب
١٢٣	الفصل العاشر: تحقيق لغوي في الصيغ والاستعمالات
١٤٣	الفصل الحادي عشر: الثقافة العامة في التاريخ
١٥١	الفصل الثاني عشر: الأصول التاريخية للعامة البغدادية
٢٠٥	الفصل الثالث عشر: العربية التونسية
٢٢٧	الفصل الرابع عشر: الجديد في اللغة والمعجم العربي الحديث

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

التطور اللغوي التاريخي

هذه مجلة فصول في التطور اللغوي في ظروفه التاريخية . وهو قائم على الإفادة
 من القديم والجديد ، هادف إلى بيان أوجه هذا التطور والعوامل التي أثرت فيه .
 وأنا إذ أبسط للقارئ هذه المواد أدعوه أن يسير معي فيتعلم أن هذه اللغة
 في حدودها الواقعية في عصرنا هذا غيرها بالأمس ، وأنا أدعوه أيضا إلى درسها درسا
 جديدا مستقريا نصوصها في مختلف العصور ليستكمل له البحث العلمي التاريخي ،
 وبذلك يتبين لهذه العربية أسلوب في الفهم والعلم على نحو ما هو جار في اللغات
 المتقدمة في عصرنا هذا .

لا صير حيا
 حيا صير حيا
 لا و نا ل ف صر نا
 حمله ط با ا يلا و لو

